رواية

مصطفى عبيد

نيتروجلسرين

أن تعيش لتقتل

t.me/qurssan

نيتروجلسرين

أن تقتل لتقتل

مصطفي عبيد

رواية

t.me/qurssan

نيتروجلسرين

أن تقتل لتقتل

مصطفي عبيد

رواية

t.me/qurssan

«لا أحلم بأن يشرب الذئب مع الخروف من وعاء واحد. هذا حلم كبير. لا أحلم بأن يتوقف الناس عن متعة القتل. إن هذا مستحيل. كُل حلمي أن يظل القاتل قاتلًا والقتيل قتيلًا، دون أن تختلط عليّ اليد التي غرست السكين والقلب الذي تلقى الطعنات.

هابيل حبيبي، أفرح به حين يرفض مد يده ليبادل ابن أمه طعنة بطعنة. قابيل حبيبي. أفرح به وهو يبكي من الألم حين رأى جثة أخيه عارية، محرومة الروح في العراء.

أحلم بالحياة، حلبة مصارعة، بالعدل، بين الخطأ والندم، لا منتصر فيها ولا مهزوم».

الشاعر عماد أبو صالح

t.me/qurssan

خطاب من قارئ

عزيزي الأستاذ......

تحية عطرة وسلامًا ومحبة.

أما بعد.

أتابع باهتمام ما تنشره من حكايات غريبة عن القتلة السريين في تاريخنا الحديث، وأتعجب مثلما تعجبت أنت كيف أخرجت هذه الأرض تلك النماذج، وكيف خطا على ترابها هؤلاء البشر! إنك بما تثبت تضبط جينات التطرف والإرهاب المتوارثة عبر أجيال من المصريين جيلًا بعد آخر. وأتصور أنك مُحق في تصديرك المقالات التي نشرتها بُحكم ثابت يؤكد أننا شعب يُخلّد المُجرمين ويُقدّس القتلة، وربما كان ذلك سببًا في اتساع دوائر العُنف في السنوات الأخيرة.

لن أطيل عليك سيدي، فالحكاية أنني وجدت كنزًا وثائقيًا أعتقد أنه يهمك ويهم الناس عندما اشتريتُ شقة قديمة في شارع الإسكندر الأكبر بمصر الجديدة لأخصصها عيادة لي. في إحدى الغُرف ترك المالك أجولة مملوءة بالكُتب والمجلات والأوراق القديمة، وبينها هالني أن أجد دفترًا مُجلدًا ومُعنونًا بكلمة «حياتي»، وهو ما جذب انتباهي لكونها مذكرات لشخصية قد تكون مُهمة. قلبت وريقات المُجلد لأجد حكايات عن عمليات اغتيال وقتل ومُتفجرات ومُحاكمات فلسفية لبعض المشاهير وتوصيف لكُل مُستهدف بكلمة «خائن»، وهو ما جعلني على يقين أنَّها تخُص قاتلًا سريًا مُحترفًا. ويبدو أنَّ هذا الرجل هو الذي أوحى للكاتب الراحل إحسان عبدالقدوس بكتابة روايته الشهيرة «في بيتنا رجل»، خاصة أنني وجدت طبعات مُتعددة من الرواية وصورًا مقصوصة من مجلات لعُمر الشريف، وهو يؤدي دور بطل الفيلم الذي حمل نفس اسم الرواية.

t.me/qurssan

وبعـد... فـإنَّ ضيـق وقـتي وضعـف معرفـتي بالتاريـخ دفعـاني أن أبعـث لـك بحزمـة الأوراق كاملـة، لعلـك تُحصّـل منهـا معلومـة غائبـة أو تُحقـق حكايـة غامضـة تُسـاهم بهـا في تنويـر النـاس.

ولك مني خالص الود وعظيم التقدير..

الدكتور حاتم مُصطفى الطوخي

استشاري العظام بمستشفى عين شمس التخصصي

t.me/qurssan

كلمة إلى الكاتب

ا‍مـوت في هــدوء، تُغــادر في صمــت، تخفُــت رويــدًا بعــد أن فتلــوا ا ك المشـانق. تنسـحب بعيـدًا لترفـرف في اتجـاه آخـر. تكشـف حيلهـم، وامحــو مـن فخاخهـم وتؤثـر لـك الحيـاة بقـدر حرصـك عـلى المـوت. .. نوات وراء سـنوات، وأنـت تطـير كفراشـة حـول نيرانهـم، تقفـز كأرنـب ، ري فـوق حواجزهـم، وتفلـت كثعبـان مـن ضربـات بطشـهم. تُقـاوم ،،ساص وتصـبر كصحـراء وتُخطـط كثعلـب مُغامـر.

أ‍نـت دائمًـا تعلوهـم بوطنيتـك وتسـبقهم بولـه الشـباب وتتفـوق ،اههـم بإعجـاب الرائـين والسـامعين، لكنـك الآن تمـضي وحيـدًا مُنعـزلًا، لا يعرفـك النـاس، ولا يستوقفك المـارة ليسـألوك إن كُنـت فلانًـا. انقلـب الزمـن وتبدلـت الأقنعـة وارتـدى الخونـة أرديـة البطولـة وربـح الانتهازيون والجُبنـاء، فـصرت نسـيًا منسـيًا. لا أهـل ولا تلاميـذ ولا أنصـار ولا حبيبـات ، تقطـر قلوبهـن خوفًـا عليـك.

حـلَّ زمــن الخيانــات. الأبطــال صــاروا إرهابيــين، والمُحرضــون عــلى العُنــف أصبحـوا أنبيـاء رحمـة، وزعيـم القتلـة سـموه رئيسًـا مؤمنًـا. أمـا المدانيـون، والمُضحـون، والعائشـون مـع الأخطـار فطاردتهـم أوصـاف دنيئـة مـن عينـة «مُتطـرف»، «إرهـابي»، «مهـووس بالـدم».

هكـذا المـوت أولى، وأفضـل، وأشرف، فأقفـز إلى الضفـة الأخـرى. يكفيك أنك لـن تمـوت تحـت أقدامهـم، ولـن يفترسـوا جُثتـك. يُرضيـك أنـك لـن تمنحهـم نظـرات الشـماتة، ولـن تهدِهـم طمأنينـة التشـفي وأنـت تبـدأ رحلتـك الأبديـة نحـو المجهـول.

أيهـا السـاكن بـلا حـراك، مُنتظـرًا موعـدًا ضربـه لـك مـلاك الهيبـة الـذي زارك قبـل أيـام: يمـم فـؤادك أو تريـث، لا يهـم، فالموعـد لا يقبـل التأجيـل، وقُـل مـا تريـد واكتـب مـا تشـاء وأوصى بمـا تتمـنى فليـس

t.me/qurssan

هُنـاك ماكينـة لإعـادة الزمـن وإيقـاف الفعـل.

الـكلام لا يُغيـر أمـرًا والكتابـة لا تُصحـح مـا كان، والدمـوع لا تُعيـد مـا فـات، ومـا جـرى جـرى وأنـت راضٍ وحُـر، فاستسـلم للحظتـك الأبديـة واتـرك شـهادتك لعلَّهـا تكـون أجمـل مـا فعلـت في عُمـر تقبحـت فيـه أفعـال وتجملـت أفعـال واختلـط الحـق بالباطـل، وصرت نفسـك لا تـدري أأحسـنت أم أسـأت.

المـوتُ نهايـة البـشر، يولـدون صاخبـين وبكاؤهـم يبعـث الفرحـة في الآذان، ويعيشـون مُذبذبـين بـين الرضـا والسـخط، ويرحلـون مُتذكريـن مـا تركـوا مـن خـير، نادمـين عـلى أفعـال شر، ويخلفهـم غيرهـم ليكرروا ذكرياتهـم الحسـنة وندمهـم المُتأخـر، لا شيء تغير مُـذ خطـا آدم أولى خطواتـه عـلى الأرض.

تذكـر أنَّ بينـك وبـين الغيـاب سـاعات قـد تطـول وقـد تقـصر، وأنّ عليـك أن تُصفّـي ذهنـك وتُنقـي بالـك لتسـتنطق لحظاتـك لحظـة لحظة، تكُـر فيهـا مـا كان دون دفـاع أو تبريـر، وتسـتعرض خلالهـا مـا فعلـت دون حجـب أو توريـة. لا تنتظـر إنصافًـا ولا تُقـدم ندمًـا وإنمـا تـترك مـا تعرفـه لكاتـب الصُدفـة ليصيـغ مـا يـراه جديـرًا بالحـكي لأجيـال قادمـة تتخبـط وتتشـابك أمامهـا الـرؤى والـدروب. سـترك حكايتـك أمانـة لكاتـب لا يحبـك ولا يكرهـك، يدونهـا كعظـات لتائهـين يؤمنـون أنَّ الخـلاص في القتـل، أو دروس لشـباب عُميـت أبصارهـم وانخدعـوا بأقـوال كاذبـة وصدقـوا شـعارات رنانـة. رُبمـا صاغهـا أديـب بشـكل قصـصي جـذّاب ليؤثـر في نفـوس نقيـة تُجرجـر رويـدًا نحـو فخـاخ إبليـس فتكـون لهـم دليـل نجـاة.

سـترك أوراقـك لمَـن؟ لا تعـرف. سـتتركها نابضـة صاحيـة ناقلـة لحيـوات تابعتهـا، ورجـال عايشـتهم، وكلمـات آمنـت بهـا، وأيـام عصيبـة تغـذت عـلى روحـك، دمـك، وذرات الإنسـانية داخلـك. هـذه الحقيقـة الـتي عشـت سـاترًا لهـا، وتلـك النهايـة الـتي لـم تتوقعهـا. مـا أبشـعها مـن

نهاية: أن ترحل في صمت، في وحدة، وبدون مراسم احتفال، كمشردي الشوارع، وسكان الرصيف، والعائشين على الهامش. لولا بطاقتك ما عرفوا مَن أنت وأين تُدفن. لولا مرآة بسيطة مازلت قادرًا على قراءة ملامحك فيها لتصورت أنك لست أنت. غابت عيناك في ظلام الأسى وحفر الزمن أخاديد عجز وفشل في وجهك. زنت كلاب الشوارع وسفلة الناس بصورتك فصرت بقايا مسخ يحتقره البشر. لم يعد أمامك سوى الموت حلا، القفز إلى هُناك اضطرارا، الدخول إلى كهف النسيان، والتواري عن الجميع، واعتزال الحياة، شطب النفس من الوجود، محوها محوًا، ووأد الأنفاس المتبقية التي لا تمر دون أوجاع في الرئتين والبنكرياس والضلوع، وخلع جلباب الدنيا تماما.

ينتظرك الموت كصديق قديم يتبعك مُنذ مولدك، يُتابعك أينما ذهبت. فيما مضى كان يجري خلفك فتُسرع الخُطى وتبتسم كُلما ابتعدت لكنه لا يكف عن المطاردة. يرد الابتسامة لك في ثقة، وكأنّه على يقين بأنه سيلحقك يومًا ما. الآن لا سبيل للفرار، ستقف مُستسلمًا وستصافحه كما يليق بمبعوث الرب، ثُم ستسير إلى جواره في طاعة نحو عالم آخر وأناس آخرين.

الدار الآخرة هي الحيوان، موضع الخلود والديمومة، عالم اللانهاية، لا شرور ولا آثام، لا مظالم ولا اعتداءات، لا استغلال ولا توحش ولا جنون، لا حروب ولا غارات ولا اغتيالات، لا زعامة ولا استبداد، لا نفاق ولا مواءمات، لا رؤساء دول ولا جيوش ولا برلمانات، لا أحزاب ولا ساسة، لا مؤامرات ولا دسائس، لا صحافة ولا إعلام، ولا شيء البتة. هُناك حاكم واحد وحَكم أحد وملك وحيد ومتصرف مُنفرد. الكُل خاضع وصامت لا يمتلك النُطق أمام رب الأكوان.

ما كان رؤى يتحول إلى حقيقة، وما كان ظنًا ينقلب يقينًا. في دار البقاء لا احتمالات ولا خيالات، لا أمور نسبية، ولا افتراضات. النظام صارم، والعدالة سائدة، والكل يمضي نحو عمله دون مُناقشة. لذا

فاصـدق بشـدة وبحـرص كمحتـضر باحـث عـن فعـل خـير وحيـد في عمـر مـن الشـك والقسـوة والغـدر. واكتـب كشـاهد وبُـح كمعـترف وقُـل مـا يجـب قولـه.

حسين توفيق

نوفمبر 1978

t.me/qurssan

الفصل الأول
القاهرة

t.me/qurssan

لم يشهد ما جرى لكنه وعاه وعاشه تخيلًا كأنَّه يجري أمامه. حكايات والده، ومحاورات الكبار وقصاصات الصُحف تركت في دماغ الطفل البريء ذي العينين الزائغتين والسمت الانطوائي شعورًا عجيبًا اختلط فيه الإعجاب بالغيرة. زعيق يتردد صداه في أذنيه لشخص يصرخ «أمسكوا المجرم. أمسكوا القاتل» بعد دويّ ست رصاصات شقت طريقها نحو لحم مسئول كبير خرج للتو من مبنى نظارة الحقانية. الخائن نال ما يستحق بعد أن ترأس محكمة ظالمة اقتطفت أرواح بني وطنه لإرضاء جيش الاحتلال البريطاني. كان الطفل الصغير يتخيل مشهد ذلك الشاب النحيل إبراهيم الورداني، وهو يقترب من بطرس باشا ليُنفّذ فيه حُكم الشعب بالإعدام نظير سلسلة من الخيانات غير عابئ بضياع مُستقبل أو بطش سُلطة. سقط الرجل وسط حُراسه ومساعديه مُضرجًا في دمائه، وهو لا يكاد يُصدق أن تنصُب صدره وأمعاءه رصاصات الثأر بتلك الطريقة السهلة. نُقلت الضحية إلى مُستشفى ملتون بباب اللوق وزاره الجناب العالي، وبذل الأطباء الأجانب جهودًا مُضنية لاستخراج الرصاص، لكن قدر الله غلبهم، وانفلتت الروح إلى بارئها لتقف أمام محكمة أبدية مُطلقة العدل. فرح الناس كما لم يفرحوا مُنذ سنوات وهنأوا القاتل على صنيعه، وتبادل كثير من الشباب صورة الصيدلاني المقبوض عليه فيما بينهم حتى أن السُلطات أصدرت قرارًا بالقبض على كُل حائز لصور الجاني. ورغم مُعاقبة الشاب ذي الأربعة وعشرين عامًا بالموت، فإنَّه كتب شهادة خلوده حتى بعد تنفيذ الحُكم الذي تم لأول مرة ضد إرادة مُفتي الديار المصرية الشيخ بكري الصدفي، الذي أبدى تشككه في قوى القاتل العقلية.

فيما بعد عرف الطفل الصغير قبل أن يخطو نحو عامه السابع أنَّ والده توفيق بك أحمد كان من بين أصدقاء الورداني المقربين،

t.me/qurssan

وأنَّـه شـاركه أفـكاره وخططـه مـن خـلال خليـة وطنيـة باسـم «التضامـن الأخـوي» لكنّـه حصـل عـلى الـبراءة، لتجرفـه الحيـاة بعـد ذلـك بعيـدًا عـن السياسـة والعمـل الفـدائي وانخـرط في السـلك الوظيفـي صاعـدًا نحـو حيـاة هانئـة رغـدة لا يُعكرهـا خطـر، ولا يُربكهـا قلـق.

في بيـت يليـق بـأسرة ثريـة أبـصر «حسـين» حولـه وجوهًـا بـاردة انفصلت رويـدًا عـن وجـع النـاس بتحكُـم الأعـداء والخونـة في مصائـر العبـاد، وتأقلمهـم مـع الاحتـلال البريطـاني وتسـليمهم للغربـاء في قيادتهـم واسـتعبادهم. كان يشـعر أن أبـاه، ذلـك الرجـل القـوى المُهيـب ذا الشـارب المفتـول والنظـرات القاسـية، صـار متورطًـا في الطاعـة بعـد أن نـسى صديقـه «الـورداني» حـتى أنَّـه كـوّن رأيًـا رافضًـا لعمليـات الفـداء الـتي جـرت في أعقـاب ثـورة المصريـين سـنة 1919، ووصـم بعـض أبطالها مثـل المحامـي شـفيق منصـور بالهـوس والتطـرف. لـم يعُـد حسـين خائفًـا مـن نظـرات والـده الـتي كانـت تُخيفـه في المـاضى، نظـرًا لمعاملتـه الصارمـة مـع الخـدم والمسـتخدمين، واقتنـع أنَّـه في الحقيقـة شـخص مسـالم وخاضـع يحسـب ألـف حسـاب لأي موظـف أجنـبي يعمـل إلى جـواره في وزارة المواصـلات. ورويـدًا تبدلـت صورتـه في عقلـه الباطـن مـن فـدائي جـريء تدفعـه الوطنيـة إلى أن يُخطـط ويقتـل الخونـة في العقـد الأول مـن القـرن العشريـن إلى موظـف مُنتفـع يجلـس عـلى مقعـد وكيـل الـوزارة في العقـد الرابـع مـن نفـس القـرن.

وحـتى أمـه الحنـون، صاحبـة الوجـه الحليـبي المُسـتدير، والشـعر المُظلـم السـاحر صدتـه عنهـا بنظراتهـا المتعاليـة للخـدم والنـاس مـن حولهـا نظـرًا لانحدارهـا مـن أسرة تُركيـة كانـت مُقربـة يومًـا مـن البـاب العـالي. ورغـم إغداقهـا عليـه بالشـيكولاته والملبـس، ورغـم اهتمامهـا الجـمّ بتعليمـه الحـرص عـلى ارتـداء الملابـس النظيفـة، والظهـور بمظهر جميـل فإنَّـه كان يشـعر دائمًـا أنهـا مـن طـين آخـر غـير ذلـك الـذي أنبـت الوجـوه الكالحـة الموجوعـة بالفقـر والاسـتعباد حولـه. لقـد تألـم كثـيرًا

عندما عرف أنَّها أسمته «حُسين» تيمُنا بأسماء باشاوات وبكوات من أصول تُركية حملوا الاسم وحازوا مناصب رفيعة ونجاحات عظيمة، وهو ما دفعه بعد ذلك إلى ابتكار قصة مُلفقة مفادها تسميته باسم الثائر العظيم الحُسين صاحب المقام المشهور بوسط القاهرة، الذي يلتف حوله أصحاب الحاجات كل يوم.

في المعادي، ذلك الحي الجديد المُحتشد بفيلات وقصور الأثرياء والباشاوات كان يوقن أن هناك خارج حدود الرؤية المعتادة عوالم أخرى وأناسًا مُختلفين وأوجاعًا متنوعة، وكانت أذناه تلتقط بين الحين والحين فواصل من أحاديث أُم علي الخادمة مع عم صالح السُفرجي أو عُثمان الجنايني عن أحياء تغوص في الفقر وشوارع بيض بالحُزن وقُرى يسكنها فلاحون حفاة لا يجدون طعام يوم. وحول بيته كان يسير عساكر إنجليز بسيقان عارية ووجوه حمراء، يضعون مسدساتهم في أحزمة تلتف حول خصورهم، ويمشون في خيلاء كأنَّهم ملكوا الكون وما حوله.

في المدرسة، تضاعف شعوره بالغُربة بدءًا من اسم المدرسة وألسنة مُدرسيه وزملائه، وحتى أفكارهم وتوجهاتهم وأحاديثهم الخاصة. كانت المدرسة تحمل اسم «الفرير» بمعنى الإخوة، وقد أسسها شقيقان فرنسيان قدما إلى مصر منتصف القرن السابق لتعليم الطبقة المُترفة وأبناء الحاشية. كان مُعظم التلاميذ من أبناء الجاليات اليونانية والإيطالية والفرنسية والأرمينية، فضلا عن أثرياء اليهود من المصريين يبدون مُنفصلين عن قضايا البلد، ولا يهمهم كثيرًا جلاء الإنجليز عن مصر أو بقاؤهم، وتتركز اهتماماتهم في التعرّف على العلوم الحديثة، وتعلم اللغات والموسيقى، بينما يتفقون جميعًا حول حلم واحد هو العيش في أوروبا، حيث المدنية والرُقي والتقدم.

في كل صباح، كان عم عُثمان الجنايني يصطحب الطفل الصغير حتى

محطة القطار ليركب من المعادي حتى الظاهر حيث تقع مدرسته العتيقة، وكان الولد ضعيف الجسم يشعر أنَّ عالمًا غريبًا مفروضًا عليه، وهو ما دفعه للانطواء وتجنب مُصادقة أولاد الأجانب، وكان يستمع في القطار لذلك الصخب الدائر بين الأفندية والموظفين حول توقيع اتفاق الصداقة المصرية البريطانية الذي كان يراه البعض بداية طريق الاستقلال، بينما اعتبره آخرون تمييعًا للقضية الوطنية.

في تلك السنوات كان كثير من المصريين الثائرين قد خفتت عزائمهم ووهنت قواهم، وأيقنوا أنَّه لا بديل عن الحوار والتفاوض مع المُحتل مُقدمين مبدأ الاستقلال المُتدرج بديلًا للكفاح المُسلح، خاصة بعد أن أدان حزب الأغلبية فكرة الاغتيالات عقب مقتل السردار البريطاني السير لي ستاك واعتبرها أعمالًا صبيانية، بل إنَّه قبل المشاركة في حكومات ائتلافية تحكم فيها القصر وانتهت إلى لا شيء.

لم يكُن «حسين» مُختلطًا بأحد سوى الطفل نجيب، ابن خالته ذي العينين الزرقاوين والشعر الأشقر الذي كان يبدو حزينًا أغلب الوقت نتيجة انفصال والديه. وكانا يُمثلان معًا مشهدًا خياليًا لصراع الثري التركي المُتجبر والفلاح المصري ابن البلد، وكان «حسين» يُصر كل مرة على القيام بدور الفلاح، وكانت شرايين ذراعيه تتصلب وعضلاته تتمدد وهو يضغط على رقبة خصمه وابن خالته الذي يلعب دور التُركي المُتجبر. في تلك الأثناء أحس حُسين ببوادر شعبيته عندما كان سعيد شقيقه الذي يصغره بخمس سنوات يُشجعه بحرارة، في الوقت الذي كان فيه «مدحت» شقيق «نجيب» يشجعه أيضا. وقتها انتابه الشعور بأنَّه المُقاتل المحبوب الذي يُمكن أن يُعبّر عن مصر وقضايا المُضطهدين فيها.

***

في النادي مثل المدرسة لا أصدقاء أو أحباء. عبر الصبي «حسين» عامه الثاني عشر لينمو جسده فجأة وينقلب انطواؤه إلى شعور التفرُّد والقدرة. انتفخت عضلات ساعديه واشتدت صلابته بفضل الركض كُل يوم دون توقف مُراقبًا وقت الغروب. في نادي المعادي الذي فاجأهم رب الأسرة بالاشتراك فيه كان يجري دون هدف رافعًا شعار «لا ألم. لا كلل» مُطلقًا طاقات كُبتت سنوات عدة مُذ عرف حكاية إبراهيم الورداني وبطرس باشا. كان «حسين» كلما دخل النادي مع والديه وشقيقه الأصغر رأى أناسًا مُختلفين عن سواهم من البشر. ناس غير السائرين في الشوارع المؤدية إلى مدرسة الفرير الظاهر، أو الجالسين في القطار الذي يستقله كل يوم إليها. ناس وجوه باردة، هادئة، ترنو عيونهم دائمًا لأعلى ويتحدثون بصلف وغرور أحاديث سطحية غالبًا ما تكون باللغة الفرنسية أو الإنجليزية. سترات فاخرة، وفساتين ضيّقة وفاتنة، وعالم مُبهر يموج بالضجيج وحكايات المُترفين. الكلام عن مولانا الشاب المتدين وانتظاره وليًا للعهد يدور بين المُجتمعين كمسألة مصيرية للبلاد. والكلام عن التوتر المُخيم على أوروبا بسبب الخطر المُتزايد من توحش الألمان وخرقهم لمُعاهدة فرساي وتوسيع الجيش قبل التحالف مع بينيتو موسوليني للتوحد تحت اسم دول المحور يدور دون فهم لطبيعة الأمور وخصائص الأمم. والكلام عن القُطن المصري وهبوط أسعاره مكرر، وكأنَّ جميع سكان مصر يُتاجرون فيه. وبعض الأحاديث تعرُج على الوضع السياسي المُتيبس بعد إقالة الملك للنحاس باشا، تلك الإقالة التي بدا فيها الملك الشاب فاروق مُتعجرفًا، وهو يثأر من محاولات الباشا السيطرة عليه بعد تتويجه ملكًا على مصر والسودان.

سار «حسين» وحيدًا بين أشجار السرو المغروسة على الجانبين غير مُلتفتٍ لضحكات فتيات هُنا وهُناك حول أمور ظنَّ دائمًا أنَّها لا تعنيه. كان يُفكر صامتًا كيف فرَّ والده من مُجتمعه المصري وأصوله المتوسطة لينخرط وسط هؤلاء الكُبراء المُتحذلقين، الذين يعيشون

كسادة وكل مَن سواهم عبيد! كيف طاوعه قلبه أن يهجُر العمل السياسي ويخلد للدِعة ويُسلِم تسنيمًا؟

لاحظ «حسين» أنَّ «سعيد» شقيقه الأصغر يسير خلفه ببطء، فالتفت إليه ليجده مادًا يمناه الرقيقة ليمسك يده. سأله في جفاء عما يُريد، فأخبره أنَّه لا يجد أحدًا يلعب معه. ابتسم الصبي الأكبر وقال له:

ـ لا تغضب. لا تلعب مع هؤلاء. ليسوا منا.

هزَّ شقيقه رأسه مُجيبًا، ومُسلمًا كفه لتحتضن الكف الكبرى في محبة، وقال كمن يشكو:

ـ لا أجد مَن يلعب معي، حتى في البيت.

انزلقت فتاة عابرة كانت تركض وراء أُختها فندت من «حسين» التفاتة سريعة نحو وركيها العاريتين اللتين أطلتا من جونلة قصيرة، لكنَّه واصل السير مُطمئنًا شقيقه بأنَّه سيلعب معه. شعر بنشوة الرضا، وهو ينظر إلى شقيقه كتلميذ صغير يخضع لما تنبس به شفتاه بيسر. عبرا إلى جوار حمام السباحة المُكتظ بفتيات وشباب صاخبين يلهون في مرح، ورماهم «حسين» بنظرات سخط قبل أن يقول لشقيقه:

ـ هؤلاء ليسوا مصريين. ليسوا منا ولسنا منهم. نصفهم خواجات ويهود وخونة، والنصف الآخر أبناء كُبراء ينتفعون بالاحتلال. هؤلاء يأكلون من خير مصر دون حق وينهبونها كُل يوم. أما أولاد البلد فمطحونون وراء ما يُلقيه إليهم هؤلاء.

مصمص الصغير شفتيه مُبديًا عدم الفهم، لكن «حسين» واصل تمثيل دور الأستاذ قائلًا:

ـ هُم أشرار يا «سعيد».

ثُم أضاف:

t.me/qurssan

ـ وخونة.

بـدا الخـوف عـلى وجـه الصغـير كلافتـات المظاهـرات، فاسـتطرد «حسـين» قائـلًا:

ـ لا تخف يا «سعيد». أنا معك.

رمـت عينـا الصغـير نظـرات حُـب وافتتـان نحـو شـقيقه الكبـير، ثُـم همـس:

ـ أخاف عليك يا «حسين ». هُم كبار.

جاءه الرد ممتزجًا بنبرة ثقة:

ــ قُلـت لـك. لا تخـف. سـنكون أقـوى وأكـبر. أهـم شيء هـو الإخـلاص، وألا تُخـبر أحـدًا.

هـزَّ الصغـير رأسـه، وسـار مـسرورًا راضيًـا إلى جـوار شـقيقه، كان يشـعر أن شـقيقه الأكـبر هـو راعيـه الأول، وقائـده نحـو مـا لا يعلـم. كان يظُـنّ أنّـه ليـس مُجـرد أخ، وإنمـا هـو والـد جديـد، وقـدوة ومُعلـم، وفـوق كُل ذلـك صاحـب وأنيـس. صـار مُغتبطًـا أن وجـد أخـيرًا صديقًـا بعـد أن يئـس مـن دفـع «مدحـت» ابـن خالتـه للعـب معـه. كانـت عينـاه تبثـان طاعـة وخضوعًـا، وكان وجهـه ينضـح بالرغبـة في التعلـم والاسـتعداد التـام لتلقـي أي شيء مـن «حسـين»، لـذا فقـد تلقـى «سـعيد» الـدرس الأول فـور عودتهمـا إلى البيـت. وكان ذلـك الـدرس هـو: كيـف تقتـل الخـوف داخلـك؟

كان لـدى «سـعيد» قطـة صغـيرة ثلجيـة اللـون، كثيفـة الفـرو، زرقـاء العينـين، أحضرتهـا والدتـه لـه في عيـد ميـلاده السـابع. جثـا «حسـين» على ركبتيـه وأخرجهـا مـن عُلبـة خشـبية كانـت تنـام فيهـا، ومسـح بأناملـه الرقيقـة عـلى رأسـها مانحًـا إياهـا طمأنينـة السـلام، ثُـم قـام وهـو يحتضنهـا بيـسراه، وفتـح بـاب الشُرفـة في هـدوء قارئًـا في وجـه شـقيقه نظرة اندهـاش وخـوف. ابتسـم في بـرود وصـاح في «سـعيد»: ألقهـا مـن

t.me/qurssan

هُنـا. ألقهـا يـا «سـعيد». هيـا لا تخـف.

تجمَّد «سعيد «مصدومًا ليُكرر شقيقه:

ـ هيا يا «سعيد». اقذف بها إلى هذا السور.

هزَّ «سعيد» رأسه رافضًا، وقال مُستجديًا:

ـ حرام.

برقت عينا «حسين»، وانتفخ وجهه بُحمرة الغضب وهو يكرر:

ـ ليس حرامًا. اقتل خوفك.

ـ ستموت.

ـ لا يهـم. ليـس لهـا فائـدة. لـو قتلتهـا سـيكون لهـا فائـدة لأنهـا ستُعلمك ألا تخـاف.

ـ لكن أنا خائف.

ـ أول مـرة سـتكون خائفًـا، في الثانيـة سـتخاف أقـل، وبعـد ذلـك لـن تخـاف أبـدا، صدقـني سـتُصبح الأمـور عاديـة.

فهـم الطفـل الصغـير أنَّ شـقيقه هـو مَـن قتـل عصفـور أُمـه الملـون الـذي وجدتـه قبـل أيـام مكومًـا داخـل القفـص الكبـير. لقـد اسـتغربت أُمـه أن وجـدت رأس العصفـور يميـل إلى الزرقـة، لكنَّ أحـدًا لـم يلتفـت لاحتمـال أن تكـون هُنـاك يـدٌ امتـدت إلى عُنـق العصفـور لتعتـصره في هـدوء وجـرأة، جـرأة تليـق بقاتـلٍ عظيـمٍ ينتظـره مُسـتقبل دمـوي.

تدحرجـت دمعـة سـاخنة مـن عيـني الصغـير، وقـال لشـقيقه إنَّـه لا يسـتطيع. القطـة بريئـة، طيبـة، رقيقـة، توقظـه كل يـوم، وتلعـب معـه، ويُطعمهـا بيديـه. قطـب «حسـين» حاجبيـه، وأطلـق تنهيـدة ملـل، ثُـم عـاد إلى داخـل الغرفـة ووضـع القطـة مـرة أخـرى في صندوقهـا، وأخـبر شـقيقه ألا يطلـب منـه أن يلعـب معـه بعـد ذلـك لأنَّـه لا يلعـب مـع الجبنـاء، ولـم تكـد قدمـه اليمـنى تخطـو خـارج الغرفـة حـتى نـاداه «سـعيد» باكيًـا وقـال لـه:

ـ حسين. حسين. تعال. ارمها أنت.

ابتسم «حسين» ابتسامة المنتصر، وعاد سريعًا ليُخرج القطة من صندوقها ثُم رجع إلى الخلف، وبكل ما أوتي من قوة قذف بها لتسقط فوق سور الحديقة مُصدرة صوت مواء مكتوم، قبل أن يتمدد جسمها فوق السور مُتلويًا يمينًا ويسارًا، وبدا واضحًا أنَّها تتألم بشدة جعلت «سعيد» يُغمض عينيه، لكن «حسين» نظر إليها مُستمتعًا وهو يقول:

ـ هكذا تخرُج الروح.

شعر بنشوةٍ غريبةٍ وفخرٍ شديدٍ لأنَّه نجح في قتل الخوف والرحمة في فؤاد أخيه مثلما قتلهما في فؤاده من قبل. وقال في حنو مُصطنع:

ـ لا تُخبر أحدًا يا سعيد.

وأخرج من جيبه شيكولاتة كادبوري من تلك التي يعشقها «سعيد»، وقال فرحًا:

ـ ستكون معي دائمًا.

***

زمت العيون، وساد الصمت، وخربشت فئران الإثارة بأدمغة الصبية عندما قال لهم «نجيب»:

«لاشين» أسطورة. مُتعة جميلة. حدوتة البطولة. قصة الموسم.

كان «نجيب» مُنتفخًا وهو يحكي عن ذلك الفيلم الذي شاهده للتو في السينما. سرد «نجيب» أمام «حسين» و«سعيد» و«مدحت» وهُم يتزاورون أمام نادي المعادي أحداث الفيلم الذي سمحت له أمه بدخوله مع زملاء مدرسته. واستطرد وقد لاحظ اهتمام المُستمعين:

لاشين قائد شُجاع، طويل، وممشوق القوام، عيناه تشعَّان ذكاءً ودهاءً، ويتمتع بُحب الناس لشهامته ونُبله، يكتشف أنَّ الوزير

t.me/qurssan

فاسد ويُتاجر بأقوات الناس وينهب خيرات البلاد، ويحاول أن يشكي للسلطان لكنَّه يجده واثقًا في وزيره، وغير مُهتم بالشعب، بل إنَّ النساء هُنَّ شُغله الشاغل. يمل من واحدة فيهجرها إلى أخرى. ويحارب «لاشين» الأعداء وينتصر عليهم ويحضر للسلطان جارية اسمها كليمة لتدخل ضمن حريمه، لكنها تنفر منه فيقوم بسجنها، ويطلب البعض من السلطان معاقبتها بإهدائها إلى «لاشين» ولا تلبث أن تحبه بشدة، ويحبها هو الآخر، وتشتعل ثورة الجوعى في البلاد، ويأمر السلطان بتوزيع الطعام على الناس لكنَّ الوزير الفاسد يسرق الطعام هو ورجاله.

وتوقف «نجيب» هُنيهة مُستطلعًا قدرته على التشويق، فلكزه «حسين» طالبًا منه أن يُكمل، فواصل قائلًا:

ـ يُلاحظ الوزير ورجاله مقاومة «لاشين» لأفعالهم فيقررون التخلص منه، ويخبرون السلطان بحب كليمة له، ويسعى السلطان إلى اختباره فيلعب معه الشطرنج على أن يحصل الفائز على كليمة، ويفوز «لاشين»، فيغضب السلطان ويعتبر قائده خائنًا لأنَّه فاز لحبه للجارية ويأمر بحبسه، ثُم يأمر بإعدامه إلا أن الناس تضج بالفساد والفقر، وتقرر الثورة وتقتحم السجن وتنقذ «لاشين». ثُم يقوم الثوار بعد ذلك بقتل الوزير الفاسد وسجن رجاله، وتعيين «لاشين» مكانه ليحقق العدل بين الناس.

ـ والسُلطان؟

سأل «حسين» في حدة ظاهرة، فأجابه نجيب:

ـ ينصلح حاله ويحكم بعد ذلك بالعدل.

ضحك «حسين» قبل أن يقول ساخرًا:

ـ عدل؟ كيف يكون ذلك؟ هل ينقلب فرعون إلى موسى؟ هذا [illegible] الذقون.

ثم سأل مُجددًا:

ـ مَن هو مُخرج هذا الفيلم الأسطورة؟

ـ توجو مزراحي.

هز «حسين» رأسه باسمًا بطريقة لا تُناسب صبيًا في الرابعة عشرة من عُمره وقال بحكمة شيخ:

ـ أكيد. توقعت ذلك. توجو مزراحي. المُخرج اليهودي. لابد أنَّه قصد ذلك ليقول لنا إنَّ المشكلة ليست في الملك وإنما في رئيس الوزراء، وإننا لو اكتفينا بتغييره ستنصلح الأحوال.

بدا «سعيد» و«مدحت» لا يعيان كثيرا مما يقال، لكنهما كان يشعران أنَّ «حسين» يفهم أكثر رغم أنَّه لا يقرأ الصحف ولا يشاهد الأفلام مثل «نجيب».

رد «نجيب» قائلًا:

ـ انتظر. نسيت أن أخبرك أنني قرأت في الجورنال أنَّ نهاية الفيلم كانت مُختلفة وأنَّ الرقابة اعترضت عليها فتم تغييرها. ذكر البعض أنَّ النهاية في القصة الأولى تضمنت قتل الملك وتولي «لاشين» الحكم.

ـ لا تنبهر بقصة خيالية صنعها يهودي.

وضع «نجيب» كفيه بجيبي بنطاله وهُم سائرون، وبدا غير مقتنع بكلام «حسين»، وقال بعد فترة صمت طويلة:

ـ اسمع يا حسين. أنت مُتعصب ضد الفيلم لأنَّ مخرجه مزراحي اليهودي، بينما نسيت أنَّ كاتبه هو أحمد رامي وبطله حسن عزت، وبطلته نادية ناجي، ومنتجه هو أحمد سالم.

لم يُجبه حسين وإنما أخذ يُصفر هازًا رأسه يمينًا ويسارًا كأنَّه عازف كمان، مبْديًا عدم إعجابه برأي ابن خالته، وفي المقابل رأوا حشدًا من الفتيات يسير نحو بوابة النادي، كانت تتوسطهم فتاة جميلة ترتدي تنورة زرقاء فوق قميص فاتح، وتحمل فوق شفتيها

t.me/qurssan

ضحكة مُثيرة وحولها صديقاتها يتحدثن ويضحكن ضحكات مكتومة. رمقهن «نجيب» مُبتسمًا، وقال لابن خالته:

ـ إحسان هلّت.

ثُم نظر إلى شقيقه مدحت وقال له:

ـ تعال معي.

لكن «مدحت» أبى وقال بعصبية:

ـ لا. سأبقى مع حسين وسعيد.

فأشاح برأسه، وتركهم واقترب من الفتاة ذات الضفيرتين وقال بفرنسية:

ـ «بون سوار».

ابتسمت ومدّت يدها الرقيقة البيضاء مُصافحة وقالت له:

ـ «بون سوار».. أهلًا يا نجيب.

اهتزت أرنبة أنفها ليرقص قلب «نجيب» فخرًا أنها اشتمت رائحة كولونيا «اتكنسن»، التي يحرص على رشها كل صباح. عرفته بصديقاتها الثلاث سريعًا قبل أن تسأله عن أخبار المدرسة والنادي والقراءة والسينما ودروس الموسيقى، ورنت بعينين ماكرتين إلى صحبته، ثُم سألت بصوت أقرب للهمس:

ـ أما زال ابن خالتك لا يكلم البنات.

هز نجيب رأسه آسفًا وقال:

ـ لا عليكِ. دعكِ منه.

يُعجبها طوله، ونظرات عينيه المُقتحمتين، ويثيرها تعاليه. قربت وجهها من أذن نجيب، وهمست:

قُل له إنَّ صديقتي ميمي مُعجبة به. ستحضر معي حفل النادي يوم الخميس. أحضره لأعرفه عليها.

t.me/qurssan

مصمص شفتيه في تعجب وقال:

- سأفعل.

لَم اقترب منها أكثر، وهمس في أذنها كلامًا، تورّدت له وجنتاها، واتسعت ابتسامتها، وردت:

- بعد الحفل. يوم الخميس.

راقب «حسين» المشهد بعينين نهمتين، ورأى نفسه واقفًا فوق خشبة مسرح كبير وأمامه هؤلاء الفتيات وغيرهُن كثيرات يُصفقن له في إعجاب شديد ويهتفن باسمه. كانت هامته مرفوعة نحو السماء رانيًا إلى النجوم كبطل من أبطال الرومان.

لحظات لم تطل كثيرًا، واستأذن نجيب عائدًا لرفقته. كان الصبية الثلاثة يمشون في سكون مُتأملين الأشجار الباسقة، مُستنشقين الهواء الـمي قبل أن يعود إليهم سائرًا وعلى شفتيه الصغيرتين ابتسامة ماكرة. في طريقهم، دنا «نجيب» من «حسين» مُقاربًا له طولا، ومتفوقًا عليه عرضًا، وهمس في أُذنه بكلام لم يسمعه «سعيد» و«مدحت»، اللذان كانا دائمًا يشعران بقربهما أكثر من «حسين». كرر «نجيب» صب كلامه في أُذن «حسين»، الذي لمعت عيناه اهتمامًا، لكنهما لم تلبثا أن انطفأتا بعد قليل. كان همس «نجيب» يقول:

واضح أنَّ خالتي كثيرة الدعاء لك. أنت محظوظ جدًا. «ميمي» اختارتك. أجمل شفتين في النادي. حديث الشباب كُله. تُريد التعرف بك يوم الخميس. سأقول لك شيئا جرَّبته وعرفته. قُبلة الشفتين لها طعم مُمتع. سحر لذيذ يا حسين، تطير فيه روحك، وتُحلّق في سماء لا حدود لها، تمتص عسلًا جميلًا وتغيب عن الكون رغم أنفك، و...

ولم يُكمل «نجيب» حديثه حيث استوقفته كف حسين المُمتدة أمام وجهه، ورماه بكلمتين فقط. علا بهما صوته ليسمعه «سعيد» و«مدحت»:

t.me/qurssan

ـ أنتم تافهون.

***

بـدا القلـق عـلى وجـه «توفيـق بـك» عندمـا أخـبره الطبيـب أن ابنـه الأكبر يُعـاني مـن انفصـال في الشـبكية. كان المُهنـدس الكُـفء ذو الوجـه الصـارم يُلاحـظ كثـيرًا شرود ابنـه وانطـواءه وتعاملـه مـع مَـن حولـه بمزيج مـن العصبيـة والـبرود، وكان يشـعر باختـلاف الولـد عـن أبنـاء أصدقائـه المقاربـين لسـنه في تجاهلـه الاهتمـام بالفتيـات، وعـدم التشـبث بارتـداء الملابـس الفاخـرة، وقلـة الاختـلاط بالنـاس، وآلمـه كثـيرًا أنَّ الولـد يمنحـه نظـرات اتهـام دائمـة لا يعـرف مكنونهـا. ظـنَّ الموظـف الكبـير بـوزارة المواصـلات أنَّ فـترة المُراهقـة تفـرض عـلى ابنـه بعـض خصائصهـا، لكنـه لاحـظ عليـه بعـض التصرفـات الغريبـة كان مـن بينهـا نزولـه إلى حديقـة المـنزل في بعـض الليـالي للنـوم تحـت أشـجارها، وضبطـه أكـثر مـن مـرة يتنصـت عـلى جلسـاته مـع أمـه بغرفـة نومهمـا، وإمسـاكه صـواني الطعـام الخارجـة مـن الفـرن سـاخنة دون منشـفة. فضـلًا عـن ذلـك، فقـد لاحـظ الرجـل أنَّ ابنـه لا يخـاف مُطلقًـا، ولا يبـكي أبـدًا، حـتى عندمـا رسـب في مـادة الرياضيـات بالمدرسـة وتـم حرمانـه مـن المـصروف لأسـبوع كامـل فإنَّـه لـم يبـك أو يتأثـر.

ويومًـا سـأل الأب زوجتـه إن كانـت تُلاحـظ عـلى ابنهـا سـمات الحـدة أو العنـف، فقالـت إنَّ ابنهـا أكـثر وداعـة مـن ابـنيْ شـقيقتها لكنهـا رأت أنَّ مشـكلته الوحيـدة هـي كونـه خجـولًا جـدا. وحكـت الأم لزوجهـا أنَّ إحـدى صديقاتهـا كانـت تزورهـا قبـل أيـام، ورأت «حسـين» فاحتضنتـه وقبّلتـه، لكنـه غضـب بشـدة وجـرى مُسرعًـا وهـو يمسـح خديـه أمـام السـيدة وكأنَّهـا تحرّشـت بـه.

بعـد احمـرار دائـم لاحظتـه الأسرة في عيـنى «حسـين» كان لابـد مـن

t.me/qurssan

مرضه على طبيب مُتخصص، لذا فقد رافقه أبوه إلى مُستشفى العيون، حيث تم فحص عينيه فحصًا دقيقًا انتهى إلى ضرورة إجراء عملية جراحية له مع توقعات بتأثيرها على نظره فيما بعد، وهو ما ساهم في اتساع انطوائه، وسأل الوالد إن كان يُمكن تأجيل العملية إلى فصل الشتاء فوافق الطبيب مُقدرًا أنَّ ذلك أفضل.

كان شعور طاغٍ بالتقصير ينتاب الأب تجاه ابنه وهو ما دفعه يومًا لدعوته والحديث معه بصراحة، طالبًا منه أن يفتح له قلبه ويُخبره بأي شيء يُضايقه، لكنَّه كالعادة لم يتلق سوى نفس النظرات الغريبة الحادة، وعاد إلى أمه مُبديًا قلقه وطلب منها ضرورة توسيع محيط الولد الاجتماعي خاصة ممن هُم في سنه، وهو ما جعلها تستضيف مع بدء الإجازة الصيفية بعض الأولاد من العائلة ليلعبوا معه «حسين» و«سعيد»، فضلًا عن ابنيْ شقيقتها نجيب ومدحت.

في ذلك الوقت وجد «حسين» في ابن خالته الآخر «محمد إبراهيم» ولدًا ذكيًا طموحًا، يحمل ذات الكراهية والنفور من لهو الصبية وسطحيتهم، ورغم أنَّ والده «أحمد بك كامل» كان قاضيًا بمحكمة الاستئناف، فإنَّه كان يرى أنَّ العدل لا يُمكن أن يتحقق بدون دماء، وأنَّ الحق لا يسود إلا بقوة دافعة. انبهر «حسين» بابن خالته وهو يسخر من «نجيب» الذي يقرأ القصص ويُشاهد الأفلام ويشغل وقت فراغه بمُصاحبة الفتيات والعبث بأجسادهن مُعتبرًا ذلك من كمال الرجولة. حدثه «محمد» كيف دفع حماس الشباب ألمانيا إلى أن تُعيد إنشاء جيشها بعد أن كانت ممنوعة من ذلك عقب الحرب العالمية الأولى، ووصلت الإرادة بالألمان أنهم اجتاحوا بجيوشهم أراضي النمسا ثُم التشيك ليعلنوا التحدي المباشر مع الدولة التي تتجبر على المصريين وتستغلهم وتستنزف خيراتهم. وقال له «محمد» يومًا إنَّه قرأ كتابًا عن الزعيم أدولف هتلر الذي أعاد مجد الألمان وأثار حماسهم لتكوين امبراطورية عُظمى.

شعر الفتى الحزين بوجود غايات لحياته، وآمن أنّه يُمكنه أن يلعب دورًا حيويًا في طرد الاحتلال من مصر. تذكر الولد مُظاهرات رآها وتابعها هُنا وهُناك تؤيد هتلر والمحور وتتمنى الموت للإنجليز بعد أن أصبح الصراع بين القوتين مُعلنًا، ودار في رأسه هُتاف أطفال المدرسة وبعض المدارس المجاورة «يا عزيز يا عزيز. كُبة تاخد الإنجليز»، وعرف أنَّ «عزيز» هذا ضابط مصري يتعاون مع الألمان ويدعوهم لغزو مصر. وقرر «حسين» إغاظة العساكر ذوي السيقان العارية الذين يتجولون كُل يوم في شوارع المعادي كأنّهم آلهة إغريقية، وقال لصحبته يومًا:

ـ سأبدأ المعركة ضد الإنجليز.

كان مع أبناء خالته يتحدث بنبرة رجولية تمكنت من صوته وتزامنت مع نبت صغير لشنب أخضر رسم حدوده فوق شفتيه، لكنَّه تلقى ردًّا ساخرًا من «نجيب» وهو يقول له:

ـ هل ستحارب الإنجليز بدبابتك المُخبأة بحجرة عم عُثمان الجنايني؟

وجاء رد «حسين»:

ـ لا يا نجيب. بعم عُثمان نفسه.

وخرج ووراءه «نجيب» و«سعيد» و«مدحت» و«محمد» ليروه يأمر عم عثمان بإحضار دلو القار الذي كان يدهن به سور الحديقة، ثُم مشى ووراءه الرجل الخمسيني الذي شعر بالسرور لإرضاء الصبي دائم العُزلة وكثير الحُزن، ومضيا في الشارع حتى وصلا أمام بيت مهجور، ووقف «حسين» يغمس الفرشاة في القار ليرسم بها على الرصيف صلبانًا معقوفة. ومن شارع لآخر تحركا ليُكرر الولد رسمه في نشوة، بينما كانت عيون رفاقه تُلاحقه بانبهار. مشى بفخر عائدًا إلى البيت بعد فراغ دلو «عم عثمان» والتف حوله أقرانه، وهنأه «محمد»، بينما سأله «سعيد» عن معنى رسمه فأخبره بأنَّ الصلبان المعقوفة

عرضه على طبيب مُتخصص، لذا فقد رافقه أبوه إلى مُستشفى العيون، حيث تم فحص عينيه فحصًا دقيقًا انتهى إلى ضرورة إجراء عملية جراحية له مع توقعات بتأثيرها على نظره فيما بعد، وهو ما ساهم في اتساع انطوائه، وسأل الوالد إن كان يُمكن تأجيل العملية إلى فصل الشتاء فوافق الطبيب مُقدرًا أنَّ ذلك أفضل.

كان شعور طاغٍ بالتقصير ينتاب الأب تجاه ابنه وهو ما دفعه يومًا لدعوته والحديث معه بصراحة، طالبًا منه أن يفتح له قلبه ويُخبره بأي شيء يُضايقه، لكنّه كالعادة لم يتلق سوى نفس النظرات المُريبة الحادة، وعاد إلى أمه مُبديًا قلقه وطلب منها ضرورة توسيع مُحيط الولد الاجتماعي خاصة ممن هُم في سنه، وهو ما جعلها تستضيف مع بدء الإجازة الصيفية بعض الأولاد من العائلة ليلعبوا مع «حسين» و«سعيد»، فضلًا عن ابنيْ شقيقتها نجيب ومدحت.

في ذلك الوقت وجد «حسين» في ابن خالته الآخر «محمد إبراهيم» ولدًا ذكيًا طموحًا، يحمل ذات الكراهية والنفور من لهو الصبية وسطحيتهم، ورغم أنَّ والده «أحمد بك كامل» كان قاضيًا بمحكمة الاستئناف، فإنَّه كان يرى أنَّ العدل لا يُمكن أن يتحقق بدون دماء، وأنَّ الحق لا يسود إلا بقوة دافعة. انبهر «حسين» بابن خالته وهو يسخر من «نجيب» الذي يقرأ القصص ويُشاهد الأفلام ويشغل وقت فراغه بمُصاحبة الفتيات والعبث بأجسادهن مُعتبرًا ذلك من دلائل الرجولة. حدثه «محمد» كيف دفع حماس الشباب ألمانيا إلى أن تُعيد إنشاء جيشها بعد أن كانت ممنوعة من ذلك عقب الحرب العالمية الأولى، ووصلت الإرادة بالألمان أنهم اجتاحوا بجيوشهم أراضي النمسا ثُم التشيك ليعلنوا التحدي المباشر مع الدولة التي تتجبر على المصريين وتستغلهم وتستنزف خيراتهم. وقال له «محمد» يومًا إنَّه قرأ كتابًا عن الزعيم أدولف هتلر الذي أعاد مجد الألمان وأثار حماسهم لتكوين امبراطورية عُظمى.

شعر الفتى الحزين بوجود غايات لحياته، وآمن أنَّه يُمكنه أن يلعب دورًا حيويًا في طرد الاحتلال من مصر. تذكر الولد مُظاهرات رآها وتابعها هُنا وهُناك تؤيد هتلر والمحور وتمنى الموت للإنجليز بعد أن أصبح الصراع بين القوتين مُعلنًا، ودار في رأسه هُتاف أطفال المدرسة وبعض المدارس المجاورة «يا عزيز يا عزيز. كُبة تاخد الإنجليز»، وعرِف أنَّ «عزيز» هذا ضابط مصري يتعاون مع الألمان ويدعوهم لغزو مصر. وقرر «حسين» إغاظة العساكر ذوي السيقان العارية الذين يتجولون كُل يوم في شوارع المعادي كأنَّهم آلهة إغريقية، وقال لصحبته يومًا:

ـ سأبدأ المعركة ضد الإنجليز.

كان مع أبناء خالته يتحدث بنبرة رجولية تمكنت من صوته وتزامنت مع نبت صغير لشنب أخضر رسم حدوده فوق شفتيه، لكنَّه تلقى ردًّا ساخرًا من «نجيب» وهو يقول له:

ــ هل ستحارب الإنجليز بدبابتك المُخبأة بحجرة عم عُثمان الجنايني؟

وجاء رد «حسين»:

ـ لا يا نجيب. بعم عُثمان نفسه.

وخرج ووراءه «نجيب» و«سعيد» و«مدحت» و«محمد» ليروه يأمر عم عثمان بإحضار دلو القار الذي كان يدهن به سور الحديقة، ثُم مشى ووراءه الرجل الخمسيني الذي شعر بالسرور لإرضاء الصبي دائم العُزلة وكثير الحُزن، ومضيا في الشارع حتى وصلا أمام بيت مهجور، ووقف «حسين» يغمس الفرشاة في القار ليرسم بها على الرصيف صلبانًا معقوفة. ومن شارع لآخر تحركا ليُكرر الولد رسمه في نشوة، بينما كانت عيون رفاقه تُلاحقه بانبهار. مشى بفخر عائدًا إلى البيت بعد فراغ دلو «عم عثمان» والتف حوله أقرانه، وهنأه «محمد»، بينما سأله «سعيد» عن معنى رسمه فأخبره بأنَّ الصلبان المعقوفة

t.me/qurssan

هي شعار الحزب النازي، وهو ما يغيظ الإنجليز ويفزعهم، لكن «نجيب» الذي احتفظ بابتسامة باهتة مصمص شفتيه، وقال له:

ـ وماذا يعني ذلك؟ هل سيخرج الإنجليز من مصر لأنَّك رسمت لهم شعار النازي؟

وقبل أن يرُد تلقى «نجيب» لكمة قاسية من «محمد» الذي صرخ له:

ـ لا تكُن مُثبطًا.

أمسك «نجيب» برقبة ضاربه الذي بدا ضئيلًا إلى جواره، لكنَّه راجع فجأة عندما وجد عم «عثمان الجنايني» يهرع إلى «حسين» يخبره أن هُناك عسكريًا بالباب يُريده. ران الصمت على الجميع، وتسرب الخوف إلى قلوبهم عدا واحد فقط هو حسين نفسه الذي ذهب في هدوء وبرود، وسأل العسكري عما يريد، فأخبره أنَّ مفتش الأمن بالمنطقة يطلبه. ابتلع «حسين» ريقه وخرج من باب المنزل ليجد سيارة جيب بدون سقف يجلس فيها ضابط وعسكري مصريان، وما إن اقترب منهما حتى صاح به الضابط:

ـ يا ولد. أين دلو القار؟ أحضره، ستمسح ما رسمته بيديك.

ـ انتظر والدي.

قال «حسين»، لكن الضابط كان صارمًا:

ـ لن أفعل. ستأتي معي وستمسح ما رسمته. ليس لي علاقة بوالدك ولا يهمني مَن يكون. ولو تكررت فعلتك سأقبض عليك.

وكانت تلك الواقعة قاسية للولد الذي عرف أنَّ لكل فعل رد فعل، وأنَّ طريق التمرُّد مفروش بالأخطار، وأنَّ هُناك دائمًا عقابًا. وساءه أن تضاعف العقاب بعد علم والده، حيث تم إرساله بالقطار إلى عمه بالإسكندرية ليقضي الإجازة في عزبتها ويُحرم قليلًا من أبناء عائلته وشقيقه، لكن ذلك كان فرصة له للتفكير والتأمل وترتيب

الذهـن، ورسـم الطريـق لعمـل أكـبر وأكـثر خطـورة.

بينـه وبـين نفسـه كـرر «حسـين» سـؤال ابـن خالتـه «نجيب»عـن فائـدة رسـم الصليـب المعقـوف عـلى الأرصفـة، وأجـاب: لا شيء. وقـرر بحسـم أن يتحـول للعمـل الواقعـي، وأعلـن لنفسـه أنَّ الضربـات القادمـة يجـب أن تكـون موجعـة، ومؤثـرة.

***

نظـر إلى صدرهـا غـير مُصـدِّق، كيـف تحـررَ مـن كُل مـا عليـه بتلـك البسـاطة والسرعـة وبـدا فاتنًـا مُبهجًـا ككـرتي مُشـمش! لاحظـت عينـاه انتصـاب جيدهـا الرُخامـي الناعـم، وذلـك الوجـه المرسـوم بعنايـة فنـان مـن عـصر النهضـة، دقيـق الأنـف، صغـير الفـم، مُبهـر القسـمات. دقـق النظـر مُسـتمتعًا بضفيرتـين رفيعتـين اعتـادت أن تُدليهمـا عـلى الجانبـين لتبـدو كفتـاة بريئـة مازالـت تخطـر في سـنوات الطفولـة. اقـترب مـن جسـدها اللامـع متصـورًا أنَّـه كُتلـة مـن اللهيـب قبـل أن تُمسـك أصابعهـا الرقيقـة يـده اليُمنـى في دلالٍ وتضعهـا بـين نهديهـا. شـعر «حسـين» بخـدر غريـب يـسري في شرايينـه عندمـا لامسـت بشـفتين رقيقتـين خـدَّه الأيمـن، ثُـم زحفـت رويـدًا نحـو شـفتيه لتمتصهمـا في جنـون. تراجـع قليـلًا للخلـف، وأفلـت شـفتيه مـن قُبلتهـا المحمومـة وقـال لهـا مُتهتهًـا:

ــ إحسان. حسبت أنك تحبين نجيــ..

ولـم يُكمـل حديثـه حيـث أطبقـت شـفتاها مـرة أخـرى فـوق شـفتيه وهـي تتـأوه بشـبقٍ وتـرُد:

ــ لم أحب غيرك. حسين.

والتفـت يداهـا حـول رقبتـه في اللحظـة ذاتهـا الـتي احتـك فيهـا لحـم صدرهـا الطـري بجسـده العـاري، مُكتشـفًا لأول وهلـة أنَّـه مـنزوع

الملابس تمامًا. قشعريرة ساحرة تسرَّبت عبر شرايينه ونار لاهبة أمسكت بخلاياه النشطة. عار؟ سأل نفسه كيف؟ ومتى؟ حاول «حسين» أن يتذكر، لكنه لم يتمكن، أما أنثاه فقد امتدت يداها متحسسة ظهره الناعم، وجذبته بعنف نحوها، وهي تفح كثعبان غاضب. شعر «حسين» بالعرق يتصبب فوق جبينه، وأحسَّ لسانها يلعق عرقه بتلذذ فاضح. تسارعت دقات قلبه على وقع خُطوات تعلو رويدًا، ثُم انفتح باب الحُجرة فجأة ليطل أبوه بوجهٍ غاضبٍ وعينين حمراوين. لم ينطق الأب بكلمة، وإنما سدَّد نظرة احتقار نحو ابنه، وهزَّ رأسه أسفًا، ثُم قال كلمة واحدة:

اخص.

وكررها بصوتٍ أعلى:

اخص. اخص. اخص.

رصاصة قاسية ثقبت قلبه وامتدت. مثلك مثلهم أيها المُراهق. بِع نفسك إلى الشيطان، ولا تُفكر في البطولة. أنت تابع. خاضع. مُقلد. يشترونك بالقليل، وسيُخضعونك لإرادتهم. لو طلبوا منك الخيانة ستفعل طلبًا لشهوة تستعر دون مُطفئ.

سمع صوتًا مكتومًا يُناديه:

اقتل جوعك إن كُنت تريد مجدًا.

امتدت يد إليه هزَّته يمينًا ويسارًا، يد رقيقة، يعرف ملمسها. فتح عينيه ليُبصر شقيقه الأصغر جاثمًا فوق سريره ومناديًا:

حسين. قُم.

بزغ ضوء الشمس ناثرًا نهارًا جديدًا في فضاء الغرفة، وفاجأه شقيقه قائلًا:

ولدان غريبان بالباب يسألان عنك. يقولان إنَّهما زميلاك بالمدرسة، ويريدان أن تشارك معهما في سباق الدراجات.

ـ دراجات؟

قام نافضًا كسله، وشعر ببلل خفيف، وتذكر أنَّ الولدين سبق أن أخبراه في المدرسة أنَّهما يقطنان إلى جواره في المعادي، لكنَّه ابتعد عنهما لأنَّ أصولهما أجنبية. غسل وجهه، وسرّح شعره كما علمته أمه أن يفعل كل يوم فور استيقاظه، وخرج إليهما.

«جول أسود» شاب غريب الأطوار، حاد الطباع مولود من أم ألمانية وأب سوداني، يمتاز بضخامة الجسم وقوة العضلات، ورغم ذلك فهو أقرب للسذاجة والسطحية. أما «أنور فائق جرجس» فكان ولدًا نحيلًا مُنفلتًا إلى أبعد مدى، وله عينان زرقاوان، أحاطتهما ظلال سوداء نتيجة التدخين بشراهة لا تتناسب مع خمس عشرة سنة قضاها في الكون. دارت برأس «حسين» فكرة استغلالهما، خاصة أنهما مفتونان بالخروج عن المألوف وإتيان الغرائب والمغامرة. تناقش معهما، وأفهمها أنَّ سباق الدراجات لعبة جيدة لكنها لا تُناسبهما، وأنَّ عليهما استغلال قدراتهما وطاقاتهما في أعمال مفيدة مثل إرهاب الإنجليز وإلحاق الأذى بهم. فوجئ «حسين» بجيشان الحماس في وجهيهما وحتى بعد انضمام «سعيد» إليهم زاد حماسهما، وهو ما دفعه للحديث عن خططه لإحراق السيارات العسكرية التابعة للإنجليز. لقد أعجبه فيلم سينمائي شاهده ابن خالته «نجيب» وحكاه له لأنَّه عرض فكرة إحراق السيارات باستخدام الكيروسين.

في صباح تالٍ انطلق الصبية المغامرون «حسين» و«جول» و«أنور» ومعهم «سعيد» بدراجاتهم يطوفون شوارع الحي الهادئ باحثين عن صيد ثمين، مُعلنين بداية تجربة جديدة لإحراق سيارات الإنجليز العسكرية. ساروا مُتحمسين يُصفرون في تبادل كفريق مُتجانس مُنذ سنوات. في بداية المغامرة قابلوا سيارات مُسكونة بعساكر وسائقين استبعدوها تجنبًا للصدام، ورأوا بعد ذلك سيارات أخرى في شوارع صاخبة بالحركة، فتركوها خوفًا من القبض عليهم، حتى وصلوا بعد

t.me/qurssan

ـطواف ثـلاث سـاعات إلى شـارع مسـدود، لا يسـكنه إنسـان وشـاهدوا سـيارة كبـيرة بثمـاني عجـلات تقـف دون بـشر، فاقـترب «حسـين» مـن ـابهـا الأيـسر فاحصًـا، ثُـم صعـد إليـه، وكـسر زجـاج النافـذة بضربـة ـسا سريعـة، وتنـاول مـن «جـول» زجاجـة الكيروسـين ليصبهـا فـوق ـمقعـد السائق، ورمى إليـه «أنـور» علبـة الثقـاب ليُشـعل واحـدًا ويلقيـه ـاخـل السـيارة، لكنّـه انطفـأ سريعًـا، ليصـاب حسـين بخيبـة الأمـل. ـاحـطـات وقـرر مواصلـة تحديـه فأشـعل عـود الثقـاب الثـاني، ومُـني ـ..ات الخيبـة عندمـا خبـت نـاره فـور إلقائـه داخـل السيارة ثُـم أشـعل ـالـث، والرابـع دون جـدوى. وأخـبره أنـور أنَّ عليـه إشـعال شـعلة كبـيرة ـوإلقاءهـا بـدلًا مـن أعـواد الثقـاب، وعـلى الفـور مـزق فانلتـه الداخليـة ـحصل عـلى خِرقـة طويلـة مـا لبـث أن أشـعل فيهـا النـار وألقاهـا داخـل الـسـيارة لتـأكل نيرانهـا مقعـد القيـادة بنجـاح. امتقـع وجـه «حسـين» بلـون الـسـعادة ثُـم قفـز فـوق دراجتـه وانطلـق وإلى جـواره زُمـلاؤه مُغتبطًـا ـمـساره وعائـدًا إلى أبنـاء خالتـه بجبهـة مرفوعـة وشـعور طـاغٍ بالبطولـة.

ـعـد يومـين كـرر الصـبي الخجـول فعلتـه مـرة ومـرات في شـوارع عِـدة، أ ـم غـيّر توقيتـات عملياتـه بفطنـة عاليـة، كمـا غـيّر مُسـاعديه مـن عمليـة لأ ـرى مُسـتعينًا بابـنيْ خالتيـه «محمـد» و«مدحـت»، وبقـي «نجيـب» ـامـا المُشـاركة، مُعلنًـا التضامـن السـلبي وحفـظ السـر لهـم.

اتسـعت حالـة الفـزع بـين عسـاكر الإنجليـز في ثكنـات المعـادي، وحقـق البوليـس في حـوادث إحـراق السيارات والـتي بلغـت خـلال أقـل مـن شـهر ـامسـة عـشر حادثًـا، واسـتدعى مُفتـش الأمـن توفيـق بـك وأكـد لـه أنَّ ـهناك شـكوكًا عديـدة تحـوم حـول تـورط ابنـه في الحـوادث، لكـنَّ الرجـل ـذا المكانـة المرموقـة رفـض أي اتهـام، مؤكـدا أنَّ ابنـه لديـه مشـكلة في ـشبكة العـين ويعـاني مـن ضعـف شـديد في بـصره، وهـو مـا يسـتحيل ـمعه قيامـه بـأي فعـل يحمـل سـمة عُنـف. ووصـل الغضـب بالرجـل أن ـهدد بتصعيـد الأمـر إلى رئيـس الحكومـة باعتبـار أنَّ التحقيـق مـع ابنـه

t.me/qurssan

يستهدف النيل من أحد رجال الحكومة، فضلا عن تأثيره شديد السلبية على حالته النفسية.

وعلى مدى شهرين تاليين تابع الصبية المُغامرون الصُحف الصادرة باحثين عن أي إشارة لعملياتهم الفدائية دون أن يجدوا سطرًا واحدًا. كان لديهم شعور طاغٍ بضرورة أن يعرف الناس ما يفعلون، ودَّ «حسين» لو يجلس إليَّ والده يُحدثه بجرأة وشجاعة عن نضاله وحروبه السرية ضد المُحتلين.

لست ولدا تافهًا يا حضرة الفدائي القديم. لا سينما ولا فتيات. لا لهو ولا سهر. لا رقص ولا حفلات. لا ترف ولا استعلاء. كُلنا مصريون. أعرف أصولنا جيدًا وأعلم أننا لسنا أتراكًا ولسنا أعيانًا ولن يُشرفنا أن نكون كذلك. أسير على خُطاك أيها الوالد الصامت مُتتبعًا أقدام الخونة لأرسم لهم دروبًا إلى الجحيم. هكذا قال «حسين» لنفسه عندما تأمل صورته في المرآة يومًا بعد أن قفز طوله فجأة بأكثر من عشرة سنتيمترات ليبدو كنخلة باسقة ترُش ظلالها يمينًا ويسارًا. فكَّر وقتها أن عليه تحويل نشاطه وصحبه من مغامرات صبيانية إلى عمليات فدائية مُنظمة، وبدأ ذهنه موجهًا نحو ضم عناصر جديدة وتوسيع نطاق أهدافه ووضع أفكار وحيل جديدة وتعريف الجماهير بنضالهم حتى يتحول إلى موجة عارمة لا تُبقي ولا تذر.

كانت حكومة علي ماهر باشا قد أعلنت فور قيام الحرب العالمية الأحكام العرفية ووضعت الرقابة على الصحف والمكاتبات والرسائل ودور السينما وما تعرضه من أفلام، كما شملت الرقابة ما تبثه الإذاعة من أخبار وبرامج، ولكنَّ «حسين» ورفاقه كان لهم رأيٌ آخر، إذ اعتبروا الفرصة سانحة لبدء الحرب السرية ضد الإنجليز والخونة.

***

كان السيجار الغليظ الذي لفته أيادٍ ناعمة في الضفة الأخرى من العالم مُختنقًا بين أصابع «توفيق بك» وهو يجلس أمام مكتبه الخشبي الضخم مُتحدثًا بصوت خافت إلى «سميرة» زوجته وأم ابنيه «حسين» و«سعيد»، بينما كانت السيدة البيضاء ذات النظرات اللامعة تُدخن سجائر رقيقة في عصبية ظاهرة. لم يكُن الزوجان الصارمان يعرفان أنَّ ابنهما الأكبر والذي كان محور كثير من أحاديثهما الهامسة ينصت عليهما في هدوء اعتاده.

كان الأب ذو الوجه المُستدير والصلعة الواضحة يحاول كتمان ملامح حزن زارت روحه وانعكست على وجهه. قال توفيق بك لزوجته إن «حسين» دائم النظر إليه بعتاب، وأنَّه يلمح في وجهه زيغ دائم، ويخشى أن تكون للولد رغبات شاذة خاصة أنَّه لا يشعر باهتمامه تمامًا بالتعرف على فتيات أو التحدث مع بنات أصدقائه في حفلاتهم ولقاءاتهم في النادي.

وقالت السيدة «سميرة» لزوجها إنَّها لا تشعر بصحة هواجسه تجاه «حسين» فيما يخص عدم سلامة سلوكه أو وجود توجهات شاذة له. إنَّها لا تأبه كثيرًا بعدم اهتمامه بمُصاحبة الفتيات مثل ابن خالته «نجيب»، لأنَّها تتصور أنَّه خجول بعض الشيء، لكنها لا تتصور أبدًا أن يكون بلا رغبات تجاه الفتيات، ودللت على ذلك رأته يضع في حُجرته كثيرًا من التصاوير الخاصة بفنانات شهيرات مثل «جريتا جاربو»، و«كاثرين هيبورن»، و«بيتي ديفيز». وكان من رأيها أنَّ المرض الذي يُهدد عين «حسين» هو السبب في عصبيته العادية وعدم اختلاطه بالأسرة وجنوحه إلى قضاء ساعات طويلة في حديقة المنزل مع شقيقه وأبناء خالته. وقالت إنَّ أكثر ما يضايقها في سلوكه هو اختلاطه ببعض المستويات الدُنيا من الناس مثل «نعمان الجنايني» وأبنائه وقريبه الولد الشقي «سيد». وشكا رب الأسرة من امتعاضه من ضعف مستوى ابنه الدراسي واضطراره لنقله من

مدرسة إلى أخرى، مُعترفًا أنَّه يشعر بغربة شديدة كلما نظر في عينيه، وشاركها تخوفه من تقليد شقيقه الأصغر له.

نجحت خططك يا ثعلب المدينة. قالها «حسين» لنفسه وهو يُتابع حديث والديه من خلف خزانة الكُتب الكبيرة التي تستند إلى الجدار بجوار المكتب. لقد سمع حديثًا مُشابهًا قبل أيام وهو ما دفعه أن يضع صور الفنانات الشقراوات بين دفاتر كُتبه ليمحو القلق من نفس أمه، مؤكدًا لها أنَّه مثل مَن هُم في عمره يُحب النساء ويعشق أجسادهن. فكر أنَّ أمامه رحلة كفاح طويل تحتاج رضا الأهل وسكوتهم وهو ما يستلزم إقناعهم بأنه شخص طبيعي، بل وطبيعي جدًا. وتذكر اتفاقه مع ابنيْ خالتيه «محمد إبراهيم» و«مدحت»، وقريب الجنايني المُسمى «سيد» على بدء خطة تسليح عن طريق شقيق عم «عثمان الجنايني» الذي يسرق الأسلحة من معسكرات الإنجليز ويبيعها، وخطرت في رأسه فكرة استغلال مخاوف والديه من تجنبه للفتيات في الحصول على أموال كافية لشراء السلاح من السارق.

في الصباح اتصل بـ«نجيب» سائلًا إن كان سيخرج في المساء، فأجابه بأنَّه سيذهب إلى نادي الطيران الملكي لمشاهدة فيلم فرنسي عن الطيران، ثُم سيلتقي فتاة يونانية تعرف عليها قبل أيام في آلامريكين بوسط المدينة. سأله إن كان يُمكن أن تُعرفه صديقته على إحدى صديقاتها فقال إنَّه سيحاول، مُستغربًا سلوك ابن خالته غير المعتاد. دعاه أن يمُر عليه لاصطحابه معه، ثُم ارتدى بذلته الأنيقة وذهب إلى أمه سائلًا إياها إن كان مظهره مُناسبًا، فهزت رأسها ثُم سألته إلى أين يذهب، ففاجأها معترفًا ببعض الخجل بأنَّه سيلتقي فتاة يونانية تعرف عليها مؤخرا مع «نجيب»، وأنَّه مُتردد في الذهاب لأنَّه يعلم أنَّ اللياقة تُحتم عليه دعوتها للعشاء، وأن مصروفه انتهى ولا يستطيع أن يفاتح والده في ذلك. بدت «سميرة» سعيدة باعتراف

اسهـا، وقامـت مُسرعـة لتـدُس في يـده بضعـة جنيهـات ناصحـة إيـاه أن يبـدو كريمًـا ولطيفًـا مـع صديقتـه. وتأكـد فرحهـا ورقـص قلبهـا مـن السعادة وهـي تسـتقبل ابـن شـقيقتها «نجيـب» مُتأنقًـا ومُتعطـرًا بعطـر جذاب يخلُـب الألبـاب. قبلتـه عـلى خـده في حنـو خالـة كبـيرة، وسـألته عن وجهتيهمـا، فقـال:

- سنُشاهد فيلمًا في نادي الطيران.

ابتسمت، وهزّت رأسها المُستدير وواصلت مُبدية تفهمًا:

- ثُم إلى أين يا نجيب؟

- سنلتقي أصدقاء آخرين لنا.

اتسعت شـفتاها مُعلنـة أنَّ هواجـس زوجهـا بشـأن شـذوذ ابنـه في غـير محلها، ثُـم سـألت:

- أي أصدقاء بهذه الأناقة؟

ثم هزّت أرنبة أنفها مُتشممة وأضافت:

- وهذا العطر الجميل؟

- مسكين.

- من ستقابلان؟

سـألت السـيدة النابهـة. فابتسـم «نجيـب» بمكـر دون أن ينطـق، فكررت:

- فتيات؟ أليس كذلك؟!

هزّ رأسـه موافقًـا، بينمـا كانـت عينـا حسـين تتابعـان المشـهد برضـا وسرور ليسـمع أمـه تقـول بابتسـامة واسـعة:

- عظيم. لا تخجلا. لقد كبرتما وأصبحتما رجلين. كونا لطيفين.

ثم غمزت بنصف عين لابنها قائلة:

- حبيبي لا تخـش شـيئًا. لـن أخـبر والـدك. لكـن عـدني أن تُذاكـر وتجتهد

t.me/qurssan

وتُحقق أمل والدك في أن تُكمل تعليمك بأوروبا.

هزَّ «حسين» رأسه دون أن ينبس، وشعر أنه قادر على وضع خطط خِداع وتضليل، وأنَّه شخص ذكي على خلاف ما يعتقد والده، ورمى ابن خالته بنظرة ريبة لكنّه عاد مؤكدًا أنَّه لا يُمكنه إفشاء سر رغم خلافاته المتكررة معه وباقي أفراد العائلة.

خرجا معًا سعيدين والشغف ثالثهما، بحثا عن سعادة مُرتقبة. كان «حسين» قد قرر جمع المال بأي طريق وأي أسلوب لشراء مُسدس من حنفي شقيق «عثمان الجنايني»، بينما كان «نجيب» يشتاق للمسة يد ناعمة لفتاة أوروبية. في الطريق سأل «نجيب» ابن خالته: كم معه، فأجابه: ثلاثة جنيهات، فابتسم وقال:

ـ عظيم.

وأضاف:

ـ وأنا معي جنيه وسيكون بإمكاننا العشاء وشراء سجائر اكسترافين والسهر في أي كازينو صاحب ومعنا اليونانيات الجميلات. ستُسر جدا يا «حسين». قالت لي «كاليوبي» أنَّها ستُحضر صديقتها «تينا» وهي فتاة ساحرة، ستعرف معها كم كُنت مُخطئًا برفضك مُصاحبة البنات. سحر جميل يا «حسين».

تحسست أصابع «حسين» شعره المُسترسل المُلمّع بفازلين مُتميز، ثُم أخرج من جيبه المال الذي منحته له أُمه، ثُم سأل رفيقه أن يُعطيه ما لديه، استجاب له «نجيب» فرحًا، فتناولها «حسين» جميعًا ودسَّها في جيبه، ثُم سحب نفسًا عميقًا، وقال:

ـ اسمع يا نجيب. سنشتري بما معنا مُسدسًا لنبدأ الحرب الحقيقية.

امتعض نجيب وضاقت عيناه قبل أن يقول:

ـ مُسدس؟

ـ نعم.

t.me/qurssan

ـ كيف؟ والفتيات؟ وأمك؟ وجنيهي؟

ربت «حسين» على كتفه وقال:

ـ سنأكل آيس كريم وسنجلس مع فتياتك لكننا لن ندعوهما العشاء ولن نسهر. الوطن أولى يا صاحبي.

ـ لكن...

ـ انتهت المناقشة يا نجيب. هيا بنا.

وسارا معًا طويلين كمئذنتين، وشعر «نجيب» أنّه خُدع، لكنه ـلّى بالصمت، وخيبة الأمل، وتوقع أن يكون القادم مُخيفًا، لذا ـم يشعر في ذلك اليوم بلمسات حانية منحتها إياه فتاته «كاليوبي» ولـم تُثره رُكبتاها الخارجتان من تنورة قصيرة، وبدا مُستغربًا بشدة ـحك «حسين» وانخراطه في محاورات مثيرة مع الفتاتين وكأنّه خبير ـساء ممن يُشاهدهنَّ في أفلام السينما.

***

ـلقوا حوله ينظرون بولهٍ وامتنان. ماسورة من الصُلب الأسود ـامل، متعامدة على مقبض خشبي بُني اللون تُميزه مسامير كبيرة ـارزة.

سميث آند ويسون.

ـلق «حسين» الجالس واضعًا ساقًا فوق أخرى في صباح خريفي ـالي، وإلى جواره جلسوا جميعًا، ابنا خالتيه محمد ومدحت، وشقيقه ـمد، وصديقه الجديد سيد. كان «نجيب» سادسهم الذي غادرهم ـزلًا بعد أن أخبرهم أنّ الشركة التي صنعت المسدس هي شركة ـمريكية أسسها شخصان هما «هوراس سميث» و«دانيال ويسون» ـل نحو مائة عام وأنّها أكبر منتج للأسلحة في العالم.

t.me/qurssan

بـدا «سـيد» ذو الملابـس الرثـة والوجـه الأسـمر الشـاحب والعينـين الزائغتـين سـعيدًا بصداقـة أبنـاء الـذوات الذيـن يرطنـون بالإنجليزيـة والفرنسـية، ولا يحملـون هـم طعـامٍ أو ثيـاب، وينفجـرون غِـلًا وحقـدا لا حـدود لهمـا تجـاه المسـتعمر الإنجليـزي وكُل مَـن يتعـاون معـه. كان «سـيد» الـذي تكلـم التحـق بالمدرسـة بالـكاد، قبـل أن يأمـره والـده أن يلـزم «عثمـان الجنايـني» نهـارًا لعلـه يُصيـب خـيرًا أو عمـلًا قـد وجـد في «حسـين أفنـدي» سـيدًا ودودًا وصديقًـا وفيًـا، خاصـة عندمـا منحـه حـذاءً مـن الجلـد الأسـود بـدون أي ثقـوب، ثُـم ضمـه بعـد ذلـك إلى شـلة الأصدقـاء المؤتمنـين وكأنَّـه قريـب لـه. وجـد «سـيد» في شـلة الأولاد وفـاء، ودعمًـا لمُجتمـع مريـض لـم يكـن يمنـح أبنـاء الفقـراء أي نظـرة احـترام. لـذا، فقـد كان مُسـتعدًا دائمًـا أن يتلقـى دروس «حسـين» والاسـتماع لأفـكاره وخططـه بمحبـة طاغيـة وقناعـة تامـة بصـدق وطنيتـه ووطنيـة صُحبتـه.

ابتسـم «حسـين» وهـو يتأمـل جسـد الـ«سـميث آنـد ويسـون» بإعجـاب مَـن يشـاهد فاتنـة عاريـة. كـم أنـت مُبهـر ورائـع! كـم أنـت صديـق للأبطـال والشـجعان؟ حدَّثـه «حسـين» كصاحـب، كفـرد مـن أفـراد شـلته، كمـصري غيـور يغـلي الـدم في عروقـه كُلمـا شـاهد صلـف الإنجليـز أو تابـع خنـوع المصريـين وسـكونهم. كان يتخيـل نفسـه مُتمنطقًـا حزامًـا جلديًـا حـول خـصره ومُعلقًـا ذلـك المسـدس فيـه، ليُخرجـه بـين الحـين والحـين ويطلـق النـار عـلى عسـاكر الإنجليـز السـائرين بغـرور عـلى كورنيـش النيـل، فيسـقطهم واحـدًا تلـو الآخـر.

كان «محمـد إبراهيـم كامـل» عـلى قناعـة تامـة أنَّ أي مقاومـة أو مُشـاغبة للإنجليـز دون وجـود سـلاح هـي ضرب مـن السـذاجة، وأنَّ أي عمليـة بـلا آلـة قتـل مُجـرد لعـب أطفـال. إنَّـه يكـره لعـب الأطفـال ويعتـبر أنَّ المـوت في نظـره ضرورة لازمـة لاسـتمرار الحيـاة، ولا يُمكـن تحقيـق أي نـصر بـدون دمـاء.

t.me/qurssan

قال «محمد» وقد أبصر ذلك المُسدس ينتقل من كف لأخرى:

- يجب أن نتدرب جميعًا على إطلاق النار.

- طبعًا وبسرعة.

صاح به «حسين».

أما «سعيد» و«مدحت» فكانا خائفين، لكنهما كتما رائحة الخوف في أنفسهما مثلما اعتادا قبل أن يستمعا لـ«حسين» مُعلنا ميلاد الجمعية الوطنية لطرد الاحتلال.

بحسم وصرامة قال لهم «حسين»:

- إننا سنتعاهد على الكتمان والتضحية من أجل الوطن وسنبدأ خلال أيام بقتل الإنجليز. سنُقسم جميعًا على الإخلاص والتفاني وتسخير كُل جُهد ومال وقدرات ومعارف لتحقيق هدف الجمعية الأسمى وهو طرد الإنجليز بالقوة.

- ونجيب؟

قال «مدحت »، فأجابه «حسين»:

- لن يقبل بالانضمام إلينا. لكنَّه سيساعدنا رغمًا عنه.

في صحراء المُقطم وقفوا يضعون زجاجات النبيذ الفارغة التي شربوها ليصوبوا المسدس تجاهها، بعد أن انضم لهم جول ... ود. في البدء كان الرصاص يصفّر مُدويًا دون أن ينجح أحدهم في إصابة زجاجته لعدة مرات، وساعة بعد أخرى بدأت الأصابع اعتياد ... س المُسدس. كان «حُسين» هو الأكثر تماسكًا، غير أنَّ ضعف ... أشعره بالحُزن لعدم إتقانه إصابة أهدافه. قال لنفسه إنَّه ... الحظ لأنَّه صاحب فكرة الجمعية والعقل المدبر لها، لكن ... الشبكية لديه يجعله أقل حظًّا في الرماية. فكر وقرر سريعًا أنَّ ... أن يُخاطر ويخوض تجربة إجراء الجراحة بشكل عاجل غير عابئ ... ال فقدانه للبصر حال الفشل.

t.me/qurssan

في اليـوم ذاتـه أسرَّ إلى والدتـه بضيقـه الشـديد لاسـتمرار آلام عينيـه راجيًـا إيَّاهـا ضرورة الإسراع بإجـراء الجراحـة مُسـتعينًا ــ كعادتـه ــ بحكايـات مُلفقـة حـول اشـمئزاز إحـدى الفتيـات مـن مشـهد عينيـه واعتقادهـا أنَّـه مُصـاب بالحـول. وكمـا توقـع فقـد تنصـت عليهـا بعـد ساعات قليلـة تُناشـد والـده سرعـة إجـراء الجراحـة لـه، وهـو مـا أسـعده، عـلى الرغـم مـن معرفتـه بالاضطـرار للخضـوع لطبيـب إنجليزي كان يكـن لـه كُل الكراهيـة وعظيـم الاحتقـار.

في اليـوم المُحـدد وبمستشـفى بـاب اللـوق تمـدد عـلى الفـراش وحولـه وقـف أفـراد الجمعيـة يمنحونـه الثقـة والتشـجيع اللازمـين، بينمـا كان والـداه يدعـوان اللـه أن يمنحـه شـفاءً، وسـلامة، إذ كانـا مُقتنعـين أنَّ عصبيتـه ومشـاغباته الجمـة نتـاج طبيعـي لمـرض بـصره.

بـدا «حسـين» باسـمًا بثقـة وهـو يـودع وجـوه مُحبيـه قبـل أن يـسرح الخـدر بأوصالـه كجيـوش مـن النمـل النشـط الـذي انتـشر سريعًـا وبـلا مقاومـة في شرايينـه وعروقـه. أبـصر وجـه الطبيـب الإنجليـزي مذعـورًا وهـو يركُـض بينمـا كان يسـير هـو بثبـات وثقـة وفي يمينـه السـميث آنـد ويسـون، وأمامـه عسـكري نحيـل تـنزف سـاقاه دمًـا أسـود. وعـلى جانـبي الطريـق رأى حشـدًا مـن الوجـوه، أفنديـة، فلاحـين، طلبـة، سـيدات بمـلاءات سـوداء، وفتيـات بريئـات يُشـجعونه بحمـاس ليُكمـل تصفيـة دمـاء فريسـته، بينمـا كان «سـعيد» و«مدحـت» عـلى يمينـه و«محمـد» و«سـيد» عـلى يسـاره يتابعـون بشـغف. كان «نجيـب» يُتابـع مـن بعيـد في انبهـار. سرح ببـصره إلى بعيـد فشـاهد طرابيـش وطنيـة تعتـلي رؤوسًـا عديـدة متباينـة الطـول والقـصر تركـض أمـام العسـكري الإنجليـزي في فـزع مماثـل، بينمـا كانـت الشـمس تتوهـج نـاشرة نهارهـا ودفئهـا عـلى الجمـوع الحـاضرة. في طريقـه أبـصر صورتـه عـلى صفحـات الصحـف المرصوصـة عـلى الأرصفـة وتحتهـا بالبنـط الأحمـر كلمـة «بطـل مـصر». ومـن إحـدى الشُرفـات أطلـت «إحسـان» ــ فاتنـة المعـادي ــ بوجههـا

t.me/qurssan

الجميل وجيدها الرخامي لتُبصر مروره، بينما كانت أصابعها تتماوج يمينًا ويسارًا تحية له، لكنه لم يلتفت وواصل إطلاق رصاصه ليتدفق خيط الدماء سريعًا على الطريق ممتدًا من ساقيْ طريده. سمع صوت والدته تهتف به «حبيبي»، بينما كان كف والده الغليظة الدافئة تحتضن رأسه في حُنوٍ بالغ. كان يشتم رائحة تبغ والده عندما سمع صوتًا باردًا يُكرر:

- مبروك يا بك. العملية نجحت. النتائج أفضل مما توقعنا كثيرًا.

وغاب مرة أخرى عن الوعي لعلَّه يُدرك فريسته.

***

أبريل شهر التقلبات.عواصف تُرابية تصفع أوراق الشجر الخضراء لتُحيلها صفراء، سماء مُلبدة بغيوم صامتة دون مطر، وحرارة الطقس تزحف ببطء نحو سكان القاهرة، تلك الحرارة التي يكرهها «آدمز» مذ أهلَّ على مصر مُجندًا لتأدية واجبه الوطني نحو بلاده. في معسكر بعيد عن زحام الأفندية وأصحاب الطرابيش وضجيجهم يقضي نهاره مُلتزمًا بنوبة حراسة لمساكن إيواء حامية إنجليزية جديدة عسكرت في حي المعادي بعد اشتعال الحرب العالمية، بينما ينتظر بشوق وتعجل حلول المساء، ليُسلم مُهمته لزميل آخر ويزور حانة «كاليوبي» الشهيرة على النيل راشفًا النبيذ الفرنسي المُعتق، مُستمتعًا بوصلات رقص شرقي لمصريات وشاميات ملفوفات الأجساد. كان «آدمز» ذو الثلاثة والعشرين عامًا يسير كعادته وحيدًا غير مُلتفتٍ لتعليمات وتوجيهات مُتكررة للجنود الجدد بعدم زيارة الحارات البعيدة فُرادى مُشعلًا سيجارة ماركة كريازي، ومُرددًا في شجن أغنية I,ll never smile again لفرانك سيناترا،عندما لاح أمامه مجموعة جنود قادمين بُخطى مُنتظمة، ووجوه عابسة يبدوعليها الاضطراب.

t.me/qurssan

كانوا خمسة مصريين يتوسطهم جسد فارع ذو شعر داكن وتلتمع عيناه بشرر غاضب، بينما بدا زُملاؤه كُحراس تابعين. تحسس بكفه مُسدسًا ماركة «كولت» يرقد في جراب جلدي مُعلّق بحزام حول خصره، وشعر باطمئنان مُستبعدًا نزوع الصبية السائرين لأي شر. قال لنفسه لو كانت لديه الشيكولاتة باللبن التي توزع عليهم لتقديمها للأطفال في شوارع الأحياء الفقيرة لمنحهم بعضها، مُتمتما بأنَّ هؤلاء المصريين طيبون رغم كُل شيء ويُقدّرون مَن يمنحهم السكر والحلوى.

ليسوا شرًا يا «آدمز». قالها لنفسه وهو يقترب من عصابة الصبية ذوي النظرات المُريبة. توقَّع أن يُحيوه كغيرهم بالعبارة الشهيرة «هاي جوني» لكنهم واصلوا رميه بنظرات لاهبة. لاحظ أنَّ كبيرهم يُدقق النظر إليه مُتفرسًا وشعر لأول وهلة بقسوة مُرعبة تطُل من عينيه. تذكر أن موعد الوصلة الأولى لراقصات كاليوبي اقترب وأنَّ عليه مد الخطى ليلحق الحفل الليلي من بداياته، خاصة في ظل تلك الأجواء المُزعجة بعد احتلال ألمانيا للدنمارك ثُم هولندا والنرويج في الشهر ذاته. استعرت أنفاس الكراهية واشتم رائحة الغدر قبل خطوات قليلة من محازاة الصبية الخمسة له، وشعر أنَّ عليه اتخاذ إجراءات الحذر المفترضة، فأبطأ الخطو قليلًا قبل أن يقبض بيمينه على مُسدسه ليُخرجه من جرابه، ووقف مُتجمدًا في مكانه عندما شاهد هُراوة غليظة تطيش برأسه في حركة مفاجئة أعقبها صوت صفير مُتكرر. آه. زفرة ألم فرَّت مقهورة من بين ضلوعه. سارع الصبية الخمسة بالركض نحوه مُمطرينه بضربات غاضبة من أحزمة وهراوات وقبضات على رقبته ورأسه وظهره، وفقد اتزانه، وسقط على الأرض طلبًا للراحة، علَّ هؤلاء المجانين يتوقفون عن ضربه ويجرون بعيدًا، لكنهم واصلوا ركلاتهم في بطنه وصدره بقسوة وغلّ. سمع صوت أطولهم يقول «لم يمُت بعد» ثُم لاحظ سائلًا ساخنًا يتدفق من بطنه قبل أن يستيقن أن رصاصة قاتلة عرفت طريقها إلى أحشائه.

t.me/qurssan

ـا تفعلون؟ سأل «آدمز» دون أن يسمع ردًّا، لكنَّه شاهد ابتسامة
ـمر تتراقص فوق وجه الشاب الطويل ذي النظرات اللاهبة،
ـر بيدين غليظتين تعبثان في ملابسه، ورأى مُسدسه يتقلَّب بين
ـف المهاجمين، ثُم صفارته، وحقيبته الصغيرة، وزجاجة نبيذه،
ـمحفظته، وقبعته، وحزامه، ثُم صورة فتاته في لندن والتي ودعته
ـل تسعة أشهر مُسافرًا لأداء الخدمة الوطنية في إحدى مستعمرات
ـلاده. ابتسم مُتألمًا ليشهد نظرة الثأر تطلُّ من عيني سالبه. ما
ـمك أيها الفتى الجريء؟ سأله دون صوت، فسمع الكلمات باردة،
ـمائل كأغنيته التي كان يشدو بها.

ـحسين.

ـم اقتربت أنفاس لاهبة من وجهه لتضيف:

ـهؤلاء أصدقائي محمد، وسيد، وجول، ومدحت. وداعًا جوني.

ـست «جوني». أنا «آدمز». ودَّ الجندي المحتضر أن يقولها لكن
ـوله لم يُغادر شفتيه، وغاب دون أن يُبصر الفتية يغادرون في خفة،
ـهلين بنصر شعب مُضطهد، ومُحتل على أكبر قوة عسكرية في
أوروبا، تلك التي زعموا أنَّ الشمس لا تغرب عنها أبدًا.

ـاروا معًا فرحين بالمسدس، والمحفظة بما فيها من نقود، وبنجاح
أول عملية قتل لمحتل كريه. في وكرهم بحديقة المنزل اجتمعوا
ـمورين بما أنجزوا، قبل أن يقصوا على «نجيب» و«سعيد» ما
ـدوه. وزَّع محمد سجائر جاناكليس عليهم احتفالًا بنجاح المُهمة،
ـما أقسم «سعيد» على شقيقه أن يصحبه في العملية القادمة
ـليتعلم أصول العمل الفدائي.

ـف «حسين» لأول مرة رشفة من زجاجة نبيذ القتيل مُستغربًا
ـعة المشروب في الفم قبل أن يقول لصحبته:

أرأيتم وجه الخنزير وهو يترجرج بالخوف راجيًا الرحمة؟ أرأيتم
ـه؟ ليسوا أشداء كما يظن الناس، هُم أجبن وأضعف مما حسبت.

t.me/qurssan

ـ من قتله؟

سأل «نجيب» فابتسم «حسين» مُشيرًا بأصابعه نحو «سيد» قائلًا:

ـ البطل. البطل هو مَن أطلق الرصاص.

زارت الغبطة وجه «سيد» الذي تمتم:

ـ لولا ضرباتك ما سقط. رصاصة واحدة أصابته ورصاصتان طاشتا.

رفع «محمد» رأسه مُفتخرًا وردد في رضا:

ـ الاتحاد قوة. كُلنا أبلينا حسنًا في العملية. وهانحن ربحنا مسدسً ثانيًا.

ـ سنحتفل.

قالها «جول»، وكرر الجميع خلفه:

ـ نعم سنحتفل.

وقف «حسين» وهزَّ رأسه طربًا وهو يقول:

ـ كم هو مُمتع مشهد خروج الروح قهرًا من أناس ظنوا أنَّهـ سادة وغيرهم عبيد!

ونظر إلى «نجيب» وقال:

ـ قُلت لي مرارًا أنَّ طعم القُبلات ألذ ما في الدنيا. كذبت. لق ذقتها من قبل، وما جرى اليوم أعذب وأجمل من قبلات من شف كاثرين هيبورن أو حتى ليلى فوزي التي تقول إنَّها أجمل امرأة مصر.

سكت «نجيب» عندما شاهد تأمينًا واستعذابًا من الحضور الذي بدوا كأنَّهم في جلسة ذكر صوفي، ومدّ يده إلى زجاجة النبيذ ليرشـ منها طعمًا لم يعرفه من قبل.

***

t.me/qurssan

..عر بالثقة البالغة وهي تلتقط أصابعه بين أصابعها الرقيقة، وهما يسيران إلى جوار النهر الخالد. قرون من الزمان مرَّت على الماء المتدفق من الجنوب الإفريقي دون توقف، صاحيًا ومتمردًا وعابرًا لإحباطات الخوف والسلبية والسكون. قال لنفسه إنَّ هؤلاء الناس ..سوا خاضعين خانعين كما يحلو لكتبة السُلطة أن يصوروهم، فكم ..فضون ويرفضون الواقع كُلما سنحت لهم الفرصة. كانت كفه لا .. عر بدفء اليد الناعمة البيضاء الملتصقة به لأنَّ عقله مُنشغل ..سورات واستعدادات للعمل الفدائي المُقبل الذي صار يحلُم به .. ليلة.

وافق «حسين» على إلحاح ابن خالته «نجيب» للاستجابة لدعوات .. سان» بلقاء صديقتها «ميمي» التي طالما أبدت إعجابًا بحسين .. الطول الفارع والعينين الحادتين. قالت «إحسان» لـ«نجيب» إنها ..تغرب كيف تُقبل «ميمي» مُدللة المعادي على مُصاحبة هذا ..ـاب الخشن ذي النظرات المُريبة. لو كان عليها ما منحته نظرة .. واحدة، لكن تبدو أذواق النساء متباينة حتى في فرسان أحلامهن.

اقتربت بجسدها النحيل من «حسين» المُرتبك قليلًا وهي تخطو .. ..له وصعوبة خوفًا من التعثر بسبب طول كعب حذائها. كانت ..دي جونلة خضراء ومعطفًا بنفس اللون له أربعة جيوب ..تطيلة، وعلى ظهرها انساب شعر بُني طويل، بينما كان «حسين» ..دي بذلته الكُحلية الناعمة بعد أن خلع عن رأسه ملل الطربوش ..سلًا تلميع شعره الناعم بالفازلين. سألته في تدلل عما يشغل .. ، فقال بهدوء كهل في الأربعين:

حال البلد.

أوه. لا يعجبك؟

أجاب سائلًا:

- هل تعرفين أنَّ خيرات مصر تُنهب كل يوم من قبل هؤلاء

t.me/qurssan

الخنازيـر؟

وأشـار بإصبعـه ناحيـة ثلاثـة عسـاكر أجانـب يسـيرون عـلى الرصيـف المقابـل.

قالت «ميمي»:

ــ ومـا هـو الجديـد؟ لقـد ولدنـا ووجدنـا هـؤلاء العسـاكر يسـيرون في شـوارعنا ويعملـون إلى جـوار آبائنـا، ويقدِّمـون لنـا الشـيكولاتة. ألا تذكـر؟

غلى الدم في وجه حسين وانتفخت عروقه وقال غاضبًا:

ــ شـيكولاتة. لا. أتذكـر مَـن قتلـوا ومَـن جلـدوا. أعـرف أنَّهـم ينهبوننـا ويحتلـون بلادنـا ويسـتغلوننا عقـودًا بفضـل الخونـة والـكلاب.

ــ حبيبي.

نطقت «ميمي» مُهوِّنة، فهدأ قليلًا وقال لها:

ــ هـل تتصوريـن أنَّـه مـن الكرامـة والرجولـة أن نـترك هـؤلاء يسـتكملون مـا فعلـوه بأجدادنـا وآبائنـا؟

نظرت إليه بعينين فاض منهما التيه وقالت:

ــ بالطبع لا. لكن ماذا نفعل؟

بـرق السـؤال في دماغـه وشـعر بثقـة المُخلِّـص وهـي تلتصـق أكـثر بجسـده، وقـال لهـا:

ــ نُقاتلهم.

ــ قتل؟

نطقت الحروف في خوف، فواصل في برود:

ــ نعـم.. قتـل. لقـد فعلتهـا يـا ميمـي. وسـأقاتلهم حـتى يتمنـوا الهـرب مـن بلادنـا.

حـكى لهـا في عُجالـة مـا فعلـه وأصحابـه بسـيارات المعسـكر الإنجليـزي ثُـم كيـف قادهـم لقتـل العسـكري الإنجليـزي قبـل أيـام. شـعرت أنَّهـ

أمام فتى مختلف، وقفت قلقة، وحدقت فيه مُنبهرة ورمت بعينيها لمسة خاطفة نحو الطريق الخالي من المارة، ثُم اقتربت بشفتيها الدافئة منه لتطبع قبلة ساخنة على شفتيه. ارتعدت فرائصه وشعر بتدفق الدم في عروقه ورقص قلبه فرحًا عندما قالت في حنوٍ:

أنا معك. اقبلني خادمة للوطن.

ساراً معًا، مُحتفلين بانضمام عضو جديد لجماعة المقاومة الوطنية، قبل أن تقوده في شبق ظاهرٍ نحو بيت جدتها الخالي من السكان في حي المنيل لينهل للمرة الأولى من خمر الأنوثة. عناقها دل على خبرة فتاة مُجرّبة وعابثة وقادرة رغم ذلك على الحفاظ على بكارتها. أذابته في خلاياها، وعلّمته قضم التفاحة، ونسى زملاءً ينتظرونه فنام حتى العشاء.

عندما عاد قرأ الضجر على أفراد الشلّة المجتمعين بغرفة عم ...مان الجنايني»، والذين تلقوا نبأ خروج «حسين» و«ميمي» معًا ... «نجيب» بتشكك ودهشة. وجد أفراد المجموعة يتحلقون حول ...مد إبراهيم كامل» الذي أحضر خريطة لحي المعادي ليشرح ...ا خطة العملية القادمة.

...ف تخطاني؟ سأل نفسه، قبل أن يجيبه «محمد» بنبرة لوم:

...ن أعيد الخطة من البداية. مَن لا يلتزم بالمواعيد التي نتفق ...ا لا يستحق نيل شرف العمل الفدائي. اسمع يا حسين ستكون ... ام العملية.

...س وغضب وزعق:

أ... كيف تجرؤ؟ ماذا جرى؟ هل تنقلب عليَّ؟

أ... ...ظر إلى باقي الحضور وكرر:

هل تقبلون ذلك؟ لقد كنت في مهمة من أجل التنظيم، ونجحت ...م عنصر جديد لجماعتنا.

استغربوا، فواصل:

ــ لأول مرة سيكون معنا عنصر نسائي. ميمي انضمت إلينا. فاتنة المعادي يا شباب ستعمل معنا في الخفاء. سنستغلها في خطط الخداع، لن تشارك في مناقشاتنا، لكنها ستلتزم بما يُعهد إليها من مهام.

بُهت الحاضرون، بينما رسمت الدهشة تعرجاتها على وجه «نجيب» الذي بدا غير مُصدق.

سأل «نجيب»:

ــ هل وافقت على المر...؟

ولم يُكمل فقد أجاب «حسين» بصرامة:

ــ نعم.

وتذكر ثديين رائعين تقلبت شفتاه بينهما، ودار بخلده ذلك الشعور الطاغي بالانتصار وهو يقتحمها اقتحامًا، وأخرج عُلبة سجائره ليناول «محمد» واحدة قائلا:

ــ أكمل خطتك.

تردد «محمد» قبل أن يقول:

ــ آسف يا «حسين» ظننت أنَّك نسيتنا فكان لابد أن أذكرك.

ثم بنبرة حماسيةٍ:

ــ نحن في مهمة وطنية، والأمور لا تقبل العبث، وعندما رأيناك شابكًا ذراعك بذراع «ميمي» غضبنا، خاصة أن «نجيب» كان يُراهن أنَّك لن تأتي موعد لقائنا.

ــ لا عليك. لكن لابد أن تثقوا في.

قالها «حسين» بنبرة المنتصر المسيطر قبل أن يقود الجمع لخطة إحراق المعسكر الإنجليزي راسمًا تحركات أفراد المجموعة على

t.me/qurssan

المربطة الممدودة أمامهم. واصل تحديد أدوار كل فرد: «محمد»، «جول»، «سيد»، «مدحت»، و«سعيد»، قبل أن يطرق «عم عثمان» الباب، ليفتحه قليلًا مُبصرًا الكهل الأسمر مُضطربًا وهو يقول له:

يا حسين بك. البك الكبير يريدك. أعتقد أنَّ أحدًا وشى بكم. لقد زاره قبل قليل ضابط بملابس رسمية.

سأحضر.

أغلق الباب وواصل شرح خطته مُقررًا أنَّ موعد تنفيذ العملية سيكون في الثالثة صباحًا. نظر لـ«سيد» وقال:

... من البنزين ستصبها حول سيارات النقل الموجودة خارج المعسكر، وسيمد «محمد» ثلاثة حبال مشبعة بالكيروسين من الشارع المجاور، وسيشعل «جول» النار عند الساعة صفر، بينما أطلق أنا النار على الجنود الفارين من النار وسيقود بنا «مدحت» ... ومعه «سعيد».

... في اعتزاز وكأنَّ مناورة «محمد» لم تُغيّر ثقة أحدهم في قيادة ... «حسين» لهم، وربما فإنَّ «محمد» نفسه لم يُبد أي تشكك في ... القيادة.

... «حسين» سريعًا ليمتص غضب والده الذي اعتاد على ... ووصفه الدائم له بالفشل. رمقه بنظرة مُجابهة شاعرًا ... ذلك الرجل المُهاب ذا الملامح القاسية يشعر بالضعف تجاهه. ... أمام مكتبه دون أن ينبس حتى لاحظ والده وجوده فأشار له ... س. سأله «توفيق بك» عن أحواله، فأجاب ببروده المعتاد، ثُم ... عن دراسته، فردّ بأنَّه بدأ استيعاب كثير من الدروس التي كان ... يصعب استيعابها، وسأله عن أصدقائه وحالهم فأجاب إجابات ... قبل أن يُفاجئه والده سائلًا:

وكيف قتلتم العسكري آدمز ميكنزي؟

صعقتـه الكلمـات. لقـد عرفـوا، وحـددوا اسـم القتيـل، وتشـككو وبعثـوا بأحـد رجالهـم لجـس نبـض البـك الكبـير. لـو كان لديهـم دليـ لمـا انتظـروا عليـه. نظـر إلى دخـان سـيجار والـده المُتصاعـد في خـ مُستقيم نحـو سـقف غرفـة المكتـب، وسرحـت عينـاه بصفـوف الكُتـ الناعسـة فـوق رفـوف مكتبـة كبـيرة عـلى يمـين المكتـب، وتذكـر وجـ العسكري الإنجليزي وهـو ينتفـض هلعًـا وهُـم يُرسلون بـه إلى الجحيم ثُـم لاحـت في عينيـه ذكرى شـفتي «ميمي» وهـي تـئن تحتـه قبل سـاعا رسـم «حسـين» ابتسـامة باهتـة عـلى وجهـه قبـل أن يقـول لوالـده بـرود:

ــ لـم يسـتغرق الأمـر سـوى دقيقتـين، ضربتـه بعصـا الحديقـة فـو رأسـه بينمـا صفعـه أصحـابي عـلى قفـاه وركلـوه في بطنـه، ولكمـوه وجهـه، وخنقـوه انتقامًـا للشـهيد عبدالحكـم الجراحـي.

ــ مَن؟ عبدالحكم الجراحي. لقد مات منذ سنوات.

علَّـق «توفيـق بـك» وعينـاه تسـتعران غضبًـا وغيظًـا مـن بـرود ابنـ تذكَّـر شـيئًا مـا ثُـم قـال لـ«حسـين»:

ــ لقد قتلتموه بالرصاص. أين المُسدس؟

ابتسم صامتا للحظات قبل أن يُجيب:

ــ في أعمـاق النيـل. أعـرف أنهـم بعثـوا لـك مُحققًـا ليسـتدرجك. لكـن تقلـق. لا يوجـد دليـل واحـد.

وقـام مسـتئذنًا بينمـا كان قلـب والـده يغـلي مـن القلـق. لا عليـه، لكـ منـه.

***

[illegible] ود يحيى مراد». عضو جديد، ضمه «حسين» إلى الجماعة [illegible] أن قرأ في عينيه حزنًا طاغيًا.

[illegible] مملة وسخيفة ولا فائدة لها لأننا نموت في النهاية. هكذا قال [illegible] ود» لـ«حسين» ابن خاله عندما ذهب الأخير يُعزيه في وفاة [illegible]

[illegible] لا شيء. لا شيء يا أخي، مُجرد لحم يتدحرج فوق الأرض، [illegible] أو يصغر، لكنَّه يزول، يفنى. يتلاشى.

[illegible] «محمود» يتذكر مأساة والده الذي شارك قبل ثلاثة عقود في [illegible] من «بطرس باشا غالي» وقُبض عليه فيمن قبض عليهم، [illegible] لكنَّه حصل على البراءة لعدم كفاية الأدلة مثلما جرى مع [illegible] بك». فيما بعد لم يتمكن من الحصول على وظيفة مناسبة [illegible] به الحياة ليعمل مُثمنًا للتحف والأثاث، وهي مهنة كان [illegible] التذبذب الدخل، وعدم الاستقرار.

[illegible] «محمود» يتخيل أنَّ رجال القلم السياسي سيطرقون بابهم في [illegible] الليالي ليأخذوا معهم والده الصامت كثيرًا، والخائف دومًا، [illegible] هم من قليل العيش الذي يوفره لهم. لا معاش له ولا علاج [illegible] وق لأبنائه من بعده، هذا ما عرفه «محمود» بعد وفاة والده [illegible] في شتاء العام الثاني من العقد الخامس بالقرن العشرين.

[illegible] الفيلسوف «نيتشة» شبّ الفتى الهادئ ذو الملامح الخشنة [illegible] الكتب ليتعلق بأفكار التمرد ومخالفة الواقع وكسر المعقول. [illegible] بأنَّ الفنون والآداب اخترعها الإنسان للهروب من الحقيقة. [illegible] ردد كثيرا مقولته «العار العار العار، ذلك هو تاريخ الإنسان». [illegible] أنَّ التاريخ المصري سلسلة من الأكاذيب التي لفقها مؤرخو [illegible] ليصموا تافهين وخونة بصفات العزة والكبرياء. وعلى مسامع [illegible] وصحبته ردد «محمود» عبارة «نيتشة» الموجعة «يبيعنا [illegible] المؤرخين وكاتبي السير الذاتية أكاذيب مشروعة وقصصا

ملفقـة، ويحلـو لنـا أن نصدقهـا». وأمامهـم هتـف للمـرة الأولى لاعنًـا حـزب الأغلبيـة وزعيمـه الرجـل المُبتسـم زائـغ النظـرات الـذي يعتبرونـه وليًـا مـن الأوليـاء.

في جلسـةٍ خاصـةٍ في حديقـة مـنزل توفيـق بـك قـال لأفـراد الشـلّة الـتي انضـم إليهـا حديثًـا:

ــ إنَّ أخطـر مـا يجابـه مـصر الآن هـو ذلـك الاعتقـاد بـأنَّ هنـاك وطنيين مـن الباشـاوات والزعمـاء. إنَّ هـؤلاء الذيـن وضعـوا أكفهـم في كف السـفير «مايلـز لامبسـون» جلبـوا لنـا العـار إلى الأبـد، ولا حـق لهـم في قيـادة الأمة.

ــ مَن تقصد؟

سأله «محمد إبراهيم» فأجاب:

ــ «النحـاس باشـا». هـذا المُهـرج الـذي يسـحر النـاس ويخدرهـم فيصدقونـه ويقدسـون كل قـول وفعـل لـه.

لمعت عينا «حسين» ونطق:

ــ معـك حـق. النحـاس نبيهـم. قديسـهم المزعـوم. إنَّـه يقودنـا كنعا‍ نحـو التسـليم. لقـد سـمعت والـدي يحـكي عنـه عندمـا كان رئيسـا كيـ‍ وضـع جميـع أمـوال مـصر وإمكاناتهـا وقدراتهـا تحـت تـصرف الإنجلـ‍ فـور توقيعـه اتفاقيـة الصداقـة.

ــ لكـنَّ النـاس تريـده وتـرى فيـه خـلاص مـصر مـن اسـتبداد القـ‍ ومراوغـة الإنجلـيز.

قالها «نجيب»، لكن نظرات استنكار وأدتها مبكرًا فلزم الصمت.

أشـعل «محمـد» سـيجارة جاناكليـس وفوجـئ بـ«حسـين» يختطفهـا منـ‍ ليُدخنهـا فقـال لـه:

ــ خُذ واحدة ولا تختطف سيجارتي.

ابتسم «حسين» وهو يقول:

t.me/qurssan

لقد صارت نادرة في زمن الحرب. أبحث عنها فلا أجدها.

ا ـل «جـول» وفي يـده لفّـة سرعـان مـا فتحهـا لتبـدو زجاجـة ويسـكي ..وسـطة، ثُـم أخـرج علبـة سـجاير ماركـة ماسـبيرو رويـال وقـال لهـم:

معي مزاج الليلة. سنشرب نخب انتصارات الألمان.

لاحـت مظاهـر الدهشـة عـلى وجـوه المجتمعـين السـبعة ثُـم سـأل ..سـين»:

هل هناك أخبار؟

ابتسم «جول» وقال:

نعـم. الجيـش البريطـاني تقهقـر في الصحـراء الغربيـة بعـد هزائـم . لاحقـة، وطلبـة الجامعـة يهتفـون ضـد بريطانيـا والأحـوال معقـدة ..ا.

ألم عرفت؟ إنَّ الرقابة تمنع نشر أخبار الحرب في الصحف.

. ال «حسين» وهو يفتح الزجاجة، فقال «جول»:

• الي قـال لي إنَّ الأوضـاع سـتنقلب قريبًـا. أنتـم تعرفـون أنَّـه كان ... ل في السـفارة الألمانيـة. إنَّـه يقـول إنَّ هنـاك تعاونـا بـين فدائيـين ... بن وضبـاط ألمـان وطليـان، والملـك نفسـه يحـاول الاتصـال بهـم. ... ال. أنبـاء حـول قيـام «حسـين باشـا رشـدي» رئيـس الـوزراء بتقديـم ا ..االته.

... الخوف أن يأتوا بالنحاس باشا.

... «محمود مراد»، فشاركه «محمد» قائلًا:

... ..فعلونها. لـو توافـق الملـك والوفد فسـتخسر مـصر فرصـة حقيقية ... . من ديكتاتوريـة الزعامـة وعبودية الاسـتعمار.

... ال لكم إنَّ الألمان أو الطليان سيمنحوننا الحرية؟

... «نجيب» ساخرًا.

برقت عينا «حسين» وهو يقول:

ـــ لـم تحتلنـا ألمانيـا الآن لنفكـر في التحـرر منهـا أو محاربتهـا. نحـن نواجـه الإنجلـيز، وعلينـا أن نتوحـد مـع كل أعدائهـم. والألمـان عـدو لهـم، لـذا يجـب أن نسـاندهم، لكـن كل الخـوف مـن الخونـة. الوفـد والنحـاس أخطـر عـلى الأمـة مـن كلاب القـصر وخـدم الملـك.

نفـث «محمـد» دخـان سـيجارته باحثـا عـن بعـض الـدفء في الشـتاء القـارس قبـل أن يقـول:

ـــ في يـوم مـا سـيكون علينـا التخلـص مـن كُل هـذه الوجـوه المتحفيـة المسـترخية. الذيـن يؤمنـون بالدسـتور والقانـون ويتخيلـون أنَّ الاسـتقلال سـيتحقق بالـكلام والتفـاوض. سـيكون مـن المهم محـو هـؤلاء وإزاحتهم تمامـا مـن الوجـود حـتى لـو كان النـاس يُحبونهـم ويقدّرونهـم.

علّق «محمود» مُستشهدا بإحدى عبارات نيتشة:

ـ من بين كُل ما كُتب، لا أحب سوى ما كتبه الإنسان بدمه.

صـبّ «حسـين» زجاجـة الويسـكي ليمـلأ كئوسًـا صغـيرة أخرجهـا مـن دولاب الغرفـة، ثُـم وضـع كأسًـا أمـام كل فـرد مـن الأفـراد السـتة ثُـم قـال ضاحـكا:

ـ عاش نيتشة.

ردَّد الجميع وهم يرفعون كئوسهم إلى السماء:

ـ عاش نيتشة. عاش. عاش.

***

رسـم القلـق أخاديـده في الوجـه الشـاب ذي القسـمات الملكيـة، وبـ مُضطربًـا وهـو يُمسـك بالورقـة الممـدودة مـن كـف مُحدثـه مُغمضًـا عينً وفاتحًـا أخـرى مخافـة أن يقـرأ مـا يصدمـه. كان الفـتى الـذي لـم يمـر عـ

t.me/qurssan

... لمه حُكم أرض النيل خمس سنوات مسكونًا بهواجس إقصاء ابن ... «عباس حلمي» من سُدة الحُكم سنة 1914 ليتيه في بلاد الله ...وعًا من دخول البلاد، ومُنكرا هُنا وهُناك. اعتبر المليك أنَّ ملامح ...ير «مايلز لامبسون» الصارمة ونظراته الاستعلائية التي طالعته ... دخوله القصر تصفع سلطانه وكرامته كأحد أبناء العائلة العلوية، ...ال لنفسه إنَّه حتى ذلك العجوز الماكر ذي العينين العميقتين ...ي يُشرف على جميع سياساته بدا مُنزعجًا من حديث «لامسبون» ...اف. إنَّ «أحمد باشا حسنين» داهية القصر والكشاف المُضيء ...يز السياسة المصرية المُعتمة يبدو لأول مرة مُهتزًا خائفًا من ...ب وخيمة. وجهه النحيل وجبهته التي هوت المغامرات سنين ...الًا، وعيناه المُدققتان والمُتشككتان في كُل شيء، الآن لا شيء. ما ...كن كشبح؟ قالها الملك «فاروق» لنفسه مُتذكرًا دس حسنين ... لدى الشيخ «محمود المراغي» شيخ الأزهر لتحريض الطلبة ... النظاهر تبشيرًا بانتصار قوات المحور، وخلص إلى أنَّه أخطأ ...ته على خطة «حسنين» للتخلص من «حسين باشا سري».

...أ. عيناه المُذكرة المُقدمة من «مايلز لامبسون» ذلك الثعلب ... القلب الذي يقترن بفاتنة تصغره بعقود، لتصدمه الكلمات ...صدق نبرة الوعيد والازدراء. مرّ مرورًا سريعا على المُذكرة التي ... قراءتها أحمد باشا حسنين، والذي حاول قبل دقائق منع ...ل الجنرال ستون قائد القوات البريطانية مع السفير لكنَّه فشل ...صف نظراته المتوعدة.

... كان واضحًا منذ زمن طويل أنَّ جلالتك قد تأثرت بمجموعة ...ارين المحيطين بك، الذين لم يكونوا مخلصين فقط بالنسبة ... مع بريطانيا، بل أكثر من هذا أنهم يعملون ضد هذا ... ومن ثم فإنَّهم يساعدون العدو. ولاشك أنَّ تعاون وتشجيع ... لهم يناقض المادة الخامسة من معاهدة التحالف، التي

بمقتضاها تتعهد كل الأحزاب المتعاهدة بألا يتخذوا موقفًا معا
بالنسبة للبلاد الأجنبية، ويكون متعارضًا مع الحلف.

بالإضافة إلى ذلك فإنَّ جلالتك أحدثت أزمة خطيرة بطريقة طائ
وغير ضرورية كرد فعل للقرار الذي اتخذته الحكومة المصر
السابقة استجابة للطلب الذي تقدمت به إنجلترا والذي نصَّت ع
المادة الخامسة من المعاهدة.

وفى النهاية فإنَّ كل المحاولات التي جرت لتشكيل حكومة ائتلاف
قد باءت بالفشل، إذ رفضتم أن تعهدوا بأمر تشكيل الحكومة
زعيم حزب الأغلبية في البلاد على الرغم من أنَّه يتمتع بمكانة خاص
تجعله قادرًا على ضمان استمرار تطبيق المعاهدة بروح الصدا
كما يجب.

ومثل هذا التهور والطيش، وعدم تقدير المسئولية يعرض أ
وأمان مصر للخطر وكذلك القوات الحليفة الموجودة بالعاصم
ويؤكد الجميع أنَّ جلالتك لم تعد جديرًا باستمرارك على العرش

بلع صاحب الوجه المُضيء المُربع ريقه ومعه كلمات التوبي
والسخرية، مُتخيلًا مجموعة من الأفندية المصريين يتوسطهم خص
اللدود «مصطفى باشا النحاس» يدوسون فوق رأسه. لاحظ بط
عين تنكمش أسفل حاجب رفيع نظرات وجل مُنبعثة من عي
رئيس ديوانه ومسددة نحو القائد البريطاني وأخرى نحو الناف
ليشهد دبابات بريطانيا وجنودها حول القصر. أي كرامة لملك مجب
وخائف في وطن يعشق أهله السخرية ويدمنون التنكيت حتى ع
أنفسهم! قالها لنفسه ذابحًا بقايا كبرياء اشتمها داخله.

تذكر الساعات الفائتة بعد أن جمع باشاوات مصر وكبراء
لمناقشة إنذار السفير البريطاني شديد اللهجة الذي قال «ما ل
أسمع قبل الساعة السادسة مساء اليوم بأنَّه تم تكليف «النحاس
بتشكيل الحكومة، فإن جلالة الملك عليه أن يتحمل العواقب».

...اس» باشا بوجهه الصوفي وعينيه الزائغتين وحيدا وسط تأويلات ... الذين رموه بنظرات اتهام ردها بقسوة وقوة، مؤكدًا أنه لا ... شيئًا عن الإنذار البريطاني وأنَّه يرفضه تمامًا، وحاول «أحمد ... ماهر» ترجيح فكرة تشكيل وزارة قومية يترأسها «النحاس»، لكن ... السياسي المخضرم واعيًا تمامًا أنَّه يقف على أرض صلبة، فأصرَّ ... ن يؤلف إلا وزارة وفدية، وتاهت المناقشات ولم يتم التوصل ... سوى اتفاق باشاوات مصر على رفض الإنذار البريطاني ... عليه.

... الملك «فاروق» بعصبية زائدة:

... ماذا بعد؟

... السير «مايلز لامبسون» بابتسامة باهتة ورقة أخرى كان واضحًا ... الحُكم النهائي على الملك الذي حاول التصرف كما علمه مُعلمه ... «أحمد باشا حسنين» باعتباره حاكما واسع السلطات. قرأ ... بعينين ذبيحتين وثيقة التنازل عن العرش. كانت كل كلمة ... سكين بارد يقطع لحمه ويزدرد دماءه قطرة قطرة.

... فاروق ملك مصر، تقديرًا منا دومًا لمصالح دولتنا، فإني ... هذا أتخلى وأتنازل بالنيابة عن أنفسنا وورثتي عن عرش ... مصر، وعن جميع حقوق السيادة والامتيازات والصلاحيات ... المملكة المذكورة وبشأن رعاياها، وأننا نعفي رعايانا من ولائهم ... صدر في عابدين في الرابع من فبراير 1942.

... القلم ولامس بسنه المُدبب وثيقة التنازل، وسأل الله بقدر ... وعطفه على عجائز الطهاة والخدم بقصر عابدين أن يُخلصه ... سون وستون فتنشق بهما الأرض كقارون، وتذكر النحاس ... للأمنية، ثُم تذكر أمين باشا عثمان ذلك الجسر الممتد ... الوفد والإنجليز فأضافه هو الآخر. ثُم استجمع كل تصوراته عن ... وقرر التوقيع، لكنَّه سمع كلمات هامسة من رئيس الديوان

خمّـن أنّهـا كلمـتي «فرصـة أخـرى»، فتمالـك نفسـه وقتـل نبـض ف
المُتسـارع، وقـال للسـفير بإنجليزيـة مُتقنـة:

ــ هل يمكن أن تمنحني يا سيادة السفير فرصة أخرى؟

هـزّ السـفير رأسـه باندهـاش، وتبـادل مـع القائـد العسـكري «سـ
نظـرات ذات مغـزى ثُـم سـأل في بـرود:

ــ ماذا تنتوي أن تفعل؟

منع الملك دمعتين ساخنتين كادتا تدفقان من محجريه وقال:

ــ سأكلف النحاس باشا فورًا بتشكيل الوزارة.

ــ دون تدخل.

قالها السفير، فردد الملك:

ــ دون تدخل.

خـرج السـفير «مايلـز» مبتسـما وإلى جـواره الجـنرال «سـتون»، وخلف
جـرى «أحمـد باشـا حسـنين» وهـو يُكـرر رجـاءه بـضرورة سـحب الدبا
المحـاصرة بسرعـة حفاظًـا عـلى مـاء وجـه الملـك.

دقائـق قليلـة مسـح خلالهـا الملـك الشـاب دموعـه، ثُم أشـعل سيـ
قبـل أن يسـتقبل زعمـاء مـصر مـرة أخـرى. وقفـوا متوجسـين بينمـا
النحـاس بينهـم ثابتًـا رابـط الجـأش كأسـد جسـور. حملـق الملـك في و
الزعمـاء بحضـور رئيـس الديـوان ثُـم قـال لهـم:

ــ اعتبروا ما دار بيننا كأن لم يكن.

سرت همهمـات بـين الحاضريـن، لكـن الملـك ركّـز نظـره عـلى «النحـ
باشـا» بعينـين فاضتـا غيظًـا وقـال:

ــ وأنا أكلفك يا باشا بتشكيل الوزارة.

ثـار الغضـب في وجـه أحمـد باشـا ماهـر، بينمـا مصمـص «إسـمـ
باشـا صـدقي» شـفتيه، وخبـط «عبدالفتـاح باشـا يحـيى» كفًـا بأخـرى،

الامتعاض على وجه «محمد باشا هيكل»، ونظر «أحمد باشا زيور» ... إلى «النحاس»، الذي وقف فجأة، وقال بثبات موجهًا حديثه ...:

وأنا أرفض يا جلالة الملك.

ارفض يا باشا؟

... الملك غاضبًا فرد النحاس:

أعتذر عن قبول التكليف.

... غربان الخوف بين عيني الملك مرة أخرى وتذكَّر وثيقة ... ورأى ابن عمه الخديو عباس متنقلًا بين العواصم بلا وطن، ...:

لا يا دولة الباشا إنني أصر على تكليفك بالوزارة.

... أحمد ماهر وقال بصوت جهوري:

... أظن أنَّ النحاس باشا وهو كما يقول عن نفسه زعيم البلاد ... معاهدة الشرف والاستقلال يرفض تشكيل الوزارة، أما وقد ... إني أعلن في حضرة مليك البلاد أنَّ النحاس باشا يتولى الحكم ... مستندًا إلى أسنَّة رماح الإنجليز.

... «النحاس باشا» لوجود الملك وردَّ بصوت أعلى:

... أنا الذي يستند إلى أسنَّة رماح الإنجليز.

... يود أن يقول لـ«أحمد ماهر» أنَّه سبق أن أنقذ رقبته من حبل ... الذي فتله الإنجليز بعد ثورة 1919 للمسئولين عن الجهاز ... عندما ترافع دفاعًا عنه وعن صديقه محمود فهمي النقراشي، ... الاجتماع منعه. فعاد يقول:

... الذين وصلتم بحال البلد إلى ما جرى.

... نظراته نحو «أحمد ماهر» و«إسماعيل صدقي» و«أحمد ...»، لكن الملك قاطعه غاضبًا:

t.me/qurssan

ـ أنا آمرك يا باشا بتشكيل الوزارة.

ـ آسف جلالتك لا يمكن.

ـ هذا أمر ملكي.

وخرج الملك يجر خوفه وقلة حيلته وانفض الباشاوات واحدًا ت
الآخر، ومضى «أحمد باشا ماهر» ليُشهّر بـ«النحاس باشا» ويتهـ
بالتواطؤ والاتفاق مع الإنجليز للعودة لحكم مصر، وحكى ما د
وما تصور، وما ظنَّ لكثيرين من أصدقائه. وكان «توفيق بك أحمـ
واحدًا من هؤلاء، لذا لم يكن غريبًا أن يسمعه عارفوه يقول
«النحاس باشا» عاد إلى الحكم بدبابات الإنجليز.

ـ يا لها من خيانة.

هتف «حسين توفيق» مُعلقًا على ما سمعه وحجبته الصحف :
الناس تنفيذًا لقرارات الرقابة.

***

دون طرق أو استئذان فتحت السيدة «سميرة» باب حجرة ابنـ
لينتفض «حسين» من رقدته صائحًا:

ـ ماما. أما كان أفضل أن تطرقي الباب؟

منحته نظرة عتاب صامتة، بينما غرّد عصفور صغير داخل قفـ
الصدري، مُرددًا أنَّ الصغير كبُر وصار رجلًا. ابتسمت مُعتذرة وقا

ـ آسفة يا حسين. لكنني أريدك لأمر مُهم.

ألقت نظرة على «سعيد» الجالس إلى مكتبه يقرأ كتابًا لم تعـ
إن كان دراسيًا أم رواية مُترجمة استعارها من ابن خالته «نجيب»
تعود، وأشارت لـ«حسين» بعينها اليُمنى ليتبعها إلى غرفتها.

t.me/qurssan

ـ ار «حسين» مُتثاقـلًا خلـف الجسـد العريـض المائـل للسـمنة متوقعًا
... الل غـير مُبـاشرة تنقلهـا لـه أمـه عـن والـده. إنّـه يشـعر بالصلابـة
... وة عندمـا يقـف أمـام والـده مُتناقشًـا أو مُتهمًـا، بينمـا ينكمـش
... ـا أمـام السـيدة التركيـة ذات الحنـان المُتكـبر، تلـك الـتي مازالـت
... الها إليـه تُـردد في سـعادة كلمـة «صغـيري».

... لى سريرهـا المُسـتطيل ذي الأعمـدة النحاسـية جلـس أمامهـا مُسـتعدًا
... ل منفتـح وإجابـات مُعـدة سـلفًا عـلى أسـئلة تتكـرر. فكّـر أنّ والـده
... حـكى لهـا مـا نُقـل لـه حـول حـوادث التعـرض للعسـاكر الإنجليـز
... راق سـياراتهم، كمـا توقـع أن تعيـد السـيدة الحنـون فتـح ملـف
... اسـة والمُذاكـرة. ومـن المؤكـد أنّهـا لـن تُحدثـه عـن الفتيـات بعـد
... انهـا أنّـه يلتقـي بعضهـن ويراقصهـن كمـا أخبرهـا «نجيـب». نظـر
... ـارة رويـال احتضنتهـا أصابعهـا قبـل أن تنغـرس بـين شـفتيها مُبديًـا
... ا مبالغًـا فيـه تناسـب مـع ابتسـامة مُصطنعـة ارتسـمت عـلى وجهـه.

... السيدة ذات الوجه المُشرب بالحُمرة في تحفز:

... لي يا حسين. ماذا تنتوي أن تكون؟

... الأسـطوانة. سـتعرُج عـلى الـدروس والمذاكـرة والمسـتقبل. قالهـا
... ـل أن يُجيـب:

... ولي لي أنت. ماذا تُريدينني أن أكون؟

... عيناها فواصل:

... ـار مثـل أونكل سـليم يطـير فـوق السـحاب وينظـر للجميـع مـن
... أم قائـد عسـكري مثـل جـدي إسـماعيل باشـا يخـدم في الجيـش
... اني ويُقـدم حياتـه فـداء لأمـير المؤمنـين؟ أم وكيـل وزارة مثـل بابـا
... البكويـة ويقـترب مـن إنعـام مولانـا عليـه بلقـب الباشـاوية؟

... وبان الوجل على وجهها، ثُم قالت:

... ى سُخرية من أهلك.

ردَّ مقاطعًا:

ـ لست أسخر لكني أعرف أنك تريدينني أن أكررهم.

ـــ ليـس شرطًـا. مـن الممكـن أن تكـون طبيبًـا ناجحًـا يُـداوي ال
وينظـر إليـه الجميـع باحـترام وتقديـر، ومـن الممكـن أن تُصبـح مُهـ
يُنـشئ الأبنيـة ويصمـم العمـارات، أو مُحاسـبًا كبـيرًا تُديـر أمـلاك وا
وتُنمـي تجـارة تمنعـه الوظيفـة مـن تنميتهـا، أو ربمـا تُريـد أن تسـ
تعليمـك في أوروبـا لتصبـح مؤهـلًا لأي منصـب مرمـوق.

غزا الغضب وجهه رويدًا فقال:

ـ أين يا أمي. في لندن؟

ـ وما لها لندن؟

ـ بلد العدو، عاصمة القتلة، وأرض المُستعمرين.

ـ إذن ادرس في فرنسا.

ابتسم ساخرًا قبل أن يقول:

ـــ البلـد الـذي يـدك إخواننـا في سـوريا بالطـيران دون رادع. فرنسـا
تذبـح الأطفـال في الجزائـر وتغتصـب النسـاء، فرنسـا الـتي...

رفعت كفها احتجاجًا وقالت:

ـــ كفـى يـا حسـين. لا عليـك. ادرس في بلـدك. لكـن لابـد أن تجـ
وتُخطـط لمسـتقبلك. اتـرك الشـغب ولهـو الأطفـال الـذ...

لم تُكمل الكلام، حيث وقف حسين غاضبًا وقاطعها بصوتٍ عالٍ:

ـ لعب أطفال؟ لهو؟ أنت لا تعرفين ما أفعل.

قالت بحسم:

ـ أعرف.

ثُم أضافت:

ـــ لكـن إشـعال النـار في معسـكرات العسـاكر الإنجليـز لا يخـدم أ

أفعـال متهـوِّرة بـلا مقابـل. إنَّ والـدك يحـترق حـسرةً كلمـا عـرف
ـلك أنـت وأصحابـك. يحـترق صامتًـا حـتى لا ينكشـف أمـرك وتخـسر
فبلك.

ـع «حسـين» يـده في جيبـه وسـار في الغرفـة ذهابًـا وإيابًـا وقـال في

ـمت حتى لا ينكشف أمري ويخسر منصبه. أليس كذلك؟

ـ بعصبية مماثلة:

ـ يـا حسـين. ضربـك للعسـاكر في الشـوارع المُظلمـة لا يمكـن أن يمـر
ـر. الإنجلـيز لا يتركـون ثـأرًا وأبـوك يُحبـك ويخـشى أن يقسـو عليـك
ـك عـن أصحابـك أو يوقـف مصروفـك. أنـت لا تعـرف كـم يُحبـك.

ـت ساردة مـا عرفـه أبـوه مـن صديـق يعمـل بالأمـن العـام بـأنَّ
ـ جماعـة مـن الأولاد صغـار السـن يخربـون سـيارات الإنجلـيز
ونهـا ويعتـدون عـلى بعـض العسـاكر في المعـادي، وأنَّ مُخـبرًا
ـم ورآهـم يدخلـون إلى حديقـة منزلـه، فقـدم إليـه ليُحـذره.

ـت منه لتضع يدها على خدِّه وقالت:

ـوك يـا حسـين. لا تحـرق قلـبي وقلـب أبيـك عليـك. أنـت رجُـلي
ـي بعـد والـدك. أرجـوك اشـغل نفسـك بالموسـيقى. ادخـل السـينما
ـ الفتيـات، العـب كـرة، واهتـم بدروسـك.

ـ خلاياه قليلًا وشعر بضعفه أمام أمه فقال:

ـر يا أمي. لن أرتكب أي أفعال خطر مرة أخرى.

ـني.

ـه في تسليم وقال:

ـ.

ـيناها وقالت له وهي تمسح على شعره:

ـ إذن. أعطني المُسدس.

ـ أي مُسدس؟

ابتسمت قليلًا وكررت:

ـ أعطنى المُسدس يا حسين. نحن نعلم أن معك مسدسًا.

هزَّ رأسه في برود، وقال لها:

ـ حاضر.

في المساء جلس في محل جروبي بوسط القاهرة يحتسي البيرة البا مع فتاته المُنبهرة دائمًا ببطولاته عندما سألته بعد أن قصَّ علب حديثه مع أمه:

ـ هل أعطيتها المُسدس؟

ابتسم وقال:

ـ طبعا يا ميمي.

وأضاف مُفصلًا:

ـ أعطيتها مُسدسًا خربًا احتال أحد البوابين وباعه لـ«محمد» الش الماضي.

ضحكت «ميمي» وقرصته في خده الذي اتخذ ملمسًا خشنًا قبل تقول بنبرة رضا:

ـ أنت داهية.

ودلق كوبًا مُمتلئًا بالبيرة في جوفه، وقال:

ـ في صحتك.

***

كذلـك أنَّ ثكنـات الجيـش البريطـاني بالإسـكندرية تعرَّضـت لسلسـلة حرائق في ظل اشتعال معارك الصحراء في العلمين ويعتقد أن وراءها تنظيمًا سريًا متطرفًا مواليًا لحزب مصر الفتاة.

وثمة حوادث قتل مُريبة في أسيوط لبعض الموظفين الإنجليز في مديرية الأشغال، إذ لقي مهندس ري بريطاني مصرعه بعد أن أطلق عليه مجهول ثلاث رصاصات في جنح الليل، وبعدها بأسبوع واحد وُجدت جُثة طافية لمهندس أيرلندي في نهر النيل مات طعنًا بسكين حاد، وأغلب الظن أنَّ مجموعة من الشباب المتطرف تحاول استغلال الغضب الشعبي للفت الأنظار.

ووقفت عينا اليوزباشي «إبراهيم إمام» عند حكاية اعتداءات المعادي، حيث تم العثورعلى جثة أومباشي بريطاني مصابة بطلق ناري وعدة ضربات في الرأس والظهر، وبعدها عُثر على جُثة الأومباشي «يونج» مصابة بضربات وكسور في الرأس وطعنات بآلة حادة في العُنق والبطن. ثُم تعرّض الأومباشي «ميللر» لإطلاق نار من سيارة مُسرعة في جنح الظلام لتُصيبه طلقتان في الكتف اليمنى دون أن يتعرف على مُطلق النيران. ويُعتقد أنَّ تلك الحوادث مُتصلة بحوادث أخرى شهدها الحي الهادئ خلال السنوات الثلاث الماضية تمثلت في إحراق سيارات نقل تابعة لمعسكر القوات البريطانية، فضلا عن إشعال النار في نادي الضباط بالمعادي. وتفيد المصادر أنَّ وراء تلك الاعتداءات مجموعة من الشباب المرتبطين بحركة مصر الفتاة.

وتابع اليوزباشي في التقرير نفسه توصية بنقل الضابطين «أحمد فؤاد صادق» و«محمد كامل الرحماني» لميولهما مع دول المحور إلى الصعيد، فضلًا عن التوصية بإبعاد الضابط «محمد أنور السادات» تماما عن الجيش لتكرار اتصاله بالجواسيس الألمان.

قطع حبل أفكاره دخول العسكري المناوب سائلًا في لُطفٍ شديد

مكتبه بوزارة الداخلية جلس اليوزباشي «محمد إبراهيم إمام»
م تقريرًا وصله من وكيل الوزارة عن حوادث مُقلقة وغامضة
ن متفرقة من أنحاء البلاد، التي صارت غاصة بالمشاغبين
مين بعد حصار الدبابات لقصر عابدين.

وجهه رائقًا وعيناه ناعستين من كثرة القراءة وبدا وجهه
ل مصوصًا من طول السهر، وهو يُقلب بأصابع طويلة أوراق
ر المُقلق الذي يستثير فئران الرغبة في البحث والاستقصاء
ه قتلة سريين أو مُجرمين غير مُسجلين. ورغم سمته الهادئ
امته المُضيئة كان يعتبر أنَّ مسألة حفظ الأمن وحماية الأرواح
مُقدسة غير مُلتفتٍ لمبررات غضب وطني نتيجة قهر سلطوي
ه الاحتلال البريطاني في مصر. ناقش الرجل نفسه من قبل مرارًا
إلى أنَّه خادم للأمن أيا كان المستفيد به، ومُطارد للعُنف
مصدره أو اتجاهه. وعلى مدى سنوات تنقل فيها اليوزباشي
بين قطاعات عديدة بالبوليس وجد نفسه مُنفصلًا عن جميع
السياسية القائمة، ومُتصلًا في الوقت ذاته بجميع الزعماء
اب التوجهات بصلات تعاون بما يُحقق الشأن العام.

المقرير المعروض عليه قد استعرض أنشطة لجماعات وأفراد
للأمن العام بما يُشكل خطرًا لا يجب اتساعه. وذكر التقرير
وادث موت مُريب شهدتها منطقة الزيتون لعساكر إنجليز كانوا
ون في الشوارع ثُم يسقطون صرعى دون سبب، وبعد تشريح
هم اتضح قيام أشخاص ما بشكهم بدبابيس صغيرة مغموسة
م وهُم يمرون إلى جوارهم، ثُم يعتذرون في أدب حتى تسري
في شرايين الضحايا. ورجح التقرير أن يكون مدبرو الحوادث
بالجيش من أولئك الذين يحملون مشاعر كراهية وعداء
تجاه الإنجليز، وبعضهم تم فصله من الخدمة في الشهور
بسبب شبهات حول اتصالهم بقوات المحور. وذكر التقرير

t.me/qurssan

كان يأمر بشيء ما. نظر بهدوء إلى سجائره والتقط واحدة أشعلها بولاعته الروبنسون التي أهداها له حكمدار العاصمة لتميزه في العمل وقال له:

- نعم. قهوة سادة.

- تمام يا أفندم.

العسكري، ليعود اليوزباشي لأفكاره حول تطورات الأوضاع الأمنية في مصر عقب حادث الرابع من فبراير في العام الفائت.

كانت مصر قد تابعت باهتمام بالغ على مدى عام كامل كيف تقهقر القوات البريطانية أمام قوات المحور في العلمين إلى انتصارات مُتتالية بفضل حنكة ودهاء القائد البريطاني المارشال مونتجمري، وزاغت قلوب عديدة حسرة على انفلات حُلم التحرر من الاحتلال البريطاني حال هزيمة بريطانيا في الحرب، وفاض الغيظ ازًا في نفوس الوطنيين المحسوبين على بعض الأحزاب مثل حزب مصر الفتاة، بينما كان حزب الأغلبية واضحًا ومعتدلًا في موقفه بأن مصلحة مصر تكمن في وفائها بالتزامات معاهدة الصداقة الموقعة عام 1936. أما جماعة الإخوان المسلمين فلم يكن لها موقف واضح.

قال اليوزباشي «إبراهيم إمام» لنفسه إنَّه على يقين من وجود تنظيم سري خاص مُسلح لجماعة الإخوان المسلمين، لكنَّه على ثقة من أنَّ هذا التنظيم لا يستهدف بأي حال جيش الاحتلال البريطاني، وأنه سيظهر يومًا ما لحسم مواقف واستغلال فرص.

وكان الرجل ذو الجبهة العريضة والأنف الطويل والقسمات الهادئة أن الأيام القادمة ستحمل كثيرًا من الأحداث الخطيرة، التي ستكتبها أقلام وصحف ويرويها جيل بعد آخر.

***

t.me/qurssan

اتسـع التنظيـم بـأسرع ممـا توقعـوا. كان مـن الواضـح أنَّ الشـاب الصامـت الخجـول «محمـود يحـي مـراد» يُفكـر بذهـن مُتقـد في الغـد. ويبـدو أنَّ غرامـه بالرياضيـات وبالهندسـة دفعـه لوضـع حسـابات دقيقـة حـول مسـتقبل التنظيـم، مـا خطواتـه القادمـة؟ ومـا آليـات اتخـاذ القـرارات فيـه؟ وكيـف يؤمـن ذاتـه مـن ضربـات أمنيـة منتظـرة في حـال سـقوط أحـد أفـراد التنظيـم؟ وقبـل كُل ذلـك مـا توجهـات التنظيـم فكريًـا؟ لقـد كان في حـيرة مـن التبايـن الواسـع في أفكار ورؤى أفـراد الشلة حـول الديـن والعلـم والحيـاة. لقـد كان البعـض صوفيًـا زاهـدًا، بينمـا كان آخـرون مسرفـين وعبثيـين، وبـين أفـراد المجموعـة كان هنـاك المنفتـح، اللاهـي، وهنـاك أيضًـا الخجـول، المُنغلـق. كان هُنـاك مـن هـو مُثقـف ومُطلـع، وكان هُنـاك مَـن هـو لا يقـرأ كلمـة.

بعـد شـهور قليلـة مـن انخـراط «محمـود يحـي مـراد» مـع «حسـين» وأصحابـه في عمليـات الاعتـداء عـلى الإنجليز ومنشـآتهم وسـياراتهم شعر بـضرورة السـيطرة عـلى دفـة التوجيـه لتلـك المجموعـة، خاصـة أنهـا قد تنفلـت في بعـض الأحيـان بسـبب تهـور رأسـها. ولاشـك أن ابـن عائلـة مُراد كان يعلـم يقينًـا أنَّ كفـة القيـادة تميـل دائمًـا لـ«حسـين توفيـق» بسـبب جرأتـه وقدرتـه عـلى التأثـير في «جـول» و«سـعيد» و«مدحـت»، فضلًا عـن رضـا ابـن خالتـه «محمـد إبراهيـم» عنـه وموافقتـه لـه في معظم الآراء. ولـم يكُـن هنـاك بديـل سـوى ضـم أعضـاء جـدد بهـدف انتزاع القيـادة مـن الشـاب الطائـش الـذي كاد عـلى ظـن «محمـود» أن يوقـع بهـم أكـثر مـن مـرة بسـبب خططـه السـاذجة واندفاعاتـه غـير المدروسة.

في جلسـة احتضنتهـا غرفـة «محمـود مـراد» بمنزلـه وضمـت أفـراد التنظيـم، طـرح طالـب كليـة الهندسـة بـذكاء ضرورة توسـيع الجماعـة، وضـم أعضـاء جُـدد لديهـم قـدرة عـلى التخطيـط باحترافيـة والتحلي بالـذكاء والـبرود لتنميـة أعمـال التنظيـم وصـولًا لفكـرة الثـورة الشـاملة كهـدف نهـائي. كان حسـين يومهـا يسـعل بشـدة نتيجـة إصابتـه بـدور برد

t.me/qurssan

شديد، وهو ما جعله على الرغم من تناوله قرص بولمونكس الفعّال ضد نزلات البرد أقل احتمالًا لمناقشات طويلة مع أفراد الجماعة، لكن طرح ابن عمته أثار لديه شكوكا بمحاولة الإقصاء أو السيطرة، لذا فقد سأل بدهاء عن الحقل الآمن لاستقطاب أعضاء جدد، ففاجأ بإجابة محمود القاطعة:

- كلية الهندسة.

استشعر «حسين» بجدية وثبة للسيطرة من جانب ابن عمته المنضم حديثًا، فسأل في برود:

- ولِمَ كلية الهندسة تحديدًا؟

فأجاب المسئول قائلًا:

- أولًا لأنّها تضم أناسًا أذكياء بالضرورة، فلا يدخل الكلية شخص غبي أو تافه. ثانيًا لأنني هُناك وأعرف مجموعة من الشباب الوطني الباحث عن قاعدة انطلاق لخدمة الوطن، وثالثًا لأنّه من اليسير ضم مجموعة متآلفة معًا بدلًا من ضم عناصر متفرقة من الشرق والغرب.

لم يُبد المجتمعون اعتراضًا، لذا فقد فاجأهم «محمود» في اجتماع تال، شهده منزله أيضا بضم ولد أسمر من أصل صعيدي يُدعى «إبراهيم القناوي»، وآخر سمين وضاحك على الدوام يُدعى «عباس الشندي»، وثالث جسور إلى أبعد مدى ولا يكترث لخطر اسمه «محمد خليفة»، ورابع قوي البُنيان، ثابت الخطوات هو «محمد الشافعي». وردّ «سيد» بعد ذلك ربما بتحريض من «حسين» بضم أحد أصدقائه من ذوي الأصول البدوية المُتحمسين للعمل الفدائي يتميز بضخامة الجثة والشجاعة الفائقة يُدعى «محجوب»، وآخر مدرسًا يرتدي طربوشًا ويتحدث بلغة عربية فُصحى ويتقدم في السن فضلًا عن باقي أفراد المجموعة هو «عبدالهادي أفندي مسعود». كذلك فقد ضم «حسين» نفسه مُدرسًا آخر هو «عمر أبو يعلى».

وكان لابد مع اتساع التنظيم من اختيار قيادة واضحة ومعلنة، لذا فقد اجتمع الشباب في منزل «عبدالهادي مسعود» بمنطقة الظاهر، واتفقوا على وضع اسم للجماعة هو «أبناء النيل»، ثُم اتفقوا بعد ذلك على اعتبار قتل الإنجليز والإضرار بممتلكاتهم الهدف الأسمى للجماعة، ثُم بدأوا مُناقشاتهم لاختيار رئيس لهم، فقال «حسين» مُقترحًا:

ــ أرى أن يكون الاقتراع سريا ويكتب كل واحد اسم مَن يريده رئيسًا في ورقة ثُم نفتح الورق كُله.

رانت حالة من الصمت على الحضور، قطعها «محمد إبراهيم كامل» عندما أخرج علبة سجائر وزَّع منها على المشاركين كافة في الاجتماع عدا «عمر أبو يعلى» و«سعيد توفيق»، اللذين لا يدخنان، وقال في حزم:

ــ ولِمَ نُجري اقتراعًا سريًا؟ هل نخاف أو نُحرج من بعضنا بعضا؟ علينا أن نُحدد الآن مَن يُريد الترشح ثُم نُصوِّت عليه.

قال «عبدالهادي أفندي» بعد أن خلع طربوشه ومسح بمنديل أبيض ناصية رأسه:

ــ أنا أعتقد بخبرتي السابقة في حزب مصر الفتاة أن نختار أولًا مجلسا استشاريا للمجموعة يتكون من خمسة أفراد تكون مهمتهم اتخاذ القرارات المصيرية على أن يختار الخمسة فيما بينهم واحدًا يترأس المجموعة، وأن نتفق على عدم تنفيذ أي قرار لا يحظى بموافقة أعضاء المجلس الاستشاري كافة.

ــ فكرة سديدة وعملية.

علّق «محمود مراد»، ناظرًا إلى «عبدالهادي أفندي» بنظرة ذات مغزى قبل أن يقرر:

ــ أنا شخصيًا أترشح للمجلس الاستشاري.

t.me/qurssan

وأنا أيضًا.

قالها «محمد إبراهيم» فكرر «حسين» في حزم:

وأنا أيضًا.

ابتسم «نجيب» الذي لاحظ عصبية بادية على وجه «حسين»، وقال:

إذًا حُلَّت القضية. لدينا محمود ومحمد إبراهيم وحسين، وأرى أن نضم إليهم عبدالهادي أفندي باعتباره أكبر الأعضاء سنًا، وأن ننضم لهم محجوب باعتباره ممثلًا للبدو، وقادرًا على جلب السلاح والمولة للجماعة.

موافق.

قالها «حسين»، فردد باقي الحضور كلمات الموافقة، قبل أن يستطرد «نجيب»:

وأرى وقد انتهينا من تشكيل المجلس الاستشاري أن يتم اختيار «عبدالهادي أفندي» بحكم عمله السياسي السابق وبحكم أنَّه الأكبر رئيسًا للجماعة.

أشكرك على ثقتك.

قالها «عبدالهادي أفندي»، فبارك بعض الحاضرين ليشعر «حسين» بأن صلت أسقطه ابن خالته «نجيب» فوق رأسه من علٍ. طعنة لم يتوقعها، وتطور لم ينتظره، ونظرات شماتة لم يقرأها من قبل في عيني ابن خالته.

حاول «حسين» أن يبدو مُتماسكًا وموافقًا لرأي الأغلبية الذي أقصاه واختار عضوًا جديدًا في محل القيادة، أمّن على الاختيار بهزّ رأسه مبتسمًا ثُم قال للقائد الجديد:

قُل لي يا عبدالهادي أفندي باعتبارك عضوًا عاملًا في حزب مصر الفتاة. هل يختلف أحمد حسين كثيرًا عن مصطفى النحاس ومحمود

فهمي النقراشي؟

هزَّ المسئول رأسه يمينًا ويسارًا وقال في صراحة:

ــ إطلاقًا. أحمد حسين مُخادع وتاجر كلمات فقط. والنحاس لا يريد من الحياة سوى لقب الزعيم الجليل.

ــ وحسن البنا؟

سأله «عمر أبو يعلى» فأجاب مبْتسمًا:

ــ راسبوتين الشرق. نصاب يحفظ كتاب الله.

ثُم قال كمن يوجه تلاميذه:

ــ أفضل شيء لنا أن نكون مُستقلين عن كُل هؤلاء المُخادعين. لو نظرتم إلى الوفد ستجدونه لا يبحث عن شيء سوى السُلطة حتى لو كانت عبر جسور دولة الاحتلال، ولو تابعتم الإخوان ستجدونهم يعبدون قادتهم ويقدِّسونهم أكثر مما يقدِّسون نبي الإسلام، أما الشيوعيون فهُم مجموعة من السُذج الذين يتخيلون أنهم قادرون على إشعال الثورة من خلال المنشورات التافهة التي يوزعونها. أعتقد أنه لا خلاص دون سلاح، ولا تقدم دون تضحية، واستعداد حقيقي لخوض غمار الخطر.

خطيب بارع. علَّق «حسين» دون صوت، بينما ابتسم محمود يحيى مُعتقدًا أنَّ التنظيم الذي كان يطمح لقيادته اختطف من شخص خارج دائرة التوقعات. ابتسم مُتحفزًا، وسأل الرئيس في اهتمام ظاهر:

ــ والآن. ما المُهمة القادمة؟

برقت عينا «عبدالهادي أفندي» اهتمامًا وقال بنبرة تحدٍ:

ــ سنسرق نُزل خُبراء وزارة الأشغال الإنجليز في مصر الجديدة.

ــ نسرق؟

سأل «حسين»، فأجاب «عبدالهادي»:

t.me/qurssan

- نعم وبسرعة. نحن نحتاج أسلحة وما تدّخرونه من مصروفكم لا [illegible] بشراء الأسلحة.

ثم أضاف بحزم:

- مفهوم؟

- مفهوم.

قالها أكثر من واحد، قبل أن يستمعوا لخطة السطو على استراحة مهندسي المياه الإنجليز، التي زارها «عبدالهادي» عدة مرات بصحبة أحد أقربائه العاملين في الري.

***

لم يكُن «عبدالهادي أفندي» يدري وهو يدلُف إلى بار بيلي بباب البحرية أنَّ هُناك خُطى تتبعه. سار مُنتشيًا بالنجاح، وهو يُردد في سره بيت شعر طالما أحبه يقول «دعيني للغنى أسعى فإني.. رأيتُ الناس شرُّهم الفقيرُ». جلس مكومًا جسدًا مُترهلًا بانت عليه السمنة على كرسي خشبي بسيط يختبئ تحت ترابيزة رخامية مُستطيلة، عندما ألقى عليه النادل تحية المساء واضعًا طبقين أحدهما من الترمس المملح والآخر من الخيار المخلل أمامه. سأله النادل بعد أن منحه ابتسامة ترحيب مُعتادة إن كان يطلب مثل كل مرة كونياك، فجاءه الرد بالنفي مُرددًا:

- ويسكي يا خواجة. ويسكي.

أنت، هكذا قال «عبدالهادي أفندي» في سره، وهو يتأمل نوافذ البار الزجاجية ذات الطراز الأوروبي مُشرعة من الداخل. ستتبدد أيام الشقاء وسترحل ليالي الحرمان، وستهنأ بما لم تنل رغم قدراتك ومهاراتك. أنت تستحق الصدارة والثراء. لقد خلقت للقيادة.

t.me/qurssan

نظـر «عبدالهـادي أفنـدي» حولـه للجالسـين يمينًـا ويسـارًا يُدخنـون في قـرف ويشربـون بـيرة وكونيـاك ونبيـذًا رديئًـا يتناسـب مـع ثيابهـم الرثـة ووجوههـم العابسـة، مُقررًا أنَّ مثـل هـذا المكان لـم يعُـد يليق بـه بعـد أن صـار زعيمًـا لأكـبر مُنظمـة سريـة. قبلهـا وعـلى مـدى عشر سـنوات تنقـل بـين حـزب وآخـر والتقـى صنوفًـا متناقضـة مـن ذوي الأفـكار السياسـية، واختلـط بُخطبـاء مفوهـين، وعـرف دُهـاة وساسـة وشـعراء وصعاليـك وظرفـاء ومحتالـين.

وضـع النـادل زجاجـة ويسـكي بـلا لـون أمامـه وكوبًـا مُلمعًـا، صبّ فيـه حـتى آخره، قبـل أن يقـول:

ــ أفضل ويسكي لعبدالهادي أفندي. سكوتش أيرلندي مُعتق.

ــ شكرًا.

هـزَّ رأسه، وهـو يفكـر كيـف كانـت سـنوات الحـرب صعبـة، وكيـف بقي بـلا وظيفـة لأكـثر مـن عامـين قبـل أن يلتحـق بمدرسـة المُعلمـين بالعبـاط راضيًـا براتـب هزيـل لا يتجـاوز ثلاثـة جنيهـات والنصـف في الشـهر، مرّ بخاطـره كيـف عـرف مـن جـاره محجـوب بأمـر الجمعيـة الـتي تسـتهدف مقاومـة الاحتـلال والـتي ينفـق عليهـا شـباب ثـري يفيـض بالحمـاس والجـرأة. دلـق كوبًـا مـن الويسـكي في جوفـه فشـعر بلسـعة الـشراب السـاحر الـذي حرمـه الفقـر منـه سنين، وتذكـر كيـف نفـذّ الأولاد عمليـة سرقـة نُـزل خـبراء الـري الإنجلـيز بمـصر الجديـدة دون ذرة خطـر. لقـد تحركـوا كمـا رسـم لهـم تمامًـا في الصبـاح الباكـر، حيـث قامـوا بإلهـاء الحـارس مـن خـلال دعوتـه للمشـاركة في تغيـير عجـل سـيارة يقودهـا محمـد إبراهيـم، وإلى جـواره مدحـت، عندمـا تسـلل حسـين ومحجـوب ومحمـود مـراد وسـعيد وسـيد وكريـم إلى الداخـل ليسرقـوا دواليـب المهندسـين في خمـس عـشرة دقيقـة فقـط ويعـودوا دون اشـتباك. كانـت حصيلـة العمليـة خمسـين جنيهًـا وثلاثـين قرشًـا وثـلاث زجاجـات نبيـذ، وسـاعة يـد ماركـة جيـني وثلاثـة أقـلام حـبر ماركـة كروكسـلي، وقلـم حـبر

t.me/qurssan

...ور، ودبوسًا ذهبيًا على هيئة علم بريطانيا وشفرات حلاقة ...امت وعلب أقراص اسبرو، واسبيول.

...تطاع «عبدالهادي» إقناع أفراد التنظيم بضرورة منحه الغنائم ... يتمكن من بيعها وشراء قنابل يدوية عن طريق أحد أقارب ...حوب» الذين يعملون في الإسماعيلية في خدمة الجيش البريطاني. ... لهم إن القنابل ضرورية لتنفيذ سلسلة من العمليات الفدائية ...لال المرحلة القادمة. وقرر الرجل ذو الوجه العريض، والطربوش ...مخ أن يستمتع ولو لأيام قليلة بحياة عبث ولهو كان يحلُم بها ...وات طويلة دون تحقيق تحت وطأة الفقر والعوز.

... المُدرس العابث في زيارة ضرورية لعوامة ثُريا بإمبابة، حيث ...سات البدينات اللائي عاش عمره عاشقًا لهنَّ. كان يرى اهتزاز ...مر مُنشطًا للقلب وطاردًا لرائحة الحُزن منه. حدَّث نفسه بأنَّ ...ه تحية ذات العُنق الطويل والجسد الخمري الممشوق والعينين ...حتين تستحق زجاجة كولونيا الشبراويشي هدية لها حتى يهنأ ...سان دافئة وفراش مُشبع. شرب كوبًا آخر وردد مُترنمًا بأغنية ...لاها عيشة الفلاح» للمطربة المُبهرة أسمهان، بينما كانت هناك ...ن البار عينان صاحيتان تُتابعانه بترقب وغضب. قال صاحب ...ين لنفسه «الويل للخونة يا عبدالهادي. ستموت». رددها بينما ...وت «عبدالهادي» الغليظ يُردد في نشوة: «محلاها عيشة الفلاح.. ...لمن قلبه مرتاح.. يتمرّغ على أرض براح.. والخيمة الزرقا ساتراه..».

...مر صاحب العينين الصاحيتين بالاستياء وتذكر نصيحة «محمد ...اهيم « و«حسين « و«مدحت» له بأن يسيطر على أعصابه، وتذكر ... مقولة معلمه الأول نيتشة القائلة «لا تمشِ في طريق من طرق ...اة إلا ومعك سوط عزيمتك وإرادتك لتلهب به كل عقبة تعترض ...ك».

...ائن. خائن. خائن» رددها وهو يكبت مشاعر مُنفلتة تكاد تذبحه

t.me/qurssan

مُتذكـرًا كيـف بـدأ سـوس الشـك ينخـر قلوبهـم بعـد العمليـة مباشرة. أخبرهـم «حسـين» بـأنَّ «عبدالهـادي» سرقنـا، وتأكـدوا مـن محجـوب عندمـا قـال لهـم بـأنَّ الرئيـس المختـار لـم يدفـع نظير ثـلاث قنابـل سـوى عـشرة جنيهـات، وأنَّـه ماطلـه في دفـع ثمـن مسدسـين جديديـن جلبهمـا قبـل يومـين. وقتهـا قـال حسـين مُسـتعيدًا دور القائـد المُحنّـك:

ـ سنُراقبه حتى يسقُط. لكن بهدوء.

قـام المُكلـف بالرقابـة بكسـل مُدعيًـا السُـكر وهـو عـلى يقـين أنَّ «عبدالهـادي أفنـدي مسـعود» لـن يشـعر أن كُل تحركاتـه وأفعالـه تحـت رقابـة ثعلـب صغـير اسـمه «محمـود يحـيى مـراد». ثعلـب يعلـم أنَّ العُمر يسـتحق المُغامـرة، وأنّ الكـون بـلا أخـلاق. دفـع الحسـاب مُعطيًـا ظهره للأفنـدي، ومـضى مُلتقطًـا بأذنـه بقايـا الأغنيـة الـتي غنتهـا أسـمهان: «دي القعـدة ويّـا الخـلان.. والقلـب مزقطـط فرحـان.. تاقلهـا بجنـة رضـوان. يـا هنـاه اللـى الخـل معـاه».

وخرج «محمود» راميًا الرئيس المختار للتنظيم بنظرة وعيد.

***

في حجـرة «عـم عثمـان الجنايـني» جلسـوا يتشـاورون فيمـا سـيفعلون مـع «عبدالهـادي أفنـدي مسـعود». شرح «حسـين» للحضـور خطـورة الوضـع، وحـكى «محمـود مـراد» كيـف تابـع الرجـل، وهـو يقـوم بتبذيـر غنائـم سرقـة الإنجلـيز عـلى الخمـر والعاهـرات، وشـهد «محجـوب» بمماطلـة الأفنـدي في دفـع ثمـن المُسدسـين الجديديـن حـتى اضطـر للاسـتدانة مـن شـقيقه الأكـبر لسـداد القيمـة للبائـع.

كانـت العصبيـة باديـة في حديـث المُجتمعـين العـشرة والذيـن اتفقـوا جميعًـا في التدخـين بشراهـة، عندمـا قـام «مدحـت» مُشـهرًا مُسدسـا

و يقـول في جـرأة:

سأقتله.

وأردف:

لا جزاء للخائن سوى القتل.

هل؟

البعض، فأكد مرة أخرى:

ليس أمامنا حل سوى قتله.

صمـت غريـب تخللتـه نظـرات مُتبادلـة بـين وجـوه الحاضريـن، ت خيـوط الدُخـان في فضـاء الحجـرة راسـمة قلقًـا ظاهـرًا، لـم أن قطعـه «حسـين توفيـق» قائـلًا بثبـات:

لا يا مدحت. لن نقتله.

غربوا رأيـه. كان ينبغـي أن يكـون أكـثر حسـمًا خاصـة أنَّـه انـتزع القيـادة. فكـر «محمـود مـراد». ليـس هـذا مُعلـم العُنـف والمُبـشر راهيـة. ردَّد «سـعيد» في سرّه، وهـو يتذكـر كيـف علمـه قتـل الخـوف ـا خنـق قطتـه. مـاذا يريـد بنـا؟ سـأل «محمـد إبراهيـم» نفسـه ـم «حسـين» وكأنَّـه يسـمعهم:

نحـنُ لـن نقتلـه لأنَّـه لا يسـتحق القتـل، بـل هـو يسـتحق بالطبـع لأنه سرق أمـوال الوطـن لحسـابه وألقـى بهـا تحـت أفخـاذ الراقصـات رات. نحـن لـن نقتلـه لأن قتلـه قـد يُسـبب لنـا مشـكلات عديـدة، لا لأنَّ كثيريـن رأوا بعضًـا منـا عندمـا كُنـا نـزوره في بيتـه، وثانيًـا لأنَّـه جـار وب في السـكن وقـد تحـوم الشـكوك حـول محجـوب. وثالثًـا لأنَّـه عبيـط يسـهل التخلـص منـه دون دمـاء.

وجه «محجوب «بطمأنينة الرضا، قبل أن يسأل مدحت:

وكيـف سـنتخلص منـه دون قتـل؟ لقـد صرنـا بالنسـبة لـه كـنزًا ثمينًـا، حلـوب تـدر لبنًـا. نحـن ننفـذ أوامـره ثـم يسـطو عـلى مـا نأخـذ، لـذا

t.me/qurssan

لا أعتقد أنَّه سيفرّط فينا بسهولة.

فكر «محمد إبراهيم» قليلًا وقال:

ــ معك حق. لابد أنَّه يرانا وقد تجاوز الثلاثين من عمره مُجرد مجموعة من الأولاد الأشقياء المُدللين الباحثين عن أي مغامرة. وربما يتصور أنه قادر على استغلالنا والتربح من حماسنا للوطن.

ردَّ «سيد» قائلًا:

ــ أنا على استعداد لأخلصكم منه، خاصة أنني كنت وراء ضمه للتنظيم.

نفثَ «حسين» دُخان سيجارته بعصبية، ما لبث أن سيطر عليها مرة أخرى، وردَّ وهو ينطق كلماته كلمة كلمة:

ــ قُلت لكم إننا لن نقتله.

وعلا صوته قليلًا، وهو يردد بنبرة لوم:

ــ حاولوا أن تسمعوا ما أقوله لمرة واحدة. سنتخلص منه ببساطة شديدة، وللأبد، واليوم إن أردتم.

نقرت عصافير الدهشة فوق رؤوسهم، وانتظروا بشوق خطة «حسين».

ــ كيف ذلك؟

سأل «محمود مراد» وأمامه ورقة وقلم يُشخبط به، فأجاب «حسين» الذي رانت على وجهه مرة أخرى سمات القيادة:

ــ الموضوع ببساطة أنَّنا سنعقد اليوم اجتماعًا للتنظيم في بيت عبدالهادي أفندي، وسيكون غرض الاجتماع مناقشة العملية القادمة والتي سيقترح أحدنا أن تكون سرقة مصرف الخواجة موصيري بوسط البلد. سأقدم أنا الخطة ومعها التفاصيل كاملة وسيرفضها محمد إبراهيم، ويعتبرها ساذجة، ثُم سيشتمه محمود مراد ويتهمه بالخيانة، وهُنا سيشهر مدحت مسدسه مُتوعدا محمود بالقتل إن

t.me/qurssan

، ،، كلمة خيانة مرة أخرى، وسيقوم سيد بتهديد الجميع بإبلاغ البوليس، في الوقت الذي سيطلب فيه محجوب حقه في العملية ... اهة، وسيغادر كريم ومحمد خليفة والشافعي غاضبين، وسأعلن ... وقتها حل التنظيم تمامًا، وسننفض وكأنَّ كُل شيء انتهى.

... م «محجوب»، وصفَّق «محمد إبراهيم»، بينما قبّل «مدحت» ... ابن خالته في امتنان ظاهر وهو يقول:

... راهو.

... نجيب في الحديث رغم عدم اهتمامه في السابق قائلًا:

أهنئك يا حسين. لأول مرة تُفكر بوعي وتُخطط بحنكة. أنت تصلُح ... ادة. لقد أخطأنا جميعًا.

... هم.

... الحضور تأمينهم، وانفضوا سريعًا على موعد باللقاء ليلًا، ... أن طلب «حسين» من «محجوب» أن يُخبر «عبدالهادي» أنَّهم ... رون عليه في العاشرة مساء.

... اروا سُعداء، بينما جلس «حسين» يُفكر بجدية في مستقبل ... م. سينمو وسيكبر ويتولى قيادة الأمة بعد خلع الملك الطفل. ... لمه مُتخيلًا مشانق منصوبة في ميدان الإسماعيلية يتدلى منها ... اعيل صدقي»، «النقراشي»، و«أحمد ماهر»، و«أحمد حسين»، ... سن البنا»، ثُم أضاف لهم «النحاس باشا».

... غرفتهما، ليقول «سعيد « لـ»حسين»:

... معت ماما تقول لبابا إنَّها ستشتري لك كلبًا بوليسيًّا هدية عيد ... الدك القادم. آمل ألا تقتله.

... «حسين» وظهر ذلك على وجهه، وقال لشقيقه:

لا تخف. سنستخدمه في نضالنا.

... سعيد قليلا، ثُم سأل:

ـ هل تعتقد أنّ والدنا يعرف ما نفعل؟

ـ طبعًا.

ـ كيف يسكت على ذلك؟

ـ لأنّه يعلم أننا على صواب، وأننا نكرر ما عجز هو عن تحقيقه لقد كان مثلنا عندما كان في السن نفسها.

هزّ «سعيد» رأسه قائلًا:

ـ معقول. معقول.

في اللقاء المسائي جرت الخطة كما أراد «حسين»، وسرت الرعشة واضحة في جسد «عبدالهادي أفندي» عندما شهر «مدحت» مسدسه مُهددًا «محمود مراد» بأنه سيضربه بالرصاص إن كرر وصفه لـ«محمد إبراهيم» بالخائن، وصاح في الشباب:

ـ استهدوا بالله. يا شباب. كُلنا إخوة.

هبّ «سيد» واقفًا وهو يُردد بصوتٍ عالٍ:

ـ أنا أرفض هذه الأعمال، سأبلغ البوليس عنكم.

وردّ «حسين» بنظرات كُلها شرر قائلًا:

ـ أنت تحفر قبرك بيديك.

وعلا صوته قائلًا:

ـ سنقتلك إن خرجت كلمة مما نفعل أو نقول لأحد.

حاول «عبدالهادي» السيطرة على الوضع صارخًا:

ـ كفى طيشًا. كفى هُراءً. كفى لعب عيال.

وقام «محمد إبراهيم» مُمسكًا بياقة قميصه صارخًا:

ـ لسنا عيال يا هذا.

ـ احترم رئاستي لـ..

ـ اخرس.

ومن صاحب البيت بـ«محجوب» يصرخ فيهم:

ـ..أفارقكم. أعطوني حقي في العملية الأخيرة. لن أشارككم بعد الآن.

ساروا إلى «عبدالهادي»، فوجدوه مُضطربًا وهو يُكرر:

ـ ستخسرون التنظيم، وستشمتون فيكم الإنجليز، وأعوانهم من اليهود.

ه ام كريم وخليفة والشافعي ومعهم مدحت وفتحوا الباب ـ.. مُتظاهرين بالغضب بعد أن ركلوا في طريقهم كُرسيًا ومنضدة .. ه ،ره، وتبعهم حسين صائحًا:

ا.. معوا كلكم. لن أقبل لعب الأطفال مرة أخرى. اعتبروا التنظيم أ.. ،فسه بنفسه. انتهى كُل ما بيننا كأن لم يكن.

ا...طر.

ه .. ، به «عبدالهادي» لكنّه كان حاسمًا وحادًا، وخلفه غادر «محمد إ..اه.. م»، و«محمود مراد»، و«سيد»، و«سعيد» وهُم لا يُعيرون ..ا.. .. البيت أي اهتمام وهو يصرخ فيهم طالبًا الانتظار.

في الطريق وعلى بعد خطوات من المعبد اليهودي، قال «حسين» ا.. ه دوء يليق بسياسي مُنتصر:

ا..هينا منه. شربها المُغفل.

..نعم.

ه..ها محمد إبراهيم مُثنيًا، فكرر حسين:

ـ دون أي دماء.

وم..ضوا فرحين ليحتفلوا بعيد ميلاد حسين التاسع عشر في جروبي.

***

أمطرت شوارع المعادي رصاصًا. غضبًا، غِلًّا ضد كُل قلب أجنبي ينبُض على أرض الوطن، ذلك المسلوب والمصلوب ردحًا من الزمن، مُشتتًا بين صراعات الساسة والباشاوات، ومُدنسًا تحت ظل طفولة وعبث ملك ساذج لا يملك من أمره شيئًا. كان شباب المعادي كُلّه ناقمًا على تجول العساكر الإنجليز في الشوارع سُكارى كُل ليلة فرحًا بانقشاع خطر روميل ومن معه، وبين الشباب كان «حسين» ومن معه يصلون قتيلًا بآخر، ويتبعون ضحية بضحية باحترافية شديده اكتسبوها نتيجة حُسن تدبيرهم وتماسكهم وتغيير سيناريوهاتهم باستمرار. وفي أوج النشاط ومع انخراط «كريم» و«خليفة» و«الشافعي» و«عمر» و«سيد» و«محجوب» في عمليات القنص عن بُعد شعر «حسين» برغبة شديدة في تطوير مجال العمليات ونقلها إلى مناطق متفرقة من العاصمة، خاصة بعد أن أبلغهم «عُمر أبو يعلى» مُدرس اللغة الفرنسية أنَّه علم من شقيقه ضابط البوليس أنَّ الإنجليز رصدوا ألف جنيه مكافأة لمن يُدلي عن معلومات حول القتلة السريين لعساكرها في المعادي.

كان «حسين» يرى أنَّ أبرز رد عملي على ذلك هو أن يتم تنفيذ سلسلة من عمليات القتل العشوائي بمناطق أخرى لتشتيت انتباه البوليس، لذا اختار هو بار ماتوسيان بباب اللوق لاصطياد ضحية جديدة، بينما قرر «محمود يحيى مراد» قتل أحد العساكر الإنجليز الخارجين من ملهى ليل القاهرة بشبرا، وذهب «محمد إبراهيم» إلى حُلوان للبحث عن فريسة، في حين تم تكليف «سيد» و«محجوب» و«مدحت» بإشعال النار في سيارات الجيش البريطاني في قليوب.

في باب اللوق وقف «حسين» لأكثر من ساعتين دخّن خلالها ثماني سجائر رويال مُنتظرًا ضحية مُناسبة حتى لمح ضابطًا أربعينيًا يميل إلى السمنة يخرُج من البار مُتثاقلًا، فتبعه في خفة، تاركًا مسافة عشر خطوات فاصلة. كان «حسين» قد تمرّس على إطلاق الرصاص على

ا.ما ن مُباشرة باعتباره المكان الأسهل في الإصابة خلال حركة الجسم، ، امه بعد أن أثبتت له التجارب العملية أن التصويب على الرأس ،، رًا ما يخيب. نظر «حسين» في ساعته فلمحها تقترب من الواحدة ... امًا ودارت عيناه في الشارع لتجده خاليًا إلا من شحاذ عجوز ا س تحت أحد أعمدة الإنارة. قدر أنَّ الناصية القادمة هي الأنسب لاق الرصاص نظرًا للعتمة الطاغية على المكان المحيط بالتقاطع.

ل الضابط الإنجليزي سعلتين مكتومتين وبدا مُطمئنًا تمامًا وهو ، ن في خدر يُليق بيوم عُطلته الأسبوعية، عندما انسحبت كف ...سين» سريعًا من جاكتته مُمسكة بمُسدس أوتوماتيكي متطور، ثُم ، خطواته بسرعة مُتجاوزًا الضابط ببضعة أمتار ليتوقف بعدها ... ندير مواجهًا ضحيته ليقرأ في عينيه هلعًا نادرًا قبل أن تضغط ابته على زناد المسدس مُطلقًا على بطن فريسته رصاصتين ..اليتين ثم مانحًا بعدها ساقيه عنان الركض دون توقف.

ن شارع لآخر توارى قبل أن يستقل تاكسيًا نحو منزل عُمر العزة ليلتقي هناك مع زملائه، حيث أخبره «محمود» أنه نجح في إطلاق الرصاص على جنديين في شبرا لكنه يشك في موتهما، بينما مَس «محمد إبراهيم» تجربته حيث تجوَّل عدة ساعات في شوارع ..لوان دون العثور على ضحية مُناسبة. أما المجموعة المُكلفة بإحراق سيارات قليوب فلم تعُد حتى الصباح مما أثار القلق بين أفراد التنظيم، وقرروا العودة إلى منازلهم مُنتظرين ما تُسفر عنه الساعات التالية.

فور عودته إلى البيت فوجئ «حسين» بـ«عم عثمان الجنايني» مُخبره السري يقول له إن عسكريا من قسم البوليس جاء صباحًا وسأل عنه وطلب إبلاغه ضرورة الذهاب لمأمور القسم في الثانية عشرة. لم تمض دقائق على الخبر حتى دخل عليه «نجيب» ليخبره أن «مدحت» و«سيد» و«محجوب» قُبض عليهم ليلًا بقليوب

ويحوزتهم مواد سريعة الاشتعال، وأنَّ والدته لا تعلم أي شيء حتى اللحظة.

امتص «حسين» ببرود قلق ابن خالته، وربت على كتفه قائلًا:

ـ اذهب إلى عُمر الآن وأخبره. سيتصرف.

ـ وأنت؟

سأله «نجيب» بغضب، فأجاب مُبتسمًا:

ـ أنا مطلوب في قسم البوليس.

أطلَّ الخوف من عيني «نجيب» وسأل محاولًا تمالك أعصابه:

ـ وأنت. ماذا ستفعل؟

ـ لا تقلق.

وغادر «حسين» بعد أن سكب نصف زجاجة كولونيا فوق بذلته السوداء ومعه «عثمان الجنايني»، الذي سأله عن «سيد» فكرر كلمة «لا تقلق». استقلا تاكسيًا إلى القسم وسخر قلبه من إيمان «عُثمان الجنايني» وهو يردد طيلة الطريق الدعاء بحق السيدة زينب أن تأتي العواقب سليمة. وصلا فسأل حسين عن المأمور، ثُم بُخطى واثقة دخل إلى مكتبه بعد إشارة من الشاويش ذي الجسد الضخم الذي استقبله فور دخوله. وجد أمامه شاربًا طويلًا مُتدليًا على فم غليظ الشفتين مزروعًا في وجه مُربع غامق البشرة يُدخن بشراهة كمدخنة مصنع فحم. لمحه واقفًا فسأله:

ـ من أنت؟

ـ حسين توفيق.

رماه بنظرة مُتفحصة من أسفل لأعلى والعكس، ثُم سأل:

ـ ماذا تُريد؟

ابتسم «حسين»، وجلس مُستفزًا مأمور القسم قبل أن يجيب:

أنا لا أريد شيئًا، لكن هُناك استدعاء لي.

ا؛ رأس المأمور ذو الوجه المُتجهم في الولد الجالس أمامه وصاح ..

أ م. مَن سمح لك بالجلوس؟ أنت ابن توفيق بك محمد، أليس ...؟ لكن من الواضح أنك ولد مُشاغب.

.. ف «حسين» صامتًا ليدفع السائل للتورط في سكب كُل ما لديه .. أفكار ومعلومات.

- أين كُنت في الواحدة صباح الأمس؟

سأله المأمور، فأجاب:

- في فراشي.

- في بيتكم؟ ممم. هل لديك شهود على ذلك؟

ابتسم «حسين» وقال بثقة:

- طبعًا.

- مَن؟

- عم عثمان الجنايني وشقيقي سعيد.

ونظر للواقف على باب حجرة المأمور وقال:

- ادخل يا عم عثمان.

دخل ذو الجلباب الأبيض، ليُقر بأنَّ «حسين بك» وصل البيت الثانية عشرة مساء وصعد إلى غرفته في البيت ولم يهبط منها إلا في السادسة صباحًا موعد تريُضه.

نظر المأمور بتشكك إلى «حسين» المُصمت من التعبيرات كلوح ثلج، وسأله:

- أين والدك؟

- في أسوان. في مهمة عمل.

t.me/qurssan

واصل المأمور تدخينه الشره ثُم قال:

ــ أبلغـه سـلامي وتحيـاتي. ولا تعبـث في الشـوارع ليـلًا حـتى لا تُثير الشـبهات.

ثُم بحزم:

ــ انصرف.

بعـد عودتهما،عـرف «حسـين» مـن «سـعيد» أنَّـه لا توجـد أي تُهـم واضحـة تـم توجيههـا إلى مدحـت وسـيد ومحجـوب، وأنَّـه تـم الإفـراج عنهـم عندمـا ذهـب عُمـر أبـو يعـلى لهـم بعـد أن اتصـل بشـقيقه الضابـط ليتدخـل مؤكـدًا أنهـم طلبـة مجتهـدون، وينتمـون لعائـلات محترمـة، وسـأل سـعيد عـن أخبـار ضحايـا الأمـس، فأجـاب:

ــ الضابـط الإنجليـزي الـذي ضربتـه أنـت اسـمه هتـش ونقلـوه إلى قصر العيـني وحالتـه خطـيرة جـدًا، أمـا الجنديـان اللـذان ضربهمـا محمـود مـراد في شُـبرا فـلا توجـد بشـأنهما أي معلومـات ولا توجـد أنبـاء عـن تعـرض أحـد لاعتـداءات.

ــ هل تعتقد أنه يخدعنا؟

سأل «حسين»، فأجابه شقيقه وكأنه ينتظر السؤال:

ــ لا يـا حسـين. أعتقـد أنَّـه أطلـق الرصـاص في الهـواء كمـا يفعـل كُل مـرة ثُـم جـرى.

وقف «سعيد» فجأة كمن تذكر شيئًا ثُم قال:

ــ الغريـب يـا أخـي أن هنـاك جنديـين إنجليزيـين قُتـلا في صحـراء العباسـية قبـل يومـين.

ــ وما الغريب في ذلك؟

سأل «حسين»، فأجاب «سعيد» بسؤال:

ــ مَن قتلهما؟

ابسمر «حسين» وأراح ظهره على المقعد مُسترخيًا، وقال:

. هُناك جمعيات عديدة مثلنا، وهُناك شباب وطني آخر يعمل ... د وفدائية في مقاومة الإنجليز.

أمر قام مُتمشيًا في الغرفة قبل أن يسأل:

هل سمعت عن الحاج محمد؟

هز «سعيد» رأسه بالنفي، فأخرج شقيقه سيجارة أشعلها بسرعة، وقال:

واحد من الأبطال السريين، اسمه محمد أنور السادات وكان ضابطًا بالجيش وعمل مع عزيز المصري قبل أن يطرده النحاس باشا، وسأقابله بعد غد.

... سدت الدهشة حاجبي سعيد، فسأل:

.. كيف عرفته؟ وأين ستقابله؟

. حكى لي عنه عمر أبو يعلى، لأنَّه صديق شقيقه ضابط البوليس. وطلبت منه مقابلته، وأخبره، فحدد لي موعدا في محل آلامريكين ... عماد الدين.

وسحب نفسًا طويلًا من سيجارته وزفره قائلًا:

ـ هو شخص خطير جدًّا، ومُهم لنا. سنستغله في الحصول على أسلحة ومعلومات تفصيلية عن العدو.

***

ساعة كاملة انتظر نصفها قبل الموعد المُحدد والنصف الآخر ... بعده ولا أحد بان. الْتهمه الملل وافترسته علبة سجائر كاملة وهو مُتطلع للقاء شخصية أسطورية سمع عنها حكايات مُثيرة كم تمنى

أن يكـون هـو بطلهـا. وحـده والصمـت وسـط مقاعـد وطـاولات خاليـة إلا مـن سـيدتين تتنـاولان إفطـارًا خفيفًـا بأحـد الأركان. تخيّـل «حسـين» جليسـه المُرتقـب رجـلًا بـلا ملامـح واضحـة، تفيـض عينـاه فزعًـا وهيبـة، ولا يطـرف لـه هُـدب، ولا يعـرف يأسًـا أو انهزامًـا.

طلـب قهـوة ثانيـة، وهـو يتطلـع إلى شـارع عمـاد الديـن حيـث تسـير عربـات وشـباب وأفنديـة لهـم ألـوان وملابـس شـتى. قلـوب مُبعـثرة، وعيـون مُتعبـة تمُـر في صخـب نهـار ربيعـي صعـب رغـم زوال خطـر الحـرب عـن القاهـرة. تذكـر أنَّ «ميمـي» هاتفتـه صباحًـا لتلومـه عـلى غيابـه عنهـا أيامًـا طويلـة، ممـا اضطـره أن يعدهـا اللقـاء مسـاءً رغـم ضيـق الوقـت. قـال لنفسـه إنَّ النسـاء لا يشـغلهن في الغالـب سـوى العنـاق والقبـلات والفسـاتين وأدوات الزينـة، وإن ذكـروا غـير ذلـك. كـم ذكـرت لـه «ميمـي» أنَّهـا غاضبـة مـن تجـبر الاحتـلال وخيانـات الكبـار، وأنَّهـا تـود مثلـه لـو تُسـوي بالإنجليـز وأعوانهـم أرض المحروسـة، لكـن كان باديًـا أنَّ كلامهـا لا يتجـاوز حلقهـا وأنَّهـا تقولـه لتُرضيـه. لا حُـب ولا رومانسـية في هـذا العالـم الوحـشي ومَـن لا يعيـش كقابيـل سـيحيى مُرغمًـا كهابيـل.

رشـف مـرار قهوتـه مُسـتعذبًا وهـو يكتـب في ذهنـه مفاتيـح كُل شـخص مـن أفـراد تنظيمـه. كان يُراجـع وهـو جالـس اسـتعدادات وسـمات رفاقـه ليُعيـد اسـتخدامهم في خططـه المُسـتقبلية. فكـر أنَّ «محمـد إبراهيـم كامـل» مُخلـص لكنـه مُتأنـق ومُعتـدّ بنفسـه، أمـا «محمـود مـراد» فهـو نيتشـوي وعنيـف ومُتهـور كثـيرًا، و«سـيد» طيـب ومُخلـص وتابـع، أمـا «محجـوب» فقـوي وشـجاع و...

وانقطعت أفكاره عندما اقترب منه النادل سائلًا:

ـ أستاذ حسين؟

هزَّ رأسه بالإيجاب، فأشار سائله إلى التليفون قائلًا:

ـ تليفون لحضرتك.

قام مُندهشًا ليسمع صوتًا دافئًا وهادئًا يقول له:

t.me/qurssan

حسين. أنت مُراقب. خُذ الترام إلى غمرة ثُم اهبط ستجد على
ين قهوة بلدي اشرب فيها شايًا ثُم خُذ تاكسيًا إلى ميدان العتبة،
في شارع محمد علي حتى مسجد قاسيون، ولاقني هُناك بعد
لاة الظهر.

ظر حوله، وبحث عن مُراقبه دون جدوى، فدفع الحساب وسار
ا أراد له مُحدثه مُتحيرًا أي نوع من الرجال سيقابله، ذلك المُحتاط
ا لم يتعلم، والماكر كما لم يتصور. صلى في المسجد خلف
مام رغم أنّه قليلًا ما فعلها في ظل عدم مبالاة والده بسؤاله
ن الصلاة بعد أن نبت شاربه. جلس صامتًا يُفكر مَن يكون ذلك
ضابط الغريب المطرود من الجيش بسبب اتصالاته مع الألمان؟
مل الانتظار دون جدوى حتى وجد المسجد يخلو رويدًا إلا من
ادمه الذي كان مُهتمًا بالنظر إليه بتركيز شديد. همَّ بالخروج بعد
فقد الأمل في لقاء الداهية المطلوب من البوليس، وما أن وضع
ذاءه خارج المسجد حتى وجد كفًا سمراء تُصافحه قائلًا:

ـ حرمًا.

سرت رعدة في جسده الفارع على غير اعتياده،عندما وجد وجهًا
سمر شاحبًا تُنيره عينان ضيقتان، وابتسامة ماكرة. تمالك اتزانه
أخمد شرر الخوف وهو يضغط على كف مُحدثه قائلًا بفرح شديد:

ـ جمعًا يا حاج محمد.

سارا معًا عبر أحد الأزقَّة المتفرعة من الشارع ليصعدا درجًا في بيت
ديم فتحه «الحاج محمد»، ثُم جلسا في صالة ضيّقة خالية إلا من
لاثة كراسي خشبية وطاولة قديمة يعلوها التراب. سأله «حسين»:

ـ هل هذا بيتك؟

ابتسم «الحاج محمد» وهزَّ رأسه قائلًا:

ـ كلها بيوت ربنا.

وابتسم قبل أن يقول:

ــ أنا أبيت كُل يوم في مكان. والأحباب كثيرون مثلك هكذا.

أخرج «حسين» علبة سجائره، فالتقط «الحاج محمد» واحدة وقال له :

ــ تستطيع أن تُناديني باسمي، أنور.

ثُم بتبسُط مقصود:

ــ أنور السادات.

بطل كما تصوره، رائق الضحكة، حكاء العينين، قوي التأثير. سأله «حسين» في اهتمام عمَن كان يُراقبه فأجاب:

ــ رجل طيب من أصحابنا.

ــ أصحابنا؟ مَن؟

ــ من البوليس السياسي. يوزباشي مُجتهد اسمه محمد إبراهيم إمام.

استغرب «حسين»، وقال باستهجان مُقطعًا حروفه:

ــ مُ ج ت هـ د؟!

هزَّ «أنور السادات» رأسه قائلا:

ــ نعم. ألم تسمع عنه؟ هو الذي ذهب للقبض على المُخرج أحمد سالم ليمنعه من قتل زوجته المُطربة أسمهان ونجح في إنقاذها لكنه تلقى رصاصة في صدره، وأصاب المُخرج برصاصة وعولجا معًا في نفس المُستشفى وكانا حديث الوسط الفني. ألا تقرأ الصُحف؟

هز «حسين» رأسه نافيًا ثُم قال:

ــ لا أهتم. لكن قل لي.. ما علاقة ضابط البوليس السياسي بمُخرج ومطربة؟

سحب «أنور» نفسًا طويلًا من سيجارته وقال وهو ينفثه رويدًا:

المُطربة أسمهان لها اتصالات عُليا، بالمُخابرات الألمانية والإنجليزية والسراي، وهي كنز أسرار ومعلومات. وهذا الضابط ذكي ومُخلص في عمله و...

- مُخلص؟ إنَّه خائن.

- لا ليس خائنًا. قبل عامين كُنت مطلوبًا وقابلته وكُنت أرتدي الجلباب وأعمل بالمقاولات بعد أن طردتني حكومة الوفد من الجيش، وقُلت له هيا بنا إلى السجن، لكنَّه سألني: لماذا السجن؟ سألت: لأنني مطلوب، فهزَّ رأسه قائلًا: ومَن وجدك؟ لا أحد يعرف أني وجدتك. انطلق ولكن ابتعد عن طريقي فقد أضطر إلى اعتقالك.

- ياه. غريب هذا الضابط. إذن لمَ يُراقبني؟

هزَّ «أنور» رأسه وهو يقول:

- هذا مطلوب، لكن وقت الحسم هو لا يميل إلى الإنجليز ورجال الحُكم، وهو بالمناسبة لا يُعذِّب مستجوبيه. لقد بعثت له وردًا عندما أصابته رصاصة أحمد سالم. تصور جرأته، لقد ذهب للرجل في بيته، وقال إنَّه موفد لمنع جريمة قتل المطربة، فأخرج المُخرج مسدسه وأقسم أن يقتلها أمامه فقفز ليتلقى الرصاصة في صدره، ثم أطلق رصاصة على «أحمد سالم» أفقدته الوعي ودخل معه نفس المُستشفى فأصرَّ أن يعالج الأطباء المُخرج قبله.

- مثال غريب.

ابتسم «أنور» وقام ليُعد شايا، لم يلبثا أن رشفاه معًا وهُما يتحدثان عن مصر وحالها في ظل الحرب وحكومات العار القابضة على الحُكم خدمة للاحتلال. وحكى «حسين» لـ«أنور» عن مغامراته وعملياته الفدائية طيلة السنوات الخمس الماضية، لكنَّه شعر بالضآلة عندما قال له «أنور» إنَّ هناك مجموعات كثيرة تقوم بنفس

العمل.

ـ ما العمل إذن؟

سأل «حسين» كتلميذ، فأجيب:

ـ أعتقد أنك ومَن معك تقومون بعمل عظيم، لكنّه غير مجدٍ ما الفائدة من قتل عسكري إنجليزي؟ ما الفائدة من قتل ضابط! اثنين؟ ثلاثة؟ لا شيء. لن تُخرج هذه الأعمال الاحتلال. المُصيبة في أعوان الإنجليز، خدمهم من المصريين، هُم الأخطر على البلد.

ـ خونة.

ـ بالطبع. هُم كذلك. لا تهمهم سوى مصالحهم الشخصية. لذا فإنَّ قتل واحد منهم يساوي قتل ألف جندي إنجليزي.

ـ يااه ألف. لكن مثل مَن.. صدقي والنقراشي وماهر؟

ـ هؤلاء أضعفهم. انظر للرأس الكبير. النحاس باشا. ذلك الساحر العجوز. درويش الناس وأفيونهم، بحزبه وأنصاره ومُحبيه هو الأخطر وهو الأولى بالقتل.

فكّر «حسين» قليلًا قبل أن يقول:

ـ هو ساحر فعلًا. معك حق. لقد سمعته يخطب مرة وكدت أصدقه وأهتف له حتى عرفت من والدي كيف تحالف مع الإنجليز ليأتوا به حاكمًا في ظل دباباتهم.

ابتسم «أنور» وهو يقول:

ـ لو فكرتم في عمل وطني كبير عليكم أن تبدأوا به. انتظروا حتى يقيله الملك وأعتقد أنَّ ذلك سيكون قريبًا، ووقتها يُمكن التخلُّص منه وإنقاذ البلد من ديكتاتورية الوفد.

ـ ديكتاتورية؟

ـ نعم. ديكتاتورية الزعامة التي تدّعي امتلاكها للقيم والمبادئ والأخلاق.

t.me/qurssan

مصمص «حسين» شفتيه وقال له:

هل تعرف عزيز المصري؟

- بالطبع إنَّه مُعلمي وأستاذي وأستاذ جميع الثائرين. أنا أعرف من يُناضل، لذا فقد وافقت على التعرف بك. أنا أشم رائحة البطولة. اسمع، سأساعدكم بالمعلومات والسلاح الذي تحتاجونه، لكن توقفوا عن اصطياد الإنجليز. لو خرج الإنجليز من مصر لأكلها الباشاوات وبلغاء الخُطب في كروشهم.

وقام «السادات»، وهو يقول:

- والآن انزل. وسأتبعك بعد عشر دقائق. سأدلك على مخبئين الأسلحة في المُقطم. وعندما تسنح الفرصة، ستتوجه إلى هُناك لتأخذ ما تحتاج.

انبهر «حسين» بذلك التخطيط وشعر بالغبطة وهو يُعانق أنور الذي بدا مسرورًا وهو يودع تلميذًا جديدًا.

على أول الزقاق كان أفيش فيلم «تحيا الستات» لأنور وجدى ومديحة يسري وميمي شكيب يحتل عمود الإنارة العمومي، وأمامه كُتب بطبشور صغير على الحائط المقابل «الموت للاحتلال».

***

استطاع «حسين» اكتساب ثقة واحترام جميع زُملائه بعد تسويته لأزمة عاصفة كادت أن تودي بالتنظيم كُله. في يوم ما دخل محمود صبحي مُراد اجتماع التنظيم وبيده مُسدس ليُقسم أمام الجميع بأنه سيقتل نجيب، ران التوتر والقلق على وجوه الحاضرين خاصة «مدحت» الذي توقع أي تصرُف من شقيقه الأكبر، إلا ارتكاب ما يستحق معه الموت. كان «حسين» هادئًا كعادته وبدأ في امتصاص

t.me/qurssan

غضب «محمود» ببطء، مُقررًا أنه يُقدّر غضبه ووطنيته وإخلاصه، ويعرف جيدًا أنَّه أكثر نفعًا للتنظيم الفدائي من ابن خالته نجيب، الذي لا يشاركهم سوى في الكلام وتقديم المشورة، ثُم أكد له أنَّه على استعداد لمعاقبة «نجيب» حال ارتكابه أي خطأ يُعرِّض المجموعة للخطر، لكن من الضروري توضيح الأمر برمته لجميع الزملاء. وتعهد حسين بحل المشكلة تماما بعد أن أخذ المُسدس من «محمود»، فطلب من عم «عثمان الجنايني» الاتصال بـ«نجيب» ودعوته للقدوم بسرعة شديدة. وبعد دقائق من التدخين والنقاش الساخر خمدت همة «محمود» للقتل وتحوّل غضبه لبوح حزين كشف فيه أنَّ «نجيب» على علاقة عاطفية بشقيقته وأنَّه علم بذهابهما معًا إلى السينما قبل يومين.

دخل «نجيب» ليتلقى توبيخًا مُستحقا من ابن خالته وليُقرر بعفوية أنَّه يُحب شقيقة «محمود» بصدق ويريد الزواج منها، لكنَّه تراجع أمام شتائم وتهديدات مُتكررة من«محمود»، قبل أن يتدخل حسين مُهدئًا وطالبًا من الجميع ترك جميع الصغائر والتركيز على تطوير أعمال التنظيم ونقلها إلى مُحيط الساسة المصريين المُرتبطين بالإنجليز.

كرر «حسين» ما قاله «أنور السادات» له من أنَّ قتل سياسي مصري مُتعاون مع الإنجليز يُعادل قتل ألف جندي إنجليزي. وفاجأ القائد غير المُنتخب للتنظيم الأعضاء بضرورة البدء بالنحاس باشا، وهو ما أثار علامات الدهشة عند معظم الأفراد.

قال «نجيب» بتحفز:

ــ تقتل زعيمًا يُحبه الناس ويشهدون له بالنزاهة والوطنية؟

وردّ «محمود» بغضب:

ــ بل خائن ومُدعٍ يخدع الناس بمعسول الكلام. ويكفي أنَّه تحالف مع العدو ضد الملك ليُصبح رئيسًا للحكومة.

فقال «نجيب»:

لكن الناس تحبُه و...

ورد «محمود» مُقاطعًا:

تبًا للناس. لن تولد هذه الجماعة ويُصبح لها تأثير حقيقي بغير دماء.

وقال «محمد إبراهيم كامل» بعد أن رمق المُسدس الذي يحمله «حسين» بوله:

. مُتفق تمامًا مع حسين ومحمود. قتل النحاس باشا ضرورة. هو السبب في خلود الناس إلى الدِعة مُنتظرين نتائج مفاوضات لا تتم أبدًا. إنّه مُخادع كبير. ثُم مَن قال إن حُب الناس شفيع له. ألم تروا ما جرى للنادي الأهلي على يد المُختلط.

ضحكوا على المثال، فقال «مدحت»:

ـ لقد انهزم 6 / صفر. زُقلط أحرز وحده ثلاثة أهداف، ومحسن حلمي هدفين.

بدوا غير مُهتمين كعادتهم بأحاديث الكُرة، عندما وقف حسين مُلقيًا نظرة استفسار عن آراء سيد، ومدحت، وسعيد، ومحجوب، والشافعي، وعُمر، وخليفة، فتكررت إجابات الموافقة على اغتيال النحاس بهز الرأس إلى أن قال محجوب:

ــ إنني مثلكم أعتقد أن قتل النحاس ضرورة، لكن ينبغي أيضًا قتل النقراشي وماهر وصدقي وهيكل.

قال «محمود»:

ــ معك حق. علينا أن نُقرر أنّ النحاس هو ضحيتنا الأولى، ثُم سنقتل بعده ماهر. ذلك المتلون الذي خان تاريخه كمناضل ومقاتل ضد الإنجليز ليتحالف معهم.

رمقه «محمد إبراهيم» بنظرة استهجان قائلًا:

t.me/qurssan

ـــ هــل صدقــت مــا ردده بأنّــه كان مُشرفًــا عــلى الجهــاز الــسري لثــورة 1919؟ كُلهــا دعايــات كاذبــة. إنّهــم يتاجــرون بــكل شيء. الأبطــال الحقيقيــون هُــم شــفيق منصــور وآل عنايــت ومَــن أعدمــوا معهــم ســنة 25.

مــشى «حســين» بهــدوء واضعًــا يديــه في وســطه، ليــدور حــول أفــراد المجموعــة الجالســين ثُــم قــال:

ـــ إذن علينــا أولًا أن نُنــشئ جهــازًا للمعلومــات لجمــع المعلومــات عــن الخونــة واحــدًا واحــدًا. نريــد كُل شيء. عناوينهــم، جداولهــم اليوميــة، عاداتهــم، خطــوط ســيرهم، رجالهــم، وأنظمــة الحراســة الــتي يســتخدمونها. أقــترح تكليــف محمــد إبراهيــم كامــل بإنشــاء جهــاز المعلومــات، وأقــترح إنشــاء جهــاز معاونــة آخــر يضــم تنظيمًــا مــن الشــباب الصغــير يترأســه مدحــت.

ـــ لماذا؟

سأل «محمود»، فأجاب «حسين»:

ـــ ســيكون هــذا التنظيــم مســئولًا عــن اســتكمال أعمالنــا حــال ســقوط تنظيمنــا. ســنُطلق عليــه تنظيــم الكتاكيــت.

ضحكوا، عندما أطلق مدحت شخرة احتجاج على الاسم.

في المســاء حــدَّث حســين صاحبتــه عــن تطــور نظــام جماعتــه، ووعدهــا أن تســمع عنهــا قريبًــا بعــد أن تُقــدم عــلى أفعــال لا يتوقعهــا أحــد. كانــت مُتوتــرة قليــلًا عندمــا أخبرتــه أنهــا خُطبــت. هبــط عليــه النبــأ كصاعقــة، ولاحــظ دموعًــا تترقــرق في عينيهــا وهــي تُكــرر:

ـــ أنا أحبك. أحبك.

سألها بعد أن رشف كوبًا من البيرة الباردة:

ـــ مَن يا ميمي؟

مسحت دمعة مُنحدرة على خدّها وقالت:

t.me/qurssan

- يوزباشي في البوليس.

- البوليس؟

- نعم البوليس السياسي.

- اللعنة.

قالها مُغتمًا، لا على فراق رفيقته الحسناء، ولكن على اقترانها بضابط بوليس، بل وبوليس سياسي. كان يعتقد أنَّ كُل رجال الأمن خصومٌ له، وجميع المُخبرين خدمٌ لأهل السُلطة والنفوذ. قال إنَّ ملعب المُباراة لا يسمح بتواجدهما معًا، ولو قُدر له اقتلاع أرواحهم سيفعل دون تردد.

ودعها غير مكترثٍ بدموعها ليسمع وهو عائد إلى البيت بائع الصُحف يُنادي على جريدة الأهرام قائلًا:

- اقرأ الحادثة. اقرأ الحادثة. مصرع أسمهان.

ناول البائع قرشًا وقرأ بالبنط الأحمر «مصرع المطربة أسمهان بعد سقوط سيارتها في النيل. السائق قفز من السيارة قبل غرقها».

وتذكر ما قاله «السادات» له بأن «أسمهان» ليست مُجرد مُطربة. وقال لنفسه: لابد أن المخابرات البريطانية قتلتها أو رُبما الألمانية، أو آخرون. القتل هو نهاية المُنخرطين في الأعمال الخطرة. سيكون مصيرك يومًا. لكن لا شيء يهم. إنَّه موتٌ جميل.

***

«الفرصة سانحة». قالها «أنور السادات» لحسين توفيق في لقاء سريع جمعهما في شقة عمر أبو يعلى. كان الملك فاروق قد أقال حكومة الوفد مُستغلًا سفر السفير «مايلز لامبسون» إلى الخارج، بعد أن سعى القصر عبر رجاله إلى تشويه «النحاس باشا» اعتمادا

t.me/qurssan

على اتهامات بالفساد أعدَّها «مكرم باشا عبيد» سكرتير الوفد السابق ونشرها في كتاب قُدم إلى السراي بعنوان «الكتاب الأسود». كان رأي «السادات» أن أطقم الحراسة المفروضة حول الرجل زالت ولم يبق سوى حارس شخصي واحد يُسهل التعامل معه.

قال «السادات» وقتها:

ـ الأسد العجوز بلا مخالب.

وردّ «حسين» بأنّه ومجموعته جاهزون للتنفيذ، خاصة بعد تلميحات باح بها السادات بأنّ هناك مجموعات وطنية أخرى على استعداد للقيام بتلك البطولة حال تقاعس رجاله. كان «حسين» يتصور أنّ المجموعة التي ستحقق السبق في صيد روح الرجل ستكون مؤهلة للعب دور قيادي في النظام الجديد الذي سيحكم بعد خروج الاحتلال، واعتبر «السادات» هو حلقة الوصل بين تنظيمه وبين قيادات الثورة القادمة.

في بضعة أيام جمع التنظيم بيانات تفصيلية حول الجدول اليومي للضحية، عاداته، زواره، وموقع سكنه، وتحركاته، واكتشفوا صعوبة الوصول له إلا يوم الجمعة، والذي يزور فيه ضريح الحُسين للصلاة، وقرروا قتله خلال ذلك اليوم رغم تحذير «نجيب» لهم بأن تنفيذ الاغتيال خلال الصلاة سيُزيد من شعبية الرجل ويحوّله إلى شهيد أمام الناس.

في أحد صباحات الجُمعة تطوَّع «محمد إبراهيم كامل» و«عُمر أبو يعلى» و«محجوب» بالاختباء وسط المُصلين تمهيدا لانتهاز فرصة خروجه مع الناس عقب الصلاة وإطلاق الرصاص عليه، لكنّهم فشلوا بسبب الزحام الشديد حول الرجل واحتضان البعض له مما جعله هدفًا صعبًا، مُتذكرين الواقعة الشهيرة لمحاولة قتله في المنصورة قبل أكثر من عشر سنوات والتي فشلت بعد تلقي سينوت حنا طعنة أحد القتلة بدلًا منه.

t.me/qurssan

في مرة أخرى كمن «حسين» في أحد أركان المسجد مُنتظرًا قدوم النحاس ومعه مسدس أتوماتيكي سريع الطلقات منحه إيَّاه «السادات»، لكنَّه اكتشف فجأة خلو المسدس من الرصاص، وتذكر أنَّه نسي ملء خزانته قبل التحرك. وفي مرة ثالثة انتظره هو و«محمد خليفة» و«كريم القناوي» ومعهم عدة مُسدسات وقنابل يدوية، لكنَّه لم يأت في ذلك اليوم، لتنشر الصحف بعد ذلك أنَّ الرجل مصاب بنزلة برد حادة.

واعتبر «محمود مُراد» إخفاقهم في قتل الرجل بمثابة لعنة لا يُمكن الخلاص منها، واقترح تحويل المسار بشكل مؤقت إلى أحمد باشا ماهر الذي صار رئيسًا للوزراء وحليفًا شرعيًا للإنجليز، لكن «حسين» اعترض مُكررًا أنَّ إخفاقهم في قتل شخص ما لا يجب أن يدفعهم إلى تركه واختيار بديل له، وقال لهم إن عليهم المحاولة مرة واثنتين وثلاثًا.

وعاد «حسين» لـ«السادات» ليُخبره بصعوبة قتل النحاس لأنَّه في الغالب مُحاط بعشرات الأشخاص، وأنَّه محدود الحركة ولا يكاد يُغادر بيته لأيام طويلة. وسأله إن كان من الممكن قتل أحمد ماهر باشا بدلًا منه، فأشاح عنه السادات بوجهه وقال:

ـ إن الرصاصة الواحدة فيه حرام. ماهر؟ مَن يُمثل؟ لا شيء. دعك من أحزاب الأقلية جميعا، وفكر في المُتحكمين في الشعب.

كان الامتعاض باديًا على وجه «السادات» كُلما ذكر اسم «النحاس» أمامه ويبدو أنَّه لم يكن قادرًا أن ينسى للرجل أنَّه طرده من الجيش وحوَّله إلى شريد بلا عمل. وفكر «السادات» قليلًا قبل أن يخبر «حسين» أنَّه من الممكن قتل رجال حول «النحاس باشا»، ثُم يجري بعد ذلك تفجير الجنازة خلال مشاركته فيها. وأعجبت الفكرة «حسين»، فنقلها إلى زملائه الذين بدأوا التفكير بشكل جدي في المُقربين من «النحاس باشا»، فاختاروا في البداية «فؤاد سراج

t.me/qurssan

الديـن»، ثُـم اسـتبعدوه لأنَّـه يسـتعين بُحراسـة قويـة، ثُـم فكـروا في أحـد أشـقاء حـرم «النحـاس»، لكنَّهـم عـادوا واعتـبروا ذلـك بعيـدًا عـن المـروءة والنبـل خاصـة أنَّهـم جميعًـا ليـس لهـم أي توجهـات سياسـية، وأخـيرًا أخبرهـم «السـادات» أنَّ «أمـين باشـا عُثمـان» هـو الأنسـب لهـذه العمليـة خاصـة أنَّـه لعـب دورًا معروفًـا في الوسـاطة بـين «النحـاس» والإنجليـز، وهـو مـن خـدم التـاج البريطـاني حيـث تعلـم هُنـاك، وتـزوج إنجليزيـة، واعتـبر الاحتـلال البريطـاني رفعـة وتقدمـا، وأنَّـه يجاهـر بخيانتـه دون حيـاء.

وجلـس ثلاثـة عـشر شـابًا في حديقـة مـنزل توفيـق بـك بالمعـادي يصوتـون عـلى قتـل «أمـين عثمـان» كمقدمـة لقتـل «النحـاس»، لكنَّهـم اختلفـوا مـرة أخـرى بسـبب إصرار «محمـود مـراد» عـلى رأيـه في أنَّ قتـل «أحمـد ماهـر باشـا»هو الأولى في الوقـت الحـالي باعتبـاره رئيـس الـوزراء الموجـود في الحكـم، وأنَّ «النحـاس» بعـد خروجـه مـن الـوزارة صـار مُثيرًا للشـفقة. وتمثَّـل لهـم «محمـود» بمقولـة للفيلسـوف نيتشـه تقـول: «مـن كان يحيـا بمحاربـة عـدو مـا، تصبـح لـه مصلحـة في الإبقـاء عـلى هـذا العـدو حيًـا».

وشـعر «حسـين» بالتـبرُم مـن اعتراضـات «محمـود» المتكـررة، وانتظـر ذهابـه إلى الحمـام ليقـول لزملائـه في حـزم:

ــ لا عليكـم باندفاعـات محمـود، هـو يتحامـق كثـيرًا. سـنقتل النحـاس باشـا لا محالـة، وسـنقتل أمـين عثمـان. لا تغيـير بـدون دمـاء. اسـتعدوا. يجـب أن تكـون لدينـا معلومـات تفصيليـة عـن أمـين عُثمـان.

فهزوا رؤوسهم موافقين.

***

t.me/qurssan

امسك بيمناه رابطة عُنقه التي كادت تخنُقه، وهو يستعد للخروج من قاعة البهو الفرعوني لمبنى البرلمان مُتذكرًا أنَّه حقق نصف ما أراد بانتصاره على خصمه اللدود. بدا ثقيلًا وهو يُصافح بعض النواب في طريقه نحو سيارته بالخارج لتقلّه إلى بيته بعد أن أعلن رسميًا أنَّ مصلحة مصر ستتحقق بدخولها الحرب العالمية الثانية إلى جانب بريطانيا. بوجه عريض مُنفرج الشفتين، وشارب كث يتناسب مع سمنته المفرطة قابل «أحمد باشا ماهر» زملاءه وهُم يُهنئونه على قراره النابه بعد تأكد انتصار الحلفاء في الحرب لتصبح مُشاركة مصر مُجرد تحصيل حاصل ومقاسمة في الغنائم. قال لنفسه إنَّه استطاع النيل من غريمه «مصطفى النحاس» الذي سبق أن أضاع فرصته في تولي الحكومة قبل ثلاث سنوات عندما تدخلت دبابات الإنجليز لتأتي به رئيسًا رغم أنف الملك.

«السياسي هو مَن يتحول من اليمين إلى اليسار بفطنة ثعلب وسرعة أرنب، السياسي هو الباحث عن إجابات متعددة لأسئلة صعبة، وهو القابل للحلول الوسطى، والراضي بالأمر وعكسه، واللامُحب واللاكاره لأحد أو أمر». ردَّدها داخله وهو يستعيد لقاءه الأول قبل ثلاثة عقود مع سعد باشا زغلول عقب عودته من دراسة القانون في باريس وإحساسه بأن الأيام تُخبئ لهذا الرجل أدوارًا تاريخية عظيمة، واتفاقه مع صديقه المُقرّب «محمود فهمي النقراشي» على الانخراط في العمل المسلح لدعم «سعد زغلول».

طافت برأسه مشاهد نقل الأسلحة للفدائيين، وتجهيز القنابل للجهاز السري، وتوفير السلاح للقائمين بالاغتيالات، ثُم القبض عليهما من قبل الإنجليز واتهامهما بالإرهاب، ومحاولة لف حبل المشنقة حول رقبة كُلٍ منهما. يومها تفرغ المُحامي الكُفء «مصطفى النحاس» للدفاع عنهما وحشد كُل الأدلة لتبرئتهما في قضية شغلت الرأي العام. تساءل «ماهر باشا» عن مصيره لو لم يحصل له

«النحاس» على البراءة، وشعر أنه مدين للرجل رغم خلافتهما بالكثير. ضبط «أحمد ماهر» طربوشه وهو يخطو في ثقة مُتذكرًا يوم اجتماع الهيئة الوفدية لاختيار خليفة لـ«سعد باشا» وكيف وقف هو و«النقراشي» إلى جوار «النحاس» في منافسة «فتح الله بركات»، لكنَّه شعر بجفاء شديد مع تقريب «النحاس» لـ «مكرم باشا»، ثُم جعله الرجل الثاني في الوفد. حدّث نفسه بأنَّ النحاس هو الذي دفعه دفعًا للخروج من بيت الأمة ليؤسس مع «النقراشي» حزب السعديين. الوفد هو الوفد. ردَّدها وهو يواجه هواء الساحة مُتنفسًا بصعوبة معتادة نتيجة سمنته المُفرطة، واسترجع سنوات الفدائية والعمل السري، وتغيير ملابسه عدة مرات في اليوم للإفلات من عيون المُخبرين، والسفر لبنها بتذاكر القاهرة الإسكندرية لخداع مطارديه، وإطلاق الرصاص في البارات على جنود الاحتلال. كيف تغيّر بكُل هذه الحدة؟ سأل نفسه، وأجاب بأنَّ الزمن تغيّر والأعداء انقلبوا حلفاء، وصار الرفاق خصومًا، وأثبتت الأيام أن حلول السياسة أنجع من الرصاص.

دقّ قلبه بتسارع وهو يستعيد لقاءه الأخير مع السفير «مايلز لامبسون» عندما أخبره بأنَّه أنفع للإنجليز من الوفد، وأنَّه لا يهمه في الوقت الآني سوى مصلحة مصر، وهزيمة «النحاس» والثأر منه. لمح سيارته وحرسه أمام الباب، وفكر كيف كان يضع خطط إرهاب الوزراء في زمن الثورة، مُتغلبًا على نُظم التأمين ومُتحديًا كُل مَن وقفوا خارج الوفد. لقد قال يومها أن مَن يخرُج على الوفد يخرج على الأمة، ومَن يخرج على الأمة يُعد خائنًا، وها هي الأقدار تدفع به خارج الوفد، لكنَّه ليس خائنًا.

تذكر أنَّه تلقى قبل مجيئه البرلمان رسالة من مجهول تُهدده بالقتل إن قدم اقتراحه بإعلان دخول مصر الحرب، لكنَّه قدم الرسالة لـ«النقراشي باشا» المسئول عن وزارة الداخلية ليُقدمها للبوليس

السياسي بهدف البحث عن ذلك المخبول الذي واتته الجرأة أن يُهدد دولة رئيس الوزراء.

لاحظ شابًا طويلًا مُهندمًا يقترب مُسرعًا من الباب، لتلتقي عيناه بعينين عسليتين مُتعبتين قرأ فيهما حُكم الإعدام. تذكر وجه عسكري إنجليزي طعنه في زحام القاهرة سنة 1922 وهو يطلب العفو منه بملامح مُنكسرة، ودموع مُترجية. قال إنَّه يُفضل الموت صلبًا، شامخًا كالرجال. ودَّ لو قال للشاب المواجه بعد أن تبين مُسدسًا بين يديه أنه ليس خائنًا، وأنَّه مثله يريد مصلحة مصر لكنَّه لم يكد ينطق حتى أخرسه أزيز رصاصات لم يتبين عددها قبل أن تُصيبه لسعات مُفرقة، سمع على إثرها صياحًا، وشعر بحركة مُتسارعة حوله، ثُم غاب تمامًا عن الوعي.

ـ مات؟

سأل «توفيق بك» مُحدِّثه في التليفون، ثُم هز رأسه حُزنًا وهو يقول:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.

كان «حسين» جالسًا أمامه في غرفة المكتب عندما سأل والده في فضول عما جرى، فأجابه:

ـ قتلوا ماهر باشا.

هزَّ «حسين» رأسه قلقًا وقال في سره «محمود الوغد. سيقضي علينا جميعًا»، واستأذن والده بدعوى أن لديه موعدًا مع أصدقائه، وخرج مُسرعًا لتنفيذ خطة مواجهة الخطر. الاختفاء ضرورة حتى يستبين موقف «محمود». قالها لنفسه في الطريق إلى بيت عُمر، قبل أن يسمع صوته مناديًا في الشارع. أدار وجهه وفوجئ بـ«محمد إبراهيم كامل» معه، فبادراه بالخبر وقالا إنَّ القاتل ليس «محمود يحيى مراد»، وإنما هو شاب وطني آخر اسمه «محمود العيسوي» يعمل مُحاميًا بمكتب عبدالرحمن الرافعي.

t.me/qurssan

انحسر القلق تدريجيًا من وجه حسين، واستعاد هدوءه رويدًا، وفكر كثيرًا ثُم قال:

ــ يبدو أنَّ ما قاله لي أنور السادات صحيح مائة في المائة، هناك جماعات عديدة تفعل ما نفعل، وتُجاهد مثلنا وتُفجر، وتطارد الخونة، وإن لم نتحرك وندخل أرض المعركة، فإننا سنكون خارج أي حسابات فيما بعد.

***

كقالب سكر ذاب، واختفى عن الأنظار. لم يذهب «محمود يحيى مُراد» اللقاء الأسبوعي للتنظيم في حديقة منزل «توفيق بك». اتصل به «حسين» عدة مرات ووجد التليفون مُعطلًا، وسأل «عُمر» عنه في الكلية فلم يجد جوابًا، وشعر «حسين» بالقلق، فسحبته قدماه نحو منزل «محمود» في حدائق القُبة، وطرق الباب، لينفتح على وجه بشوش مُنير لفتاة غرست فيه البراءة أعلامًا وشارات. تذكر أنَّه لم يرها مُذ كانت طفلة، ثُم دار بخاطره غضب «محمود» من اكتشافه علاقتها بـ«نجيب» ابن خالته. سأل نفسه كيف يُمكن أن يفلت هذا الجمال من بين يديه ويذهب إلى المناضل المُتفرج الذي لم يطلق يومًا رصاصة، ولم يخاطر بنفسه، ولو للحظة. لو كانت على علاقة بأي من أفراد المجموعة لما استكثر، ولا اندهش، لكن أن يفوز بها «نجيب» مذوق الكلام، ومُدّعي الثقافة، فلابد أن يغضب. عيناها صافيتان كبحيرتي سُكر، وأنفها يُشابه أنف محمود، لكنَّه أقل بروزًا، وابتسامتها تُنبئ عن رقة مُتناهية وأنوثة طاغية، وذلك الشعر الساحر المُنسكب خلف جيدها يؤكد أن الجمال اختار موطنًا له في شقة بسيطة بحدائق القبة.

رحلت «ميمي»، تركته، لا يهم، إلى الزواج، إلى العريس الجاهز،

t.me/qurssan

ضابط البوليس السياسي، الخادم للخونة، إلى الجحيم، ولا أسف، فقد اختارت، وصار من اللازم اختيار امرأة أجمل وأنضج وأكثر قدرة على استيعاب أعماله الوطنية، وليس أنسب من هذا القمر المتلألئ الفتان، ويكفي أنَّها ابنة عمته الراحلة مُنذ سنوات، وشقيقة «محمود» زميله في الكفاح والنضال ضد الإنجليز والخونة. لاحظت سمته فبدرت منها ابتسامة نقية أطلت على استحياء من خلف باب موارب، وسألت في فراسة:

ـ أنت حسين؟ أليس كذلك؟ ابن خالي توفيق؟

هزَّ رأسه كمَن يُحيي الجماهير، مُقررًا في سره أنها أجمل من «ميمي» مائة مرة. قالت:

ـ لم أرك مُنذ سنوات طويلة، لكن لم تتغير كثيرًا.

هزَّ رأسه مرة أخرى، وهو يفكر إن كان كلامها إعجابًا أم نفورًا، ثُم سأل وعيناه تلتهمان جمالها:

ـ سناء؟

ـ نعم. عظيم أنك تعرف اسم بنت عمتك التي لم تزرها.

حدّق في وجهها أسفًا قبل أن يسأل:

ـ محمود هُنا؟

هزّت رأسها نافية، فواصل:

ـ أين أجده؟

كررت هز الرأس وران على وجهها بعض الضيق، وشعر «حسين» بأنَّها تكذب عندما اشتم رائحة دُخان سجائر مخنوق يتسرب عبر الباب. ركز نظره على عينيها مُخترقًا ومُسيطرًا قبل أن يكرر سؤاله:

ـ هل أنتِ متأكدة أنَّ محمود غير موجود؟

قرأ ارتباكها، فكرر:

ــ سناء. أرجوكِ. أخبريه أنني أريده لأمر مهم. سأنتظر هُنا.

انسحبت للداخل بجذبة ذراع مُستترة، بينما أطل وجه «محمود» مُكفهرًا، ليبدو بلحيته النابتة مُنزرعًا في البيت لعدة أيام. دعاه للدخول، بينما غابت شقيقته في إحدى الغرف، وتبعه نحو غرفته المُختنقة بدخان السجائر.

ــ مالك؟

سأله «حسين» في برود، فأجاب:

ــ قتلوا أحمد ماهر.

مصمص «حسين» شفتيه، وضرب كفًا بأخرى وسأله:

ــ ألم تكن تتمنى ذلك؟

ثُم بنبرة تهكم:

ــ هل أنت حزين على الباشا؟

أشعل «محمود» سيجارة جديدة، وقال بحزن حقيقي:

ــ كُنت أتمنى أن أكون قاتله بدلًا من العيسوي. كُنت أكرهه بصدق، أشعر أنَّه النموذج الأمثل للخيانة، والانصياع للسلطة. إنني أحسد المحامي القاتل على ما ناله من شرف، مُنذ عرفت بالحادث وأنا أشعر بالتقصير والبطء في اتخاذ القرار. إننا كثيرو الكلام قليلو الفعل، نُفكر، ونُخطط، ونُدبر، ولا نتحرك. لذا يصدق فينا قول نيتشه «في صدورهم ثورة البغضاء، وعلى شفاههم بسمة الثلج».

ــ هات سيجارة.

ابتسم «حسين» ثُم مدَّ يده مُلتقطًا سيجارة وأشعلها بقداحته وقال:

ــ الفرص لا تنتهي. والخونة أكثر مما تتخيل. قُتل أحدهم خير، ولكن أمامنا غيره.

t.me/qurssan

لكني أتحسر كُلما رأيت صور محمود العيسوي مُبتسمًا على صفحات الجرائد، ومُصرحًا للصحف بأنَّ التاريخ سيتكلم عنه وينصفه. سبقنا للمجد.

ابتسم حسين مُستعذبًا حماس محمود وإخلاصه وتذكر عيني شقيقته، مُقررًا أنَّه سيتزوجها يومًا ما، وقال:

ـ استعد يا بطل. يجب أن نتحرك. الهدف مُتاح، والتوقيت مثالي، ولابد أن نستغل حالة الغضب العام، واضطراب البوليس بحثًا عن شركاء العيسوي في تنفيذ عملية مباغتة تُربك البلد وتُهيئه لثورة عارمة.

ـ فيم تُفكر؟!

سأل «محمود»، فرد «حسين» بسؤال يؤكد حنكته واستحقاقه مقعد القيادة:

ـ فيم تُفكر أنت؟

فكر «محمود» قليلًا ثُم قال:

ـ في النحاس باشا.

ـ أمين عُثمان أولًا. لقد اتفقنا على ذلك.

احمرت عينا «محمود» وزفر دُخان سيجارته قائلًا:

ـ اقتلوا أنتم أمين عثمان وسأقتل أنا النحاس.

سكت «حسين» لحظات كمَن يبحث عن رد منطقي، وهو يُدخن بعصبية، وقال:

ـ يا محمود. مصر تريدنا أن نعمل معًا. لقد حاولنا قتل النحاس عدة مرات من قبل، وكان ذلك صعبًا للغاية، فقررنا اختيار أمين عثمان لأنه هدف أسهل. أما لو كان لديك خطة جديدة لقطف روح النحاس، فقُل ونحن معك.

وأضاف:

ـ نحنُ جماعة يا محمود.

ثُم قام وهو يربُت على كتف صاحبه، مُتمنيًا أن يرى وجه الجميلة التي فتحت له الباب، لكن أمله خاب، فغادر راضيًا.

***

كان قلق «توفيق بك أحمد» على ابنه يتعاظم يومًا بعد يوم، خاصة بعد أن تأكد من عنفه وضلوعه في أعمال خطرة ضد عساكر إنجليز وأجانب ومصريين. جال بخاطره أنَّ أمر ذلك الولد الذكي المُشاغب لابد أن ينكشف، خاصة مع تطور طموحاته، واستمرارية عملياته التي يقوم بها مع أصحابه الغاضبين دائمًا.

علم الرجل المُخضرم ذو الخبرات المُتراكمة في السياسة أنَّ هؤلاء الشباب لا يُثنيهم نصح ولا يوقفهم إرشاد، كما أن مجابهتهم بالعنف والتهديد قد تؤدي إلى نتائج صعبة. إنهم حزمة من العناد يصعب تفريقها. قال الرجل لزوجته إنه على يقين أن أبناء الخالة «نجيب» و«مدحت» و«محمد» مُنخرطون مثل «حسين» في ذات الأعمال العدوانية، كما أنَّه تناقش ذات مرة مع ابن شقيقته «محمود مراد» وعلِم أنَّه يحمل أفكارًا مُشابهة. وبدا الرجل في داخله مُتعاطفًا مع توجهات الشباب الحماسية عندما قال لزوجته في إحدى جلساتهما المسائية:

ـ إنَّهم لا يعجبهم سياسي ولا يُرضيهم حزب. حتى مصر الفتاة والإخوان المسلمين اللذين اجتذبا كثيرا من الشباب في هذه الأيام لا يلقون لهما بالًا. هُم يُبصرون الجميع على حقيقتهم، يعرفون المُمثل، والخائن، والمُهرج.

ثُم ببسمة رضا:

t.me/qurssan

ـ هل تعرفين يا سميرة؟ إنني أرى فيهم شبابي. هُم أنقياء ووطنيون ومخلصون. لكن لابد من تأمينهم. أعتقد أنَّ إبعاد الشبهات عن حسين يستلزم انتقالنا لبيت جديد، بعيد عن معسكرات الإنجليز.

ـ وبيتنا؟

سألت «سميرة»، فأجابها بأنَّه سيكون مفتوحًا لاستقبال الضيوف وإقامة الحفلات فقط، لكن السكن سيكون في مصر الجديدة. ثُم قال لها بشكل واضح:

ـ لقد أجرَّت بيتًا مناسبًا في شارع حسن الأكبر في مصر الجديدة.

مصمصت شفتيها امتعاضًا، لكنَّها رأت أنَّ السبب الذي ساقه زوجها مقنع، خاصة أنَّها على يقين أنَّ بكريها مُنفلت وحاد المزاج. تذكرت سخريته من أقربائها الباشاوات ونظرته المتهكمة لهم.

كان خبر الانتقال إلى مصر الجديدة صادمًا لـ«حسين» وزملائه، الذين فقدوا مقرًا جيدًا لاجتماعاتهم في غرفة «عثمان الجنايني»، لكنَّهم اعتبروا الأمر خطوة مُهمة للاعتياد على عقد اجتماعاتهم المصغرة على المقهى أو في جروبي، والموسعة في بيت «عمر أبو علي» الذي تمكَّن مؤخرًا من ضم ثلاثة أعضاء جدد هم «سعد كامل»، و«محمود الجوهري»، و«عبدالعزيز خميس». في ذات الأمر وجد «حسين» خزانة خلفية في البيت الجديد تصلح لتخبئة الأسلحة، خاصة القنابل التي وفرها لهم «عمر» عن طريق شقيقه المتصل بـ«أنور السادات».

في يوم ما فاجأهم «محمود مُراد» بأن متابعته للرجل العجوز وصلت به لإمكانية قتله خلال الاجتماع القادم للهيئة الوفدية بالنادي السعدي. كان «مُحمود» مُصرًا على قتل «النحاس» رغم ترجيح جميع الأعضاء اغتيال «أمين عثمان» أولًا، لذا فقد انشغل على مدى أسابيع عديدة برصد كُل حركة وكلمة لزعيم الوفد. وضع طالب الهندسة على طاولة الاجتماع خريطة مرسومة بالقلم الرصاص

t.me/qurssan

لمقر النادي السعدي والطرق المؤدية له، مُتوقعًا مرور الهدف من شارع رستم المتفرع من قصر العيني قبل نُصف ساعة من موعد الاجتماع. قال «محمود» إنَّ واحدًا منهم سيقف على ناصية الشارع ومعه قنبلة، وسيقف آخر أمام النادي ومعه مسدس، وستلقى القنبلة على السيارة لتقف ويصبح مَن فيها هدفًا سهلًا لحامل المُسدس، بينما ستنتظر سيارة أخرى في شارع قصر العيني وسيارة ثالثة في ميدان لاظوغلي لتقل منفذي العملية بعيدًا.

فكر «حسين» بروية في خطة «محمود» واعتبرها صعبة التنفيذ، خاصة أنَّ سيارة «النحاس» قد تأتي من شارع آخر، لكنه اعتمدها وأيدها عندما تذكر ضرورة تقربه من ابن عمته، ليوافق على اقترانه بـ«سناء» التي مازالت عيناها تسكنان خياله.

قال «حسين» على غير اعتياد:

ــ الخطة مُمتازة. سألقي أنا القنبلة على السيارة، وستطلق الرصاص يا محمود، وسيكون لدينا سيارتان، واحدة سيقودها سعيد ومدحت وتقف في قصر العيني، والأخرى سيقودها محجوب وستقف في ميدان لاظوغلي.

ضرب «محمد إبراهيم كامل» بقبضته فوق الطاولة صائحًا بأنَّه يجب أن يشارك في العملية، وهو ما فتح الباب لتدخلات غضب مشابهة من «كريم القناوي» و«سعد كامل» و«محمود الجوهري» مطالبين بالمشاركة أيضا، ولم يجد «حسين» بُدًا من تشكيل فرقة أخرى وإسناد قيادتها إلى «محمد إبراهيم كامل» تكون مهمتها تعطيل أي مطارد لمنفذي العملية. كان الجميع يرون اغتيال «النحاس باشا» بمثابة شرف عظيم يجب نيله حتى أنَّهم احتفلوا في الليلة السابقة على التنفيذ كُلٌ على طريقته حيث شرب «حسين» كأسًا من النبيذ، ودخَّن «محمود» و«سعد» و«سيد» الحشيش، بينما صلى «محجوب» بتبتل شديد، وقرأ «سعيد» عدة قصائد من ديوان

المتنبي مُكررًا في انتشاء بيتين يقولان «إذا غامرت في شرفٍ مرومٍ.. فلا تقنع بما دون النجومِ. فطعم الموتِ في أمرٍ حقيرٍ.. كطعم الموت في أمرٍ عظيمٍ».

في ساعة الصفر وقف «حسين» مُرتديًا بذلته الجديدة التي منحتها له أمه هدية عيد ميلاده العشرين، واطمأنت يُمناه على القُنبلة القابعة في جيب الجاكت الداخلي، بينما لمح وجه «محمود مُراد» شاحبًا وهو يقف على بعد أمتار مُنتظرًا إلقاء القُنبلة. اقترب موعد الاجتماع وبدت برودة الطقس تبث رجفاتها في الجسد النحيل، مُتصورًا أن سيارة «النحاس» قد لا تأتي من الناحية المتوقعة، وفي تلك اللحظة لن يكون في مقدور «محمود» إطلاق الرصاص. تذكر «أنور السادات»، وقال إنه سيسعد جدًا بخبر قتل «النحاس»، باعتباره الأخطر على مصر ومستقبلها، مسترجعًا توصيفه له بأنه «أفيون الناس ومخدرهم». حقًا. إنه كذلك. هتف في أعماقه وهو يُتابع بنظره سيارة صغيرة تمر إلى جواره ببطء شديد. نظر إليها ففوجئ بـ«فؤاد سراج الدين» إلى جوار «النحاس باشا» جالسين معا على المقعد الخلفي، بينما جلس على المقعد الأمامي رجل بسيط ضئيل الجسم ولا يبدو كحارس أو رجل أمن. أين رجال الأمن المفترضون؟ سأل نفسه، وأجاب بأن ذلك الجالس إلى جوار «النحاس» رجل مخادع وداهية. إنه قادر دائمًا على إدهاشه. اضطرب قلبه عندما رمقه الباشا بنظرة مُحترقة، واضطر إلى رفع يده لأعلى مُتظاهرًا بتحية مُحب، حتى مرت السيارة قليلًا، فقذف بقنبلته بأقصى قوة لتسقط أمام السيارة دون انفجار. شعر «حسين» بوجع في بطنه ومر الهدف أمام عينيه مرور الكرام، وبعد بضع ثوان انفجرت القُنبلة مُحدثة رجة هائلة، اضطرب لها المارة فجرى بعيدًا، وهو يتابع خيبة الأمل تكسو وجه «محمود مراد» بعد أن غابت سيارة النحاس بعيدًا كأنَّ شيئًا لم يقع.

«محظوظ. دائما» قالها غاضبًا، مُغتاظًا أن الهدف أفلت منه دون

t.me/qurssan

سبب منطقي بعد أن كان على بُعد خمسة أمتار منه.

ــ سيكون علينا أن نُعجّل بقتل أمين عثمان في أقرب وقت. ولو خرج النحاس إلى الجنازة ستكون نهايته.

قالها «حسين» بحزم في الاجتماع الطارئ الذي دعا إليه عقب فشل العملية في الليلة نفسها، ووافقوا جميعًا مُستسلمين.

***

عقدوا المُحاكمة فعليًا بحضور «نجيب» الذي اختاروه مُحاميًا عن المُتهم. في صحراء المُقطم وقف «محمود يحيى مُراد» يتلو قرارات الاتهام ضد «أمين باشا عثمان» وزير المالية الأسبق ورئيس نادي رابطة النهضة. نظر «محمود» في ورقة أمامه، وقرأ منها بصوتٍ عالٍ:

«أتى أمين عثمان أفعالًا تمثل أقصى درجات الخيانة، وتستوجب الموت جزاءً، حيث قام المذكور في سنة 1937 بالاتصال المباشر مع السفير البريطاني لوضع جميع طاقات مصر وإمكاناتها في خدمة الجيش البريطاني، وحصل مقابل ذلك على لقب الباشاوية. ثُم واصل دور الوساطة القذر في فبراير 1942 ليدفع بحزب الوفد إلى الحُكم رغم أنف الملك بعد محاصرة دبابات الإنجليز لقصر عابدين، ونال نظير ذلك وزارة المالية التي مكّنته من استغلال نفوذه وتأسيس شركات تجارية بمشاركة الخواجة شارل كاسترو ومنحها تراخيص عمل واستيراد وتصدير مخالفة للقانون. وبعد إقالة الحكومة دعا المتهم إلى الاندماج في الثقافة الإنجليزية وتوطيد العلاقات مع بريطانيا وأسس لذلك رابطة أسماها رابطة النهضة. وواصل المتهم تحديه للإرادة الوطنية وقام باتصالات مباشرة بين السراي والإنجليز بهدف تحسين العلاقات، ووصل به الأمر إلى التصريح بزواج مصر وبريطانيا زواجًا كاثوليكيًا. ولم يكتف المتهم بالكلام وإنما قام بجمع تبرعات

مالية من أموال المصريين بلغت نحو مائة ألف جنيه وقدَّمها إلى الحكومة البريطانية لإنشاء قرية في بريطانيا لتخليد ذكرى معركة العلمين».

كان شباب التنظيم يجلسون على صخرة يُدخّنون في تحفز وهُم يستمعون لقائمة الاتهامات ناظرين نحو «نجيب» بنظرات تحذير بعد أن قام لتمثيل دور الدفاع بناء على إشارة من «حسين» الذي وقف إلى يمين «محمود مراد».

قال «محجوب» وهو يقف مُنفعلًا:

- أعتقد أنَّ الدِفاع سينسحب من المحاكمة ، لأنَّه لا يمكنه الدفاع عن الخيانة.

ونظر «محمد إبراهيم» نظرة ذات مغزى إلى «نجيب» الذي أشعل سيجارة انتظارًا لمنحه الكلمة، قبل أن يقول:

- لا إنَّنا نريد أن نسمع دفاعه.

وعلّق «عُمر» قائلًا:

- إنَّ صديقنا نجيب طيب القلب، لكن مهما كان فهو إنسان وطني.

رد «نجيب» بإشارة اعتراض من يده صائحًا:

- أرجو من هيئة المحكمة منحي الفرصة للدفاع عن المتهم.

سرت همهمات وارتفعت أكف مُشوحة في وجه نجيب، لكن حسين الذي أسعده تمثيل دور القاضي قال بحنكة:

- سنمنح الدفاع خمس دقائق للرد على الاتهامات.

- كثير.. كثير.

ردد الحاضرون، لكن «نجيب» وقف وقال بصوتٍ عال:

- إنَّنى مع كُل ثقافتي واعتراضي على العُنف أقر أنه لا يمكن التعامل مع أفعال المتهم بتحضر، خاصة أنه فُرض عليّ الدفاع عنه دون

رغبة مني. وأنا لا أجد عُذرًا مقبولًا لمن يدفع بمصر لتُصبح عروسًا لبريطانيا، مع التبجح والدعوة أن يكون ذلك الزواج كاثوليكيًا أي أبديًا، وهُنا فإنني أشعر بمزيج من الخجل والانهزامية وأنا أقف بينكم طالبًا الصفح عن مُجرم، خائن لبلاده. إنني أعرف جيدًا أن جميع الاتهامات الموجهة إلى المُتهم صحيحة، وأنه ضالع في خدمة العدو المُحتل، مُحققًا مكاسب مالية حرامًا، ويكفي أنه تزوج من سيدة بريطانية تدعى الليدي كاترين جريجوري، وأن شريكه الأول انجليزي الجنسية.

ثُم ابتسم «نجيب» ابتسامة خافتة، ثُم رمى بنظرة رضا نحو ابن خالته القاضي قائلًا:

ــ إنني للمرة الأولى في تاريخ القضاء أضم صوتي إلى صوت ممثل الادعاء مطالبًا بتوقيع أقصى العقوبة على المتهم. وباعتباري محاميًا ودارسًا للقانون فإنني لا أجد لجرمه عقابًا سوى الموت.

هلَّل الحاضرون، وصفقوا، قبل أن يرفعوا «نجيب» عاليًا، وهُم يرقصون في مرح ويصيحون: يحيا العدل. يحيا العدل، بينما وقف «حسين» رافعًا قبضته في الهواء وهو يُردد في صوتٍ عال:

ــ هدوء من فضلكم. النطق بالحكم.

صمتوا، والغبطة تُظللهم عندما قال «حسين» في رزانة:

ــ حكمت المحكمة الوطنية على المتهم أمين عثمان بالإعدام، وحددت مساء الغد موعدًا لتنفيذ الحُكم. الله.. الوطن.. الشعب. رفعت الجلسة.

***

..ـعت عيناه العسليتان ضوء الشمس وهو يسحب أستاره مُبشرًا
.. روب شتوي عاصف. لم يكُن الرجل متوسط القامة ذو الملامح
المـبسطة دائمًا يشعر بوحشة الغروب الشتوية التي يعتادها سُكان
القاهرة لأنَّه كان دائمًا لا يكترث بما حوله. لقد تعلّم مُذ كان طفلًا في
..رسة فيكتوريا بالإسكندرية كيف ينعزل تمامًا عن أي مؤثرات قد
.. ال من حالته المزاجية، لذا فإنَّه لم يلتفت لقول زوجته «كاترين»
وهو يُغادر في ذلك الصباح:

أمين. أشعر أن الجو مُقبض اليوم.

..ـحها قُبلة رقيقة اعتاد طبعها فوق خدها الأيمن مُكررًا أنَّه كرجل
... أ في الإسكندرية، وهي كسيدة ولدت بانجلترا وتربَّت هُناك لا
..ـسي أن تُعكر صفوهما حالة الطقس.

عزيزتي.. سيكون كُل شيء على ما يرام.

..ان «أمين عُثمان» رجُلا عمليًا إلى أقصى درجة، يفهم السياسة
.. صفقة تجارية، فيها طرفان كلاهما رابح. عرف الرجل الخمسيني
.. روب السياسة وحنكة الإنجليز ودهاء المحامين مُذ استثمر علمه
في القانون والمتوج بدكتوراه حصل عليها من باريس، وخاض غمار
المفاوضات بحثًا عن مصالح بلاده. كان يؤمن أنَّه يمكن خدمة الوطن
.. ون دماء، وأنَّ المعارك والمواجهات المباشرة بين المصريين والإنجليز
لا يُمكن أن تؤدي إلى استقلال، أو تُحقق نهضة. في مرات عديدة اختلف
.. ع ساسة وزعماء مُحنكين حول كيفية تطويع ظروف الخصم
.. تحويله إلى صديق والاستفادة منه، وكثيرًا ما كان يُردد أنَّ مصالح
..صر ستتحقق بالطُرق السلمية.

ركب «أمين» سيارته، وابتسم ابتسامة رضا وهو يقول لسائقه:

- إلى الجمعية.

النهضة. هكذا أطلق عليها مُنذ أسسها قبل سنوات قليلة بهدف
الاستفادة من الثقافة الإنجليزية والتقدم المُتحقق في انجلترا ونقله

t.me/qurssan

إلى مصر. وقتها قرر إنشاء جمعية لخدمة هذا البلد الذي يستحق أحوالًا أفضل وينبغي انتشال بنيه من الجهل والتخلف والفقر. وكان ذلك الخاطر يدور برأسه عندما قال في خطاب سياسي قبل أيام «إنَّ مصر وإنجلترا يجب أن يتزوجا زواجًا كاثوليكيًا». لم يقصد ما ذهب إليه الفاشيون من خضوع أو خنوع، وإنما كان هدفه التأثير في المُتلقي الإنجليزي الذي يفهم معنى العبارة كرباط مصالح دائم، لا تبعية. فكَّر أن يوضح للمُنتقدين في الصُحف المصرية مغزاه من العبارة، لكنَّه عاد وتجاهل الرد على أولئك الذين يعرف جيدًا إلى أي مدى هُم متربصون به، وقال لنفسه إنَّهم سيخونونه سواء فهموا ما أراد أو لم يفهموا. قرأ جريدة «الكُتلة» المرصوصة وسط الصُحف بالسيارة واغتمَّ من تلميحات وإشارات «مكرم عبيد» ضده باعتباره جناحًا سريًا لدعم حزب الوفد. سأل دون أن ينطق: ألم تكُن تنام وتقوم في خدمة الوفد يا مكرم باشا؟ لمَ كان الوفد بيتًا للأمة عندما كُنت رجله الثاني وكيف فسد الآن؟ ثُم ما هي المُشكلة أن أعمل لصالح الوفد؟ أليس هو حزب الشارع والناس؟ وأليس ذلك أطهر وأنبل من العمل لصالح السراي؟

تذكر كيف ساقته الأقدار أن يعمل يومًا سكرتيرًا في مكتب مكرم عبيد قبل خمسة عشر عامًا مضت قبل أن يصبح بعد ذلك مفتشًا بوزارة المالية، ثُم يتوّج طموحاته بنيل مقعد وزير المالية نفسه. وفكَّر في المنشور مُقررًا كعادته اعتزاله السياسة وتفرغه للتجارة وتعليم جيل من الشباب العلوم الإنجليزية الحديثة ليقودوا مصر يومًا في دروب التقدم. كان هذا هو الدافع الذي من أجله أنشأ جمعية النهضة واختار لها مقرًا مميزًا بشارع عدلي ليجذب أصحاب الألباب الناضجة من الشباب والفتيات. «لقد تركت لكم حلبة السياسة كُلها. اشبعوا بها». قالها في سره عندما وصلت السيارة إلى مُبتغاه.

شعر الرجل بتحرره وهو يهبط من سيارته أمام بناية فخمة على

الطراز المعماري الأوروبي، مُقدرًا قرار اعتزال العمل العام والتفرغ للتجارة، الذي اتخذه بعد مناقشات مُستفيضة مع رفيقة حياته «نسرين»، تلك التي أحبته بجنون، فمنحها قلبه وحياته وأعصابه وشاركا معًا في الطموحات والآمال. لأجلها وصمه البعض بالخائن أو «زوج الست»، لكنه لم يأبه كعادته، مُعلنًا أنَّ الأسد لا ينبغي أن يلتفت لخربشة الفئران في جحورها.

عبر بُخطى ثابتة داخلًا إلى العمارة المقصودة وعلى وجهه ابتسامة سعادة صارت لصيقة بوجهه. نظر إلى المصعد وتوقَّع أن يكون معطلًا كالعادة، ثُم تذكَّر نصائح زوجته بضرورة الصعود عبر السلالم لتنشيط الدورة الدموية كُلما أمكن ذلك. سمع خطوات متسارعة خلفه، لكنَّه كعادته لم يكترث وواصل صعوده حاملًا في يمينه حقيبته السوداء، ونظر في الساعة فوجدها السادسة والنصف، لكن أذنيه أنكرت اسمه منطوقًا بصوتٍ عالٍ. مَن هذا الذي يُناديه باسمه مُجردًا من لقب باشا؟ الصوت لشاب في مُقتبل العمر، ربما أحد أعضاء الجمعية من الشباب، فكَّر، لكنَّه لام جيلًا بأكمله على الجليطة وعدم احترام الأكبر سنًا.

ـ يا أمين يا عُثمان.

للمرة الثانية سمع اسمه عاليًا، بصوت كريه، كنعيق الغربان. تُقب في السماء ينزف دمًا أسود. فكر للحظات شاعرًا بدبيب الخطر يزحف مُحاصرا. لن يكترث كالعادة، لكن الفضول دفع رأسه للالتفات، ليشهد عينين ذئبيتين تُطلقان نارًا. ثلاث رصاصات كفيلة برسم نهاية مأساوية لطالب خير اجتهد من أجل بلاده فأساءوا فهمه، ثلاث رصاصات كافية لإنهاء قصة حُب بين اثنين من بلدين شاء القدر أن يتقاتلا ويحتل أحدهما الآخر، ثلاث رصاصات تصلُح لإسعاد آلاف الخصوم والساسة وغوغاء الأرض. الأولى في الكتف اليسرى، والثانية في اليمنى، والثالثة حفرت طريقًا ضيقًا بين أمعائه.

جلس مُرغمًا، وشلال الدم يغسل سلالم العمارة، ولمح ابتسامة انتصار على وجه القاتل، الذي ببرود شديد وضع يده بالمسدس في جيبه وخرج ماشيًا بهدوء.

لم يعرف «أمين عثمان» بعد ساعات من نقله إلى مُستشفى مورو أنَّه ميت إلا بعد أن سمع نحيب «كاترين» وهي تصرخ فيمن حولها

ـ افعلوا شيئا. أتوَسل إليكم.

لا توسلات ولا شفاعة. النهاية هي دائمًا ما لا تتمناها أو تنتظرها.

***

سريعًا أتوا. كان «حسين» يتوقع قدومهم، خاصة بعد أن علم أنَّ ضحيته قضى نحبه سريعًا في مُستشفى مورو. لم يكد يجلس على مكتبه مُدخنًا سيجارة قبل النوم حتى سمع أصوات الخُطى تدب بقوة داخل المنزل، وصوت أمه تصرخ فيهم مطالبة باحترام غياب توفيق باشا عن المنزل. هل حصل الوالد الفاضل على الباشاوية؟ سأل «حسين» نفسه ولم يُجب، عندما بادره أحد الرجال ضخام الجسم مُطالبًا إياه بالثبات دون حراك. اعتدل «سعيد» من فراشه راميًا من يديه مجلة «الاثنين» ومُنتبها لقول أحد المُقتحمين:

ـ معنا أمر بضبط حسين توفيق وشقيقه سعيد توفيق.

علا صوت السيدة «سميرة»، لكن أحد الرجال قال في هدوء:

ـ هل تنتظرين خارج الغرفة حتى ينتهي التفتيش؟

انصاعت بعد أن قرأت في عيني حسين نظرة غامضة تعرفها جيدًا كان يقول لها إنَّهم على حق. أنا القاتل، الفاعل، مَن ضغط على الزناد، مَن حاكم الخائن، ومَن نفذَّ الحُكم. أنا يد العدالة أيها الخدم، قتلت عدوكم وعدو الناس، مثلما قتلت قبله عساكر

وموظفين إنجليز. تذكرت حديثها له قبل أيام عندما أخبرته بضرورة الاهتمام بدروسه لطمأنة والده الذي يلازمه قلق دائم تجاهه وتجاه مستقبله، حينها قال لها إنَّه يعرف مُستقبله، وأنَّه حريص عليه. لم تكن تتصور أن ذلك المستقبل هو توجيه السلاح نحو أي شخص حتى لو كان عدوًا.

.. وجدت هذا.

قال أحد الرجال موجهًا حديثه لشخص آخر، وهو يشير لمُسدس، فقال:

ـ نُحرّز.

استمر التفتيش نصف ساعة بينما وقف حسين في مكانه مُدخنًا سيجارة خلف أخرى وبدا وجهه أشبه بصخرة مُصمتة مُنتظرًا السير معهم إلى حيث الجحيم المُنتظر. توقع أن يرى «محمد إبراهيم إمام» رجل البوليس الذي حدثه عنه السادات، لكنه لم يكُن يعرفه. جمعوا عددًا من الرصاصات المتفرقة، ومسدسين، وجريدة الإجيبشيان جازيت، وجريدة المصري، وورقة يانصيب، وعدة ولاعات، ومفكرة بها رسوم لميادين العتبة والجيزة وباب الحديد.

اقتيد المُتهمان إلى مبنى سجن الأجانب حيث وُضعا معًا في غُرفة نصف مُظلمة وضيقة. بدا الوهن والاضطراب على وجه سعيد، لكن وجه شقيقه الأكثر تماسكًا دنا منه قليلًا وهمس:

ـ اصمت تمامًا. لا تُجب عن شيء.

ظلوا دقائق لم تطل حتى تم استدعاؤهما إلى مكتب وكيل النيابة، والذي قدَّر «حسين» عمره بأربعين عامًا، قبل أن يقرأ اسمه على لافتة خشبية صغيرة «كامل القاويش». قال في نفسه: لو قدر لي أن أقتلك سأفعل.

ـ حسين توفيق أحمد وسعيد توفيق أحمد. أنتما متهمان بقتل

t.me/qurssan

أمـين باشـا عثمـان مسـاء أمـس بشـارع عـدلي.

نطـق وكيـل النيابـة في تريُـث محـاولًا قـراءة وجهـي المتهمـين بعـد سـماع الاتهـام، لكنَّـه لـم يلحـظ أي تغـير ولا حـتى طرفـة عـين. نظـر إلى «سـعيد» الواقـف أمامـه محنيًـا رأسـه إلى الأرض، وقـال بصـوتٍ عـالٍ:

ـ أنت يا ولد متهم بجريمة عقوبتها الإعدام شنقًا. ما قولك؟

هزَّ رأسه باكيًا وقال:

ـ لم أفعل شيئًا.

وعـلى مـدى دقيقتـين تكـررت النظـرات وتكـرر الـرد نفسـه عـدة مـرات قبـل أن ينتقـل وكيـل النيابـة ناظـرًا بعيـنيْ ثعلـب نحـو حسـين قبـل أن يقـول:

ــ يـا حسـين أنـت في موقـف صعـب. لقـد شـاهدك أفنـدي حامـلًا المُسـدس وأنـت تخـرج مـن عمـارة المجـني عليـه، ثُـم هتـف: أمسـكوا القاتـل فجريـت.

ـ لم يحدُث.

قالها «حسين» بثبات غريب استفز وكيل النيابة فواصل:

ــ لـو قُلنـا إنَّ الأفنـدي كاذب، فهنـاك كونسـتابل في ميـدان الأوبـرا رآك وأنـت تجـري وخلفـك المـارة وألقيـت عليهـم قُنبلـة.

ـ لم يحدُث. يخلق من الشبه أربعين.

نفـس الثبـات، اسـتفز وكيـل النيابـة، لكنَّـه حـاول تمالـك أعصابـه ثُـم دعـا «حسـين» للجلـوس، بعـد أن طلـب من العسـكري الواقـف بغرفته أن يعيـد «سـعيد» إلى زنزانتـه، ثُـم مـدّ يديـه بسـيجارة رويـال إلى «حسـين» سـائلًا إن كان يـود التدخـين، فوافقـه.

ابتسم «كامل القاويش» قبل أن يرُد على اتصال هاتفي قال فيه:

ـ نعم إمام بك. إنَّه أمامي. هو سيساعدنا.

وعاد مُحدثًا «حسين»:

ـ نحن نعرف يا حسين مقدار وطنيتك. أنت ولد طيب وابن ناس طيبين. ونعرف أنَّ البعض استغل حماسك لدفعك لإطلاق الرصاص على أمين باشا. إنَّك لم تكن تقصد أن تقتله، لكنها إرادة الله.

ابتسم «حسين» نافثًا دُخانه بعصبية في الهواء قبل أن يقاطع الرجل قائلًا:

ـ أنا لم أقتل أمين عثمان.

حاول وكيل النيابة استرجاع ما تعلمه في مادة علم الإجرام ليُحدد على وجه الدقة قدرات الولد الصغير الجالس أمامه، وفكر صامتًا لحظات قبل أن يسأل:

ـ إذن قُل لي: ما هو رأيك في أمين عثمان؟

ـ خادم.

هزَّ وكيل النيابة رأسه مُستبشرًا وقال:

ـ عظيم. خادم وخائن.

هزَّ «حسين» رأسه موافقًا، فأكمل الآخر:

ـ ويستحق الموت؟

ـ نعم.

ـ إذن فقد قتلته؟

بثبات غريب أجاب:

ـ هو يستحق الموت وأنا أراه خائنًا، لكنَّني لم أقتله.

ثُم أضاف ببعض البرود:

ـ لا أعتقد أنَّه يمكن أن يحاكم إنسان لأنَّه تمنى قتل إنسان.

ران بعض التوتر على وجه «كامل القاويش» فعاد للسؤال:

ـ أين كُنت أمس في الساعة السادسة والنصف مساء؟

t.me/qurssan

ـ عند خالتي.

ـ ماذا كنت تفعل عند خالتك؟

ـ كُنت أجلس مع ابن خالتي محمد إبراهيم كامل.

ـ هل هو زميلك في الدراسة؟

ـ لا، طالب في مدرسة الحقوق، لكنّنا أصدقاء.

علا صوت وكيل النيابة مرة أخرى وهو يسأل:

ـ ماذا كنتما تفعلان؟

ابتسم «حسين» ابتسامة هادئة وقال:

ـ كُنا نُدخن ونتحدث.

سأل وكيل النيابة مرة أخرى:

ـ ومتى عُدت إلى المنزل؟

ـ السابعة مساءً.

هـدأت ملامـح وكيـل النيابـة وبـدا أنّـه تذكـر أمـرًا مـا، ففتـح درج المكتـب وأخـرج كيسًـا يُغلـف مُسدسـين وقـال:

ـ لماذا تحتفظ بهذين المُسدسين في مكتبك؟

قتـل حسـين سيجارته في منفضـة زجاجيـة أمـام وكيـل النيابـة، ثُـم قـال بعـد أن رمـى الرجـل بنظـرات وعيـد:

ـ نلعب بهما.

ـ كيف وصلا إليك؟

ـ قُمنا بشرائهما من أحد حرس المعسكرات الإنجليزية.

ـ مَن هو البائع؟

ـ لا أتذكره.

ثُم قال بنظرة غضب:

t.me/qurssan

مُتعب، وأريد أن أنام.

ر لحظة إطلاق الرصاص على الخائن، كان تنفيذًا مُحكمًا، فبعد
ة من بطارية «محمود الجوهري» عرف بوصول سيارة الهدف،
ل خلفه العمارة، وفي الشارع الخلفي كان يقف «محمود مراد»
جوب» و«سيد» و«عمر» مؤمنين ومعاونين. خرج واضعًا
في جيبي بنطاله، لكن أحد المارة صاح بالناس: امسكوا القاتل.
كوا المجرم، فجرى وخلفه جمع من السُذج يحاولون الفتك به،
ق عدة رصاصات في الهواء، لكنَّهم ظلوا يطاردونه حتى فاض به
ر استخدام قنبلته، فرمى بها على الأرض لتنفجر ويتفرق على
ـا المطاردون.

ر «حسين» نظرات ذات مغزى إلى «كامل القاويش» وقال له:

أنا من حقي ألا يتم استجوابي وقت النوم.

بط وكيل النيابة بيد غليظة على المكتب وهو يصيح:

هل عرفت حقك أيها القاتل؟

حتى الآن. ليس من حقك يا رجل القانون أن تصفني بالقاتل.

ز رأسه موافقًا وقال:

معك حق.

ر نادى حارسه، وقال له:

أرجع الأستاذ حسين إلى غرفته. وأردف بعد هنيهة:

الرجل يحتاج الراحة، فغدا أمامه يوم عصيب.

ر قال لكاتبه:

يُستدعى محمد إبراهيم كامل ابن خالة حسين توفيق، ويستدعى
ـق بك أحمد.

ظر إلى المُسدسين مُندهشًا كيف تمكن هذا الشاب الصغير من

الإمساك بآلة القتل! ثُم كيف واتته الجرأة أن يضغط على الزناد!

***

في الصباح استيقظ «حسين» على صوت فتح باب زنزانته، تلك الحجرة المستطيلة التي تضم ثلاثة أسرة ودلوًا صغيرًا في أحد الأركان، فوجئ بالحارس يضع صينية بها ثلاثة صحون في أحدها فول، وفي الآخر جبن أبيض، وفي الثالث عسل أسود بالطحين. فوجئ أيضا بصُحف الأهرام والمصري والسياسة. شعر بغبطة النصر وهو يلمح مانشيت الكتلة يقول «مصرع أمين باشا عثمان برصاص مجهول» وسرت الطمأنينة في جسده، وهو لا يجد الجحيم المنتظر الذي حدثه عنه أنور السادات يومًا. فكر كيف تلقى «السادات» النبأ؟ هل هو سعيد بنجاح مجموعة الشباب الذين كان يعتبرهم صغارًا بقتل الخائن؟ وابتسم وهو يوقظ شقيقه النائم، ثُم أمسك صحيفة الأهرام ليقرأ تفاصيل الخبر.

قال لنفسه إنَّ توصيل رسالة للناس بخيانة أمين عثمان هو أفضل ما في الأمر. وجد علبة سجائر بين الصُحف، فتحها وأشعل واحدة، وهو يستمتع بقراءة الحادث. علا صوته محاولًا ايقاظ شقيقه الغائص في نوم ثقيل: «.. وقد لفظ المرحوم أنفاسه الأخيرة بعد ثلاث ساعات من وصوله إلى المُستشفى، وقد زاره فور وصوله دولة الرئيس «مصطفى باشا النحاس»، ومعه «فؤاد سراج الدين»، والسيد السفير «مايلز لامبسون»، وحاول الأطباء إنقاذ حياته، لكن محاولاتهم باءت بالفشل. وصرح السيد «محمد كامل القاويش» وكيل النيابة بأنَّه تم القبض على أحد المُشتبه فيهم، وأن التحقيقات الابتدائية كشفت أن وراء الحادث منافسة على علاقة بإحدى سيدات المجتمع و...».

ولم يستطع «حسين» أن يُكمل فصرخ بأعلى صوته:

ـ لا. هذا كذب. هذا كذب. كذب.

ثم بصوت مبحوح:

ـ نساء؟ سيدة؟ افتراء. افتراء.

واستيقظ شقيقه مذعورًا ليجده يرن بقوة بصينية الإفطار على باب الحبس مناديًا:

ـ يا وكيل النيابة. يا وكيل النيابة: أنا قتلت الخائن. قتلت أمين عثمان. قتلته لأنَّه تحالف مع الإنجليز.

ثم صاح في الحارس البادي من قُضبان الحجرة قائلًا:

ـ افتح لي. أريد النائب العام. أنا قاتل الخائن.

كرر الصراخ بصوتٍ عال، حتى فُتحت الزنزانة وأطل منها وجهان لرجلين أحدهما لوكيل النيابة، بينما كان الآخر هادئا وصارمًا ومُطابقًا لوصف «أنور السادات» عن اليوزباشي «إبراهيم إمام». كان يبدو بارد الملامح وهو يُحدّق بعين متفرسة في وجه حسين الذي شعر أنَّه أمام ثعلب البوليس السياسي الذي طالما سمع عنه.

فكر «حسين» قليلا قبل أن يسأل:

ـ هل أنت اليوزباشي إبراهيم إمام؟

هزَّ الرجل رأسه وعلى وجهه ابتسامة هادئة، قبل أن يقول «كامل القاويش»:

ـ نعم. حضرة القائمقام محمد إبراهيم إمام. واضح أنكما تعرفان بعضكما.

هزَّ الضابط رأسه نافيًا وقال بهدوء:

ـ لم أتشرَّف من قبل.

ثم ألقى نظرة على «سعيد» الواقف خلف «حسين» وقال:

ـ أهلا وسهلا يا حسين. سأترككما لتتحدثا.

t.me/qurssan

سار «حسين» إلى جوار وكيل النيابة عابرا ممرا يُفضي إلى مكتبه، جلسا هادئين قبل أن يقول «كامل القاويش»:

ـ ها. احك لي يا حسين ماذا جرى.

هزَّ «حسين» رأسه مُطيعًا، وقبل سيجارة من محدّثه قبل أن يسترسل في سرد كُل شيء عن جماعته الوطنية. بدأ منذ حادث إحراق سيارات المعسكر الإنجليزي، ثُم ضرب العساكر واحدًا بعد الآخر ووصولًا إلى الاعتداء على «مصطفى باشا النحاس». كانت عينا المتهم تفيضان ألقًا وفخرًا وهو يتحدث عن فلسفة المقاومة، وردع الخونة، قبل أن يسأل وكيل النيابة في حدة، إن كان لا يرى أنَّ الإنجليز أعداء، فابتسم الرجل وقال إنَّه غير معني بالإجابة لأنه وكيل نيابة، وهو وحده الذي عليه توجيه الأسئلة. كان من الواضح أنَّ القاويش أوقع به بعد أن صرح للصحف بأنَّ النساء هُن سبب الحادث، لذا فقد اندفع «حسين» كاشفًا كُل شيء بحدة وافتخار. تحدث عن المشاركين معه في اغتيال أمين عثمان، وغيرهم المشتركين في محاولة قتل النحاس، ثُم باقي أفراد الجماعة، مُكررًا أن الغرض هو تحقيق استقلال مصر ومطاردة الخونة. فتح «كامل القاويش» نوافذ الاسترسال أمام «حسين» بسعادة، ثُم سأله في النهاية عن سبب وصمه لـ«أمين باشا عثمان» بالخيانة، فأجاب:

ـ كُل الناس تعرف خيانته.

ابتسم بمكر وسأل:

ـ هل واجهته؟ هل منحته حق الدفاع عن نفسه؟

ردَّ «حسين» بحدة:

ـ لقد سمعت دفاعه بنفسي في رابطة النهضة.هو خائن لبلده وعقوبة الخيانة هي الموت.

نظر وكيل النيابة بتركيز إلى وجه المتهم وسأل:

t.me/qurssan

ـ ماذا يعمل والدك؟

ـ وكيل وزارة المواصلات.

هزَّ رأسه وسأل:

ـ هل لو اكتشفت خيانته ستقتله؟

ران صمت على شفتي «حسين»، لكن سرعان ما قال:

ـ نعم، بكل تأكيد.

ـ إذن لمَ لم تقتله؟ وهو في منصب وكيل وزارة المواصلات يضع جميع خدمات البلاد تحت تصرف الإنجليز.

لم ينطق، وفكر أنَّ الأمر مختلف، لكنَّه تذكر كم يحتقر والده. لقد كان يحب توفيق الآخر، السابق، الوطني، المُتقد غيرة على بلاده، والذي شارك في خلية اغتيال بطرس غالي قبل أكثر من ثلاثة عقود.

أنهى «حسين» اعترافاته ثُم خرج من الحجرة ليصطحبه الحارس إلى حجرة أخرى وجد فيها القائمقام إبراهيم إمام الذي بدت ملامحه أكثر صرامة، فجلس، لكنَّ صوتًا زاعقًا أمره بالنهوض مرة أخرى قائلًا:

ـ قُم. لم أسمح لك بالجلوس.

اهتزَّت أوصاله قليلًا، لكنَّه سرعان ما سيطر على أعصابه، حتى قال له الضابط:

ـ لقد أخبرني سعيد أنَّك تعرف الحاج محمد.

ـ سعيد؟ متى؟

ـ لقد حققت معه وأنت عند وكيل النيابة.

هزَّ رأسه مُستسلمًا:

ـ نعم أعرفه. محمد أنور السادات. إنه يُحبك ويحترمك.

t.me/qurssan

ـ عظيم. أريد أن أرُد له هداياه إلي، وهذا لن يحدث إلا بعد أن تُخبرني كيف أجده.

وأشار بيده إلى الكُرسي وقال:

ـ اجلس أستاذ حسين. تفضل.

جلس بهدوء وقال له:

ـ سأخبرك بكُل شيء.

***

اعتاد القائمقام «محمد إبراهيم إمام» بحث القضايا وقت الشروق، مُستبشرًا كعادته بساعات البكور التي علمه والده أنها الأكثر نفعًا وبركة. جلس في مكتبه وبين أصابعه قلم منتمور أهدته له زوجته قبل أيام يُشخبط ويرسم على ورق أبيض، مُفكرًا في تفاصيل أكبر قضية يُحقق بها مُنذ التحق بالبوليس السياسي. كان أمامه خيوط عديدة تؤكد أنَّ هُناك جُناة خارج الحبس فكروا وخططوا وأمروا، وأنَّ الصبيان الذين وقعوا ليسوا سوى شباب ساذج يُساق دون دراية.

لقد اعترف «حسين توفيق» على زملائه «محمود يحيى مراد»، و«محمد إبراهيم كامل»، و«عمر أبو يعلى»، و«محجوب »، و«سيد»، و«الشافعي»، و«محمود الجوهري» وشقيقه «سعيد»، وابنيْ خالته «نجيب» و«مدحت»، لكن يبدو أنَّ هُناك تنظيمات أخرى موازية في الخارج تعمل لدعمهم وإفساد القضية، وإلا كيف يمكن تفسير سلسلة الحوادث الغريبة التي جرت على مدى عدة شهور بعد القبض على جماعة حسين توفيق؟ هكذا تساءل مُتذكرًا كيف أعقب القبض على «أنور السادات» تعرُّض «عبدالعزيز أفندي» الشاهد الرئيس في القضية الذي رأى «حسين توفيق» أمام مسرح

t.me/qurssan

الجريمـة للتهديـد ثُـم لإطـلاق الرصـاص عليـه، ثُـم تعرضـت أوراق القضيـة نفسـها للسرقـة مـن جانـب شـاب غامـض كان يسـير وراء حاجـب المحكمـة ثُـم اختطـف منـه كل مـا يحملـه مـن أوراق. كمـا تعـرض شـاهد آخـر في القضيـة هـو كونسـتابل ميـدان العتبـة لإطـلاق رصـاص عليـه مـن مجهولـين ممـا دفعـه للعـدول عـن شـهادته مُدعيًـا أنَّـه لا يسـتطيع التيقـن مـن الجـاني.

طقطـق «إبراهيـم إمـام» أصابعـه وهـو يسـتعيد مشـهد «توفيـق ...» في أول اسـتدعاء لـه وهـو مُستسـلم لفكـرة قيـام ابنـه بقتـل أمـين عثمـان، والقـول بـأنَّ ابنـه مُصـاب بمـرض بشـبكية العـين يؤثـر عـلى قـواه العقليـة، ثُـم تراجعـه في سـاحة المحكمـة عـن أقوالـه، ورد الاتهـام بـأنَّ ابنـه تعـرض لضغـوط شـديدة مـن البوليـس السـياسي للاعـتراف بمـا لـم يرتكـب.

رسـم وجهًـا عريضًـا مسـحوبًا لأسـفل وحولـه وجـوه صغـيرة مُبتسـمة مُندهشًـا كيـف تلاعـب هـؤلاء الصبيـة بالقضيـة فعـاد «حسـين توفيـق» ليُنكـر كُل مـا اعـترف بـه، ثُـم عـاد ليقـول أنَّـه لا يعـرف أنـور السـادات وأن البوليـس السـياسي طلـب منـه الاعـتراف عليـه. لقـد نجـح الشـبان الصغـار في مـد آجـال القضيـة لأكـثر مـن عـام بعـد تطـوع عـشرات المحامـين الكُبـار واسـتدعاء وزراء وساسـة وزعمـاء وضبـاط بوليـس وأطبـاء نفسـيين. تذكـر الضابـط ذا العقـل المُتقـد والمُحـب للقـراءة والثقافـة. مقـالات لصحفيـين كثيريـن انتهـت إلى أنَّ محاكمـة «حسـين توفيـق» وزملائـه تحولـت لمحاكمـة لأمـين عثمـان، فأصبـح أكـبر آمـال أنصـاره هـو أن يحصلـوا لـه عـلى الـبراءة مـن تهمـة الخيانـة.

قـال «إبراهيـم إمـام» لنفسـه وقلمـه المنتمـور يواصـل الشـخبطة عـلى الـورق إنَّ هُنـاك ثعلبًـا وداهيـة كبـيرا يُمثـل وسـيط جميـع التنظيمـات الإرهابيـة في مـصر هـو «أنـور السـادات»، الـذي لا يخلـو تنظيـم يسـاري أو فـاشي أو ديـني مـن وجـوده ولا يغيـب عمـل إرهـابي عـن علمـه. إنَّـه

شخص موهوب في الإقناع، ومُخضرم في العمل السري، يعرف ما يريد، ويحقق ما يُخطط له، بأيدي غيره بينما تظل يداه دائمًا مغسولة من الدماء. مُنذ صار «السادات» غريمه وهو يعي أنَّ هذا الرجل نافذ ولديه شبكات لا حصر لها من الإرهابيين والقتلة والمنتشين بحلم الثورة. سأل نفسه: لحساب مَن يعمل السادات أو الحاج محمد كما يحلو للبعض تسميته؟ لثوار حقيقيين؟ للألمان؟ للإخوان؟ أم للسراي نفسها؟ أو ربما للإنجليز؟ لكن كيف؟

تذكر كيف بدأت متاعبه مع القضية مُنذ الأسبوع الأول عندما نادى المتهمون المحتجزون في الغرفة رقم 10 بسجن الأجانب على الحارس وهم يصرخون مُطالبين بسجائر، وعندما فتح الباب فوجئ بضربه بُقلة مياه شج رأسه على إثرها، ثُم استولوا على سلاحه، قبل أن يسمع هو الجلبة خلال مروره ويطلق رصاصًا في الهواء لإخافتهم ثُم يأخذ منهم المسدس المختطف. فكَّر كيف يدفعه الله دائمًا نحو الخطر فيُفلته ويكتب له السلامة بعد أن يرى شبح الموت مارًّا أمامه. وعادت به ذاكرته إلى سنوات مضت كان فيها محل تقدير وامتنان قياداته لجرأته وخوضه للمخاطر دون تردد حتى أنَّه تلقى رصاصة في الصدر يومًا ما عندما نجح في إنقاذ المطربة أسمهان من القتل على يد زوجها.

قبل أيام قالت له زوجته إنَّها تشعر بالقلق عليه خوفًا من تعرضه لاعتداء خاصة بعد أن أبلغها بنظرات الوعيد التي رماه بها «السادات» خلال شهادته في المحكمة وتعليقه على الشهادة بأن هذا الكلام لا يقوله إلا إنجليزي. قالت له إنَّها تُقدر وطنيته وإخلاصه لعمله لكنها تعلم أنَّ مُدعي الوطنية عميان، فأجاب بأنَّه اعتاد السير في الظلام في حقول الألغام.

واصل الشخبطة على الورق وهو يُقرر أنَّه لا يعرف مع مَن يلعب هذه المرة؟ إنَّ القضية تبدو بسيطة بوجود أكثر من 50 متهمًا

معظمهـم طـلاب في المـدارس والجامعـة ويقودهـم شـاب أهـوج نرجسي مفتـون بنفسـه، لكنهـا في حقيقـة الأمـر معقـدة للغايـة، خاصـة عندمـا يتعـرض شـهود القضيـة للإرهـاب وتتحـول الصُحـف لنـشرات تعظيـم ومديـح للجنـاة، ويطـول أمـد القضيـة ويصبـح هـو وبـاقي أفـراد البوليـس السياسي مُتهمـين في حاجـة لدفـاع أمـام الـرأى العـام. لقـد كان مُدهشًا أن تتقـدم إحـدى الفتيـات بطلـب زيـارة للمتهمـين عارضـة الـزواج عـلى واحـد منهـم هـو «محمـد إبراهيـم كامـل» باعتبـاره فـتى أحلامهـا.

وتذكـر الضابـط صـولات جيـش المُحامـين المُحتشـد للدفـاع عـن المُتهمـين ونجاحهـم في الإفـراج عـن عـدد مـن المتهمـين بعـد تراجـع «حسـين توفيـق» عـن أقوالـه فخـرج في المـرة الأولى «جـول أسـود» و«محمـد إبراهيـم كامـل» و«عزيـز ديـاب»، ثُـم في المـرة الثانيـة تـم الإفـراج عـن «محمـد خليفـة» و«أحمـد خـيري» و«عبـاس المرشـدي» و«محمـد الشـافعي». وفكـر أنَّ الأيـام القادمـة مـن المُحاكمـة سـتكون صعبـة ومريـرة.

***

ابتسـم صاحـب الوجـه الأسـمر ابتسـامة انتصـار وهـو يُصافـح بعينـين صافيتـين عيـون شـباب أسـن يرونـه أسـتاذًا ومُلهمًـا. كانـوا يُنادونـه بحـضرة اليوزبـاشي، لكنـه كـرر لهـم مـرارًا أنَّـه صـار خـارج الجيـش وبـأنَّ اسـمه مُنـذ عـدة سـنوات صـار «الحـاج محمـد». كان المُتهمـون في قضيـة «اغتيـال أمـين عُثمـان» عائديـن إلى السـجن بعـد زيـارة اعتادوهـا للمحكمة لحضـور إحـدى الجلسـات عندمـا حـكى لهـم «الحـاج محمـد» عـن روعـة السـجن ومُتعـة القُضبـان، كان يسـتثير حماسـهم وخيالهـم وهـو يكـرر لهـم أنَّ مُعظـم الأبطـال والزعمـاء التاريخيـين دخلـوا السـجون، وعاشـوا سـنوات محرومـين مـن الحريـة. ذكـر لهـم ضرورة توزيـع جميـع المأكـولات

والحلويات التي تأتي لهم من ذويهم على جميع المتهمين، وكذا السجائر.

وطلب منهم الرجل تكوين فريق تمثيل لأنَّ أمد المحاكمات ستطول، وبالفعل اقترح عليهم تمثيل مسرحية عن الخليفة هارون الرشيد كتبها خلال أيام الحبس الأولى، وقام بتوزيع الأدوار ليحتفظ لنفسه بدور هارون، ثُم اختار دور السياف لـ«حسين توفيق»، ودور كبير الحجاب لـ«سعيد توفيق»، ودور اسحق الموصلي لـ«عمر أبو يعلى»، ودور رئيس وفد الإفرنج لـ«محمود يحيى مُراد»، ودور قهرمانة لـ«سيد خميس». تبدأ المسرحية بقيام هارون الرشيد بدعوة الجارية قهرمانة للغناء فتشدو بأغاني تمجيد في قوة وعدل الخليفة ليطرب الحاضرون، ويطلب هارون اعادة الغناء مرة واثنتين وثلاثا، ويقاطعه كبير الحجاب مستئذنا في دخول وفد الإفرنج، ليدخل رئيس الوفد ومعه هداياه طالبًا من الخليفة التعاون مع بلاده فينفعل مسرور السياف، ويقول للخليفة إنَّ الإجانب لا يحفظون العهود ولا يحترمون الحدود، ويطلب أن يسمح له الخليفة بقطع رأس رئيس وفد الإفرنج، فيُهدئ الخليفة من غضب سيَّافه ويؤكد له أنَّه لا يسمح بقطع رأس رسول، ثُم يأمر رئيس الوفد بالمغادرة فينطلق متبوعًا بشتائم ولعنات حاشية الخليفة، لتعود قهرمانة للغناء مرة أخرى.

بعد بدء المحاكمات صار السجن أشبه باستراحة مُنعزلة فيها جميع وسائل الراحة والترفيه، فكان المتهمون يقضون الساعات في تبادل النكات وسرد حكايات الغرام ولعب الشطرنج، وكان «الحاج محمد» بشوشًا ومُقبلًا على الحياة، مُستمتعًا بها، وهو ما دفع «حسين» إلى محاولة تقليده مُبديًا كثيرًا من المرح المُصطنع. وفي يوم طلب «الحاج محمد» حلويات من أحد أكبر المحلات ودفع حسابها، وأخبرهم أنَّ تلك الحلويات للاحتفال بنقل السفير لامبسون من مصر، مُكررًا أنَّ هذا الرجل كان أسوأ ممثل إنجليزي منذ بدء

الاحتـلال.

بـدأ «السـادات» كشـخصية سـاحرة قـادرة عـلى طمأنـة الجميـع بـأنَّ رجالـه في كُل مـكان سيفسـدون كُل شيء خـاص بالقضيـة، وسـيخرج جميـع المتهمـين دون عقوبـات تذكـر نظـرًا لحداثـة أعمارهـم. ومـع الوقـت تجـاوب المتهمـون مـن أعضـاء التنظيـم مـع مـرح ولامبـالاة السـادات، غير أنَّ «نجيـب فخـري» الـذي رأى أنَّـه دُفـع بـه دفعًـا ضمـن المُتهمـين كان يشـعر بالنـدم لأنـه لـم ينخلـع تمامًـا عـن «حسـين» وأصحابـه عندمـا تورطـوا في أعمـال القتـل، وظـل عـلى علـم بمـا يفعلـون ومشـاركًا في التخطيـط دون التنفيـذ.

وذات يــوم فوجـئ المتهمـون برؤيـة شـاويش ضخـم الجُثـة، قـاسي الملامـح، وحـاد النظـرات في حــوش التريُـض، ودنـا منهـم سـائلًا إن كانـوا هُـم المُتهمـين بقتـل أمـين باشـا عثمـان فهـز «محمـود مـراد» رأسـه بالإيجـاب، ففوجـئ بـه يُخـبره أنَّـه عشـماوي. ولمـا التـف حولـه بـاقي الجماعـة قـال لهـم إنَّـه ينتظـر الحُكـم عليهـم بفـارغ الصـبر لأنَّـه مـرَّ عليـه وقـت طويـل لـم يُنفَّـذ فيـه حُكـم إعـدام، ثُـم بـدأ يصـف لهـم كيفيـة تنفيـذ الإعـدام واصفًـا لهـم سُـمك الحبـل وطريقـة لفـه حـول الرقبـة، ولحظـة رفـع مقبـض طبليـة الإعـدام، وشـهقة المُذنـب وهـو يلفـظ روحـه، بعـد أن تنكسر رقبتـه نتيجـة الشـنق. وحـكى لهـم كيـف كان مُسـاعدًا لعشـماوي وقـت إعـدام شـفيق منصـور في قضيـة الاغتيـالات قبـل أكـثر مـن عشريـن عامًـا وتابـع بـكاء المُذنـب عنـد تغطيـة عينيـه بكيـس أسـود.

كان لوقـع الكلمـات في نفـوس الشـباب الصغـير أثرهـا الموجـع إذ بـدأوا لأول وهلـة يتخيلـون أنَّـه مـن الـوارد الحكـم عليهـم بالإعـدام، ولـم يستطع «حسـين» رغـم دعابـات «السـادات» أن يمحـو مـن رأسـه مشـهد المشـنقة وبذلـة الإعـدام الحمـراء وهـي تلتصـق بجلـده. كان يـرى أنَّـه لـم يُحقـق بعـد مـا تصبـو إليـه نفسـه مـن إشـعال الثـورة وقيـادة البـلاد

وتحقيق العدل والمساواة على الأرض الطيبة التي أحبها رغمًا عنه. فكَّر كثيرًا في أمه الملهوفة عليه دائمًا والمُنصاعة لمطالبه والمُبررة لأفعاله أمام والده، وشعر كم هي تُحبه، لكنَّه لا يُبادلها ذات الشعور رُبما لجذورها التُركية أو تكبُرها على الخدم والبسطاء. راجعت ذاكرته مشاهد والده وهو يؤنبه مرارًا على إهماله لدروسه، مُستقرئًا بين عينيه نظرات حنان مكتوم، ومُقنعًا نفسه بأنَّ الأب مهما كان حُبه لأبنائه يجب أن يبدو قاسيًا حتى تستقيم له القيادة، وهو نفس حال الزعيم الذي لابد أن يحمل قدرًا من الحدة حتى يتسنى له تنفيذ أفكاره. تذكر «حسين» وجه «سناء» شقيقة صديقه وزميله في الكفاح «محمود مراد» وتساءل إن كان سيراها مرة أخرى أم لا؟ وهل هي مُعجبة ببطولته؟ هل تشتاق لرؤيته كما يفعل؟ قال إنَّ الحُب كثيرًا ما يختنق في بلاد القهر وأزمنة الكفاح، لكنه لا يُمكن أن ينخلع تمامًا عن النفس الإنسانية لأن الله خلق لكل إنسان قلبًا، وزرع في كل بني البشر مشاعر وأحاسيس. كان يعلم أنَّ علاقته بـ«ميمي» لم تكُن علاقة حُب لكنه كان يشعر بنوع من الألفة معها، وبحالة من الاعتياد والرضا تجاهها. ترى هل هي سعيدة الآن وهي مُستلقية تحت ضابط في البوليس السياسي تئن وتتأوه تلذُذًا؟ هل تسُرها قُبلاته وهل تذوب بين ذراعيه مثلما كانت معه؟

مرَّت الأيام بطيئة، مُملة، بين جلسة وأخرى نقاشات حادة ومفاجآت عدة. توفي وكيل النيابة المسئول عن القضية فجأة، فتم انتداب غيره ليحلَّ محلَّه، في الوقت الذي تتابعت فيه أحداث فلسطين بسرعة بعد إعلان اليهود قيام دولة إسرائيل واعتراف الرئيس الأمريكي ترومان بالدولة الجديدة. كانت الصحف تنشر أنباء المذابح المرتكبة من جانب عصابات اليهود ضد السُكان العرب العُزل، داعية لنصرة الشعب الشقيق والتطوع لقتال اليهود، بينما اجتمعت الحكومات العربية لتنسيق التعاون والتدخل بجيوشها في فلسطين. قرأ «حسين» لزملائه مقالًا لكاتب بروزاليوسف يدعو الناس للتطوع في فلسطين،

وعلّق «السادات» بأنَّ مَن فشل في طرد المُحتلين عن بلاده لا يُمكن أن يطرد اليهود عن فلسطين. شعر «حسين» أنَّ السجن يحجزه عن المشاركة في قتال اليهود الأوغاد مُقتنعًا أن كُل ما تفعله الحكومات العربية وحكومة بلاده من بينهم مُجرد تمثيل في تمثيل مثلما هو كائن في مسرحية هارون الرشيد، وقرر أن بقاءه في السجن سينتهي به إلى الموت حتى لو لم يُحكم عليه بالإعدام، لأنَّ حرمانه من ممارسة دوره الذي اختاره لنفسه في الحياة يمثل حُكما بنهايته كبطل ومناضل. هكذا فكّر قبل أن يخلُد للنوم في العنبر رقم 10 في سجن الأجانب.

***

عاد «توفيق بك» إلى منزله بعد سلسلة إجراءات خاضها هو وعدد من المحامين للسماح لابنه المحبوس في قضية اغتيال «أمين عثمان» بالتردد على عيادة طبيب الأذن والحنجرة بناء على شكوى تقدم بها. أخبر زوجته أن «حسين» سيكون بين ذراعيها خلال ساعات، ثم سيترك مصر نهائيا بعد ذلك للإفلات من موتٍ محتوم. سرت دماء السعادة في شرايين السيدة «سميرة»، وشعرت باسترداد الحياة بعد شهور من الحسرة والقلق على مصير بكريها المشوش نفسيًا. استفسرت منه عما جرى فأخبرها أنَّ ضابطًا من البوليس السياسي زاره قبل أيام ونقل له تقدير السراي لوطنية نجله وتشكيل مجموعة عمل لإنقاذ حياته وتهريبه خارج البلاد. في البداية لم يُصدق «توفيق بك» حتى أقسم له الضابط أنَّ ما يقوله حق، وأنَّه يفعل ذلك دون علم رؤسائه في العمل، وبتوصية خاصة من جلالة الملك شخصيًا. كان «توفيق بك» قد سعى لدى عدد من الأطباء النفسيين لاستخراج شهادات تفيد عدم مسئولية ابنه «حسين» عن أفعاله بعد أن أكد

t.me/qurssan

لـه المحامـي الكبـير الـذي لجـأ إليـه صعوبـة إفـلات ابنـه مـن حُكـم الإعـدام خاصـة أنـه شـبه متلبـس.

سـألته السيدة «سميرة» كيـف سيهرب ابنهـا، فأشـار إلى الحمـام قائلًا إنَّـه أمـر بخلـع حديـد نافذتـه ليعبُر الهـارب إلى الفنـاء الخلفـي للحديقـة وهُنـاك سـينتظره ضابـط البوليـس السـياسي بسـيارته ليأخـذه إلى مقـر آمـن لحـين ترتيـب سـفره خـارج القطـر. بـدت مُبتهجـة، مُعلنـة أنَّ اللـه اسـتجاب لدعواتهـا لإنقـاذ ابنهـا الحبيـب، مُكـررة أنَّهـا عـلى يقـين بأنـه سـيتعلم مـن تجربتـه وسـيُصبح ابنًـا يبعـث عـلى الفخـر.

مـرَّت ثـلاث سـاعات كالدهـر، وصـل بعدهـا «حسـين» بصُحبـة ضابـط وعسـكري بعـد أن ذهـب معـه إلى عيـادة طبيـب الأنـف والحنجـرة، ثُـم ترجـاه أن يتنـاول غـداءه في البيـت، بينمـا غـادر «توفيـق بـك» حـتى لا يبـدو مُتهمًـا بالتخطيـط لتهريـب ابنـه. بـدا الضابـط كمـال الديـن عـلي مُغتبطًـا وهـو يُشـاهد فرحـة السـيدة سـميرة برؤيـة ابنهـا واحتضانـه بـين ذراعيهـا، وتذكـر التوصيـة الـتي تلقاهـا مـن رئيسـه المُبـاشر بعـدم التضييـق عـلى «حسـين» خـلال اصطحابـه لزيـارة الطبيـب، لـذا فقـد اسـتجاب لرجائـه بالمـرور عـلى والدتـه المريضـة قبـل العـودة للسـجن. شـعر بالامتنـان لإلحـاح والـدة حسـين لتنـاول الغـداء معهمـا، واعتـذر مؤكـدا ضرورة العـودة قبـل الخامسـة مسـاء التزامًـا بالتعليمـات، ثُـم قبـل أخـيرًا أن يتنـاول فنجانـا مـن القهـوة المضبـوط قالـت السـيدة إنَّهـا ستعدُّه بنفسـها. نظـر الضابـط إلى «حسـين» فوجـده مُسـتكينًا كالعـادة، ينظـر لأسـفل، فتسـاءل إن كان نادمًـا عـلى مـا فعـل أم إنـه كمـا يـُردد دائمًـا بـريء وقـع ضحيـة عمليـة تلفيـق مُنظمـة قـام بهـا إبراهيـم إمـام. قـال لنفسـه إنَّ «إبراهيـم إمـام» رجـل بوليـس قـوي وثعلـب ماكـر لكنَّـه شريـف بالدرجـة الـتي تمنعـه مـن تلفيـق اتهـام كهـذا لـبريء. لحظـات ورأى فنجـان القهـوة يتقـدم بـين يـدي السـيدة «سـميرة»، ذات الوجـه البشـوش الـذي لا يتناسـب أبـدًا مـع الظـروف المُحيطـة بابنهـا. خمّـن

t.me/qurssan

أنّ سعادتها برؤية ابنها منحت وجهها البشر والحيوية فبدت كزهرة بنفسج جميلة. رمقه «حسين» بنظرة استعطاف قبل أن يسأله في أدب جمّ:

ـ هل تسمح لي بدخول الحمام؟

رمى باب الحمام المواجه له بنظرة فاحصة سريعة قبل أن يُجيب:

ـ تفضّل. لكن لا تتأخر سنغادر خلال ثلاث دقائق.

ـ كافية.

نطق «حسين» وهو يعي أنها كافية لتنفيذ ما أنبأه به والده عبر رسول يعمل في السجن. ذهب إلى الحمام وأوصده خلفه وبسرعة تدلّى من نافذته ليمر إلى الفناء الخلفي بعيدًا عن العسكري المُصاحب للضابط المنتظر في السيارة أمام باب البيت. قفز من السور بسرعة ليجد أمامه سيارة سوداء كاديلاك ففتح بابها لتنطلق بعيدًا مانحًا السائق نظرة استفسار.

شعرت السيدة «سميرة» بضيق الضابط الذي نادى بصوتٍ عالٍ:

ـ تأخرنا يا حسين.

قامت بسرعة لتجلب للضابط ألبوم صور لابنها عندما كان صغيرًا وهي تقول:

ـ سأعرض لك صورًا عجيبة لحسين وهو طفل صغير، وستعلم يقينًا أنّه لا يُمكن أبدًا أن يقتل فرخة.

ابتسم في دبلوماسية، وحاول التملص، لكنّه انصاع تحت إلحاحها مُستغربًا كيف لسيدة في مثل ظروفها أن تتحلّى بكل هذه الصلابة والقوة. جاراها في تأمل الصور للطفل اللاهي بكرة، والجالس وسط أقرانه في احتفال أشبه بعيد ميلاد، والمُرتدي لبذلة وطربوش لا تناسبان مَن هو في العاشرة من عُمره، وتابعها مُبتسمة وهي تُقلّب

t.me/qurssan

صفحات الألبوم أمامه واحدة وراء واحدة. تأخر «حسين»، فاستثقل الضابط الوقت، وقال لسيدة البيت:

ـ أنا آسف يا هانم. يجب أن نتحرك الآن.

ثُم نادى بصوتٍ عال:

ـ حسين. تأخرنا يا حسين.

كرَّر النداء، فأشارت السيدة «سميرة» لصورة أخرى، لكنه سمع دبيب القلق في نبضات قلبه، فقام مُسرعًا ليطرق باب الحمام دون مُجيب، فضربه بقدمه بقوة لينفتح على خواء. نظر إلى النافذة المفتوحة، ثُم قرأ في عيني السيدة نظرة طمأنينة وانتصار فصرخ بصوتٍ عالٍ:

ـ هرب. خدعتموني.

وأخرج مُسدسه وجرى في أنحاء البيت مفتشًا يمينًا ويسارًا، ودخل الغرف لينظُر تحت الأسرَّة ويفتح دواليب الملابس ثُم خرج إلى الحديقة وجابها، وصرخ في العسكري الواقف أمام الباب إن كان قد رأى «حسين»، فنفى، فعاد إلى البيت وقال لصاحبته:

ـ سأطلق الرصاص على رأسي إن لم تُخبريني الآن مكان حسين.

ـ اهدأ.

قالتها في برود، لكنَّه واصل الصراخ مهددًا بالانتحار، مما دفعها أن تُدير قُرص التليفون سريعًا طالبة من زوجها الحضور بسرعة.

في الوقت نفسه كان «حسين» قد هبط أمام إحدى البنايات في شارع قصر العيني، عندما قال له السائق:

ـ في هذا البيت ستصعد إلى الطابق الثالث، ستجد الباب مفتوحًا، ادخل دون كلام وانتظر التعليمات.

ضربه رصاص الدهشة، وكرر سؤالًا طرحه مرارًا خلال الطريق من مصر الجديدة إلى قصر العيني دون مجيب:

t.me/qurssan

ـ مَن أنت؟

ابتسم الواقف أمامه، وقال في ثبات:

ــ سأقول لك الآن. أنا اليوزباشي محمود موسى من البوليس السياسي، لقد قُمنا بتهريبك تنفيذًا لتعليمات جلالة الملك. إنَّه يُقدِّر وطنيتك، ويُقدر أنَّك خلصت مصر من أحد الخونة. اصعد الآن، ستجد كُل شيء على ما يرام.

لم يُصدق، وجرَّ ساقيه ثلاثة طوابق نصف مُظلمة ليدخل إلى شقة واسعة مؤثثة أثاثًا كلاسيكيًا فريدًا. شاهد بيانو خشبيًا كبيرًا، وتماثيل نُحاسية بديعة، وبارًا خشبيًا، تمتد عليه عدة مقاعد مستديرة، وصالونًا ذهبيًا ضخمًا. جلس مُستغربًا، فوجد شابًا أبيض البشرة، متوسط القامة له عينان عسليتان، صافحه في اهتمام وقال له:

ـ إحسان.

ـ أهلًا.

ــ هذه غرفتك. أرجوك لا تخرج منها أبدًا، في الصباح سيأتي الخادم، وهو يعلم أنَّ هذا الغرفة مغلقة على متعلقات والدي ولا يفتحها. لكن لا تُحدث صوتًا. سأمرّ عليك كُل مرة في الصباح ومرة في المساء. وسأجلب لك كُل ما تحتاج.

سحب يدُه الدافئة وأشار إلى الغرفة قائلًا:

ـ ارتاح الآن. وأغلق الباب من الداخل.

ابتسم وشعر بحاجة ماسة للتدخين، ونظر إلى صاحب البيت وسأل:

ـ هل لديك سجائر؟

ـ لا. لكنَّك ستجد سجائرك على السرير داخل الغرفة.

t.me/qurssan

الفصل الثاني
دمشق

t.me/qurssan

هتفت غير مُصدقة:

ـ حسين.

واقفًا بملابس ضابط سوداء أمام باب الشقة المُنفتح، لاهثًا من صعوده سريعًا على السلالم، زائغًا بعينين قلقتين تخوفًا من صاعد أو هابط. هكذا رأته سناء بعد أن توقعت ألف طارق وطارق لباب شقتها سواه.

ـ هل أدخل؟

سألها، فأسرعت لتفتح الباب وهي تهتف:

ـ تفضّل.

دلف بخطوات مُتعبة مُتذكرًا نصيحة صديقه «سعد كامل» الذي التقاه مُتخفيًا ألا يجلس في مكان أكثر من نصف ساعة على الأكثر، خاصة أنَّ عيون «إبراهيم إمام» تبحث عنه في كل شبر يتوقع مروره به. منحها نظرات إعجاب طاغية مُتمنيا اعتصار جسدها النحيل بين ذراعيه. قالت له:

ـ قرأت خبر هروبك، وتوقعت أن تذهب إلى أي مكان إلا أن تأتي هُنا؟

جلس مُتفرسًا في وجهها الأرق لاثمًا بخياله تلك الشفتين الرقيقتين، متذكرًا أنف زميله «محمود مراد» المُشابهة لهذه الأنف، ثُم سألها:

ـ لِمَ؟

قالت:

ـ لأنك لم تزرنا من قبل، خاصة بعد أن انقطع والدك عن السؤال عنا بعد وفاة ماما.

ابتسم وهو يرمقها، ثُم قال:

t.me/qurssan

ـ كُنت مُخطئًا.

ـ والدتك كانت دائمًا لا تحب زيارة خالي توفيق لنا.

واصل التحديق في عينيها وقال:

ـ هي مُخطئة. دائمًا مُخطئة. المهم يا سناء الخطأ يمكن تصحيحه، وهذا هو دورنا. أن نصحح أخطاء آبائنا.

هزّت رأسها مبدية التفهم، ثُم قالت:

ـ لكن لا يُمكن تصحيح خطأ بأخطاء أكبر.

ـ لا أفهم.

وقفت وسألته:

ـ ماذا تشرب أولًا؟

ـ لا وقت يسمح بشراب. أمامي خمس وعشرون دقيقة، بعدها ستكون السيارة مُنتظرة للمغادرة.

ـ إلى أين يا حسين؟

ـ خارج مصر. لكن لا عليك لقد جئت لأمر آخر. قُولي لي أولًا ماذا تقصدين؟

جلست مرة أخرى، وقالت بهدوء:

ـ أنا لا أجد وصفًا لما فعلتموه أنت ومحمود ومَن معكم سوى الجريمة. لقد قتلتم روحًا.

ـ قتلنا خائنًا. خان بلده وناسه و...

ـ ليس من حقكم. القتل لا يعني سوى القتل. لقد تألمت عندما رأيت صورة عائشة ابنة أمين عثمان في الصُحف وهي تبكي والدها.

أخرج سيجارة وأشعلها وقال لـ«سناء»:

ـ اسمعي يا سناء. كُل الأعداء بشر لهم أبناء وزوجات وعائلات، لكنَّ ذلك لا يعني أنَّهم ليسوا أعداء. في بعض الأحيان فإنَّ القتل

ضروري لخدمة الأوطان.

ـ أنا أكره الدم عمومًا، والعنف لا يحقق استقلالًا، والقتل لا يُحرر بلدًا.

نفثَ خيطًا طويلًا من الدُخان في الهواء وقال لها:

ـ أنتِ مازلت صغيرة لا تعرفين ماذا يفعل الإنجليز وأعوانهم المصريين الغلابة. إنَّهم يروننا جميعًا حشرات وأغبياء وكسالى، ولا يتصوروننا سوى خدم لهم. لو لم نقتلهم سيقتلوننا.

ـ غير صحيح يا حسين. والدليل أنَّ كثيرا من المصريين الناجحين وصلوا لأعلى المراتب ولم يتعرضوا لقتل أو اضطهاد أو تعذيب.

تذكَّر حديث الصحفي «إحسان» الذي استضافه في بيته، عندما قال إنَّه لا يقرّ ما فعله، لكنَّه يرى أنَّ الواجب يدفعه دفعًا لحمايته وإنقاذه لأنَّه لا يستطيع رد مَن يستجير به، وقد استجار به «سعد كامل» المحامي الذي يعمل ضمن شبكة مهمتها تهريبه. كرر «إحسان» أنَّه لا يجد بطولة في قتل مصري، وأن الأولى قتال اليهود الذين سحقوا شعبًا وسرقوا أرضه.

قال «حسين» لـ«سناء»:

ـ هل تتصورين أني حملت روحي بين كفي وخاطرت بنفسي لأجل وهم. إنَّنا نعرف جيدًا أننا مُعرضون للموت والسجن والتعذيب، لكننا نؤمن بما نفعل ونعتقد أنَّ الخلاص لا يتحقق دون رصاص. اسمعي يا سناء. يا ابنة عمتي. لقد جئت من أجل شيء آخر، أنتظر إجابة سريعة عليه قبل أن أغادر.

صمت قليلًا وهو يلحظ آثار كلماته في عينيها، ثُم قال:

ـ إنني أودُّ أن تكوني لي. أشعر بانجذاب حقيقي ناحيتك، وأتمنى لو تقبلين الزواج مني. سأسافر غدًا مساءً، ولو وافقتِ ستكونين معي. سنبني بيتًا ونـ..

قاطعته بسرعة:

ــ سافر.

طعنة مُباغتة قبلها على مضض، قبل أن تستكمل ذبح فريستها:

ــ ألا تعلم يا حسين أنني مُرتبطة؟

ــ ماذا؟

ــ نعم أنا مرتبطة بابن خالتك نجيب، وهو شخص طموح ومُثقف وأحبه ويحبني وقد تورّط في مغامراتك رغمًا عنه.

لاح له وجه «نجيب» وهُما صغيرين وهو يؤدي دور التركي ويتلقى لكماته، ثُم تذكر حديثه معه عن أول فتاة، وأول قُبلة، فقام مُستئذنًا، لكنّها قالت له:

ــ حسين. أنت تعرف يقينًا أن مصر والغلابة الذين تتحدث عنهم لا يستفيدون مما تفعل بأي صورة. أنت تدعي التضحية، وتبحث عن مجد شخصي.

ورفعت إحدى الصُحف المُلقاة على الأريكة لتُكرر:

ــ أنت سعيد بصورك في الجرائد، وبالمكافآت المُجزية التي تُرصد للوصول إليك. أنت بطل كاذب يا حسين.

ــ لا.

صرخ فيها، وقام من فوره بعد أن شعر بالدم يتدفق في رأسه، ثُم فتح باب الشقة ليهبط مُسرعًا دون أن ينطق بكلمة. كان يشعر أنّ الحسناء التي أحبها عرّته، وأسقطته أرضًا قبل أن تطلق عليه رصاص سخريتها. تلك الجبانة المُطأطئة الباحثة عن زوج مُثقف، طموح في زمن قاهر ووطن مقهور. تذكر كلمات «إحسان» له بأنّ النساء هُن السؤال الذي لا يستطيع بشر أن يُحدد له إجابة واحدة. ظل يمشي ببطء حتى اقتربت سيارة سوداء منه، ثُم وقفت، ففتح بابها ليجد اليوزباشي «محمود موسى»، فاستغرب خاصة أنّ «سعد كامل» هو

من قام بتوصيله، لكنَّ الضابط أوضح بهدوء:

ــ التأمين يتطلب تغيير السيارة والسائق. تصوّر، لقد استدعى إبراهيم إمام صديقنا إحسان ويبدو أنَّه يشُك فيه. ستبات اليوم في ست في العباسية وفي الصباح سأقلك إلى السويس، ومنها ستسافر إلى العقبة، وستجد في انتظارك ضابطًا صديقًا سيعتني بشئونك.

هزَّ رأسه وقال:

ـ خسارة. حسبت أنَّ إبراهيم إمام يعمل لصالح الملك.

ـ للأسف لا.

***

أفلت ذو الوجه الصارم من ثُقب إبرة. في الميناء تسلل مساءً ليرقُد مع الحقائب في المخزن ذاته الذي لا يُشم منه سوى رائحة الجلد. ضى «حسين» مُستسلمًا لمسار رسمه له آخرون لا يعرفهم ولا يعلم ،افعهم الحقيقية. فكّر. كيف يُمكن لملك مُنسحق الشخصية يغلُب لبه طيش الأطفال مثل «فاروق» أن يُسخر رجالًا وشرطيين وبيوتًا وسيارات وأموالًا ليُساعدوه على الفرار من المُحاكمة! ما السبب المُباشر في أن يتحول حاكم يُفترض أنه له سُلطات إلى العمل السري ،مدًا عن القانون؟ هل هو يرى في قتل «أمين عثمان» عملًا بطوليًا الفعل؟ ولو كانت الضحية «أحمد ماهر» أو «النقراشي» أو غيرهما، ل كان سيفعل الأمر نفسه؟

إنْ جميع الساسة في تصور «حسين» ملوثون، ضالون، يُقدّرون الإنجليز وينحنون أمام طلابهم، وحتى المليك الكاره للإنجليز، و في حقيقة الأمر مجرد شخص خاضع وذليل أمام إرادة السفير الإنجليزي الذي يتدخل في حياته نفسها دون أن يشعره ذلك بشيء

t.me/qurssan

مـن الخجـل. أي مليـك تافـه هـذا؟ وأيـة شرذمـة جاهلـة تتبعـه دون وعي؟ سـأل نفسـه، مُجيبًـا أنَّ الأوضـاع المقلوبـة في بعـض الأحيـان تفيـد، وإلا لمـا خلَّـص عُنقـه مـن حبـل عشـماوي.

أشـعل سيجارة، واسـتعاد نـص الخطـاب الـذي كتبـه للصحفـي إحسـان لينـشره في مجلـة روزاليوسـف وقـال فيـه إنَّـه قـرر التطـوع للقتـال في فلسـطين أمـام عصابـات الصهيونيـة واهبًـا حياتـه لنـصرة الشـعب الفلسـطيني العـربي.

تذكـر «حسـين» لـوم «سـناء» الموجـع، وردهـا القـاسي عليـه، وفكَّـر أنَّهـا أنـثى قبـل أي شيء، ترغـب في الاسـتقرار، وتحلـم بالبيـت السـعيد، والـزوج العـصري. هـي فتـاة رقيقـة نعـم، لكنَّهـا لا تنظـر لمجتمـع محيـط، ولا تهتـم بوطـن مسـلوب. إن «نجيـب» سـيكون مناسـبًا لهـا، بهدوئـه واتزانـه وانفتاحـه عـلى الحيـاة، وبثقافتـه ومرحـه وحُبـه للفنـون. أمـا مَـن تختارهـم الأقـدار ليغـيروا التاريـخ ويبدلـوا مسـارات الأمـم فـلا حـظَّ لهـا في مثلهـم، ولهـؤلاء ـ بـلا شـك ـ نوعيـة خاصـة مـن النسـاء، تتحمـل الشـدائد، ولا تعبـأ بالمحـن، وتؤمـن بالفـداء والتضحيـة. قـال لنفسـه إنَّـه لا يحنـق عليهـا، ولا يغـار مـن «نجيـب» فكلاهمـا خُلـق لغـير النضـال، وهـذا قدرهمـا.

فكَّـر في «أنـور السـادات» وشـعر أنَّـه يُخفـي عنـه أمـورًا كثـيرة، متصـورًا أنَّـه لا يمكـن أن يكـون مـا جـرى في القضيـة مُجـرد صُدفـة. أن يُـسرق ملـف القضيـة، ويُطلـق النارعـلى الشـاهد الرئيـس، ويُتهـم «إبراهيـم إمـام» بالتلفيـق، ثُـم يُسـمح للمتهمـين بزيـارة الأطبـاء ليهـرب بسـهولة ويُـسر قبـل أيـام مـن النطـق بالحُكـم، ثُـم يجـد يـد المُسـاعدة تمتـد إليـه مـن داخـل البوليـس السـياسي نفسـه، وبعيـدًا عـن إرادة ثعلبـه الداهيـة «إبراهيـم إمـام». رنـا عـبر قُمـرة صغـيرة بمخـزن الحقائـب لليـل البحـر المُظلـم، مُتذكـرًا مـا قالـه لـه اليوزبـاشي «محمـود مـوسى» بـأنَّ أحـد رجـال الأمـن في العقبـة سيلتقيه وسيصاحبه حـتى عمّـان، وهُنـاك سـيرتـ

t.me/qurssan

نقلـه إلى الحـدود السـورية بعـد أن يمنحـه هويـة جديـدة.

ليلتـان قضاهمـا مُسـتيقظًا بـلا صُحبـة سـوى السـجائر والذكريـات، حـتى سـمع صفـارات الرسـو، وجلبـة انتهـاء الرحلـة. التحـف بالصمـت حـين فُتـح مخـزن البضائـع كحقيبـة سـفر انتظـارًا ليـد المُسـاعدة، ثُـم شـعر بالطمأنينـة عندمـا سـمع صوتًـا في الظـلام يُهنئـه بسـلامة الوصـول. صافحـه رجـل قصـير القامـة قـدم لـه نفسـه باسـم مـروان، ودعـاه أن يتبعـه بهـدوء، فسـارا معًـا عـبر ممـرات ضيقـة خـارج القاعـة الرئيسـية للمحطـة، واجتازاهـا بعـد تعرجـات يمينًـا ويسـارًا حـتى وصـلا إلى دائـرة الجمـارك حيـث منحـه هُنـاك أوراق هويـة وعلبـتي سـجائر وتذكـرة قطـار ومفتـاح شـقة وورقـة مدوّنًـا فيهـا أحـد العناويـن في عمّـان. نظـر لاسـمه الجديـد فوجـده «حسـين الـراوي»، فحمـد اللـه أن أبقـوا لـه «حُسـين» حـتى لا يضطـر عـلى طمـس ماضيـه ومحـو ذاكرتـه. سـأل رفيقه مُسـتفسرًا:

ـ وماذا بعد؟

قال «مروان»:

ـ سـتذهب إلى العنـوان المـدوّن أمامـك، وسـتعيش كلاجـئ فلسـطيني من خـان يونـس حـتى ينسـاك المطـاردون أو يتوقـف البحـث عنـك مثلمـا اتفقـت مـع «محمـود بـك مـوسى». وهُنـا، فـإن مُهمـتي انتهـت، لكـن نصيحـتي الوحيـدة لـك هـي أنـك في بلادنـا تسـتطيع دائمًـا الفـرار مـتى أردت ذلـك، مـا دمـت قـادرًا عـلى أن تدفـع.

شـكره «حسـين»، ومـضى ليبـدأ حيـاة جديـدة كغريـب فـرّ مـن مذابـح اليهـود في أرض فلسـطين.

***

عمّان بلا قلب. لا أصدقاء ولا رفاق يُخففون وحشة المنفى وكآبة العُزلة. عبر التليفون طمأن أمه بوصوله إلى بر أمان بعيدًا عن مُلاحقات البوليس والخونة وصائدي المُكافآت. علِم منها أنَّ ثمنه لدى الحكومة ارتفع لـ10 آلاف جنيه بعد أن صدرت الأحكام مُخففة على جميع المُتهمين. كان نصيبه حُكمًا غيابيًا بعشر سنوات مع الشغل، بينما كان نصيب «محمود مراد» و«محمود الجوهري» و«عمر أبو يعلى» و«سيد خميس» خمس سنوات، وحُكم على «مدحت» و«سعيد» و«محجوب» بثلاث سنوات فقط، بينما أفلت «السادات» و«محمد إبراهيم كامل» و«نجيب» تمامًا من أي عقوبة.

قالت له أمه إنَّ عليه متى استقر في مكان ما أن يُخبرها بعنوانه حتى يتسنى لها أن تُرسل له ما يكفيه من أموال. وأخبرته أنَّ والده فخور به، وأنَّه يُكرر في كُل مجلس أن «حسين» يشبهه تمامًا عندما كان صبيًا. لقد منحوه يوم هروبه نحو ألف جنيه مصري وصُرة من الجنيهات الذهب التي ربطها في تجويفين صغيرين بكعبي حذائه.

جلس «حسين» على أحد المقاهى وأمامه حزمة من الصُحف مُستهلكًا ساعات الصباح في مُطالعة العناوين ومُتابعة آخر أخبار الهُدنة مُلاحظًا استمرار تدفق الأسلحة نحو العصابات اليهودية في تل أبيب وحيفا والفالوجة. كان الجنرال «جلوب باشا» هو قائد الجيش الأردني يُصرح بأن قواته أحرزت انتصارات مُذهلة على العدو، بينما كانت حكايات المقاهي تُكرر أنَّ الجيش الذي يقوده ضباط إنجليز ينسحب من أي موقع يتوقع فيه نشوب معارك حقيقية حتى أنه ترك كثيرا من المواقع الحيوية دون حراسة لتسقط في أيدي اليهود تباعًا. سمع «حسين» من رواد المقاهي حكاية ما جرى في قرية دير ياسين، عندما هاجمت مجموعة من المقاتلين اليهود القرية فجرًا للاستيلاء عليها واتخاذها نقطة انطلاق لقطع الطريق على جيوش الفدائيين العرب، وفوجئ المهاجمون برصاص ينهمر عليهم من

أحد بيوت القرية ليصرع 4 من مقاتليهم، فما كان منهم سوى أن حشدوا أكبر قدر من القوات المُنظمة، وحاصروا القرية من مختلف الجهات، ثُم ذبحوا نصف رجالها أمام ذويهم، واغتصبوا عددًا من الفتيات قبل أن يذبحوهنَّ في مشاهد بثت الرعب والفزع في قلوب الجميع، حتى أن صحفيًا أمريكيًا كان يُتابع الحرب كتب أنَّ ما جرى في دير ياسين من وحشية يُمثل عارًا على البشرية كُلها.

شعر «حسين» بالجزع الشديد وهو يستمع لحوار بين فلسطينيين ملسا على المقهى مفاده أنَّ الجيوش العربية المُحاربة تشارك في الحرب استعراضًا فقط، وأنه لا يوجد قتال حقيقي إلا بين عصابات اليهود والفدائيين المتطوعين الذين يقودهم الضابط المصري أحمد عبدالعزيز. قال في نفسه ساخرًا: كيف يكون «النقراشي باشا» جادًا في قتال اليهود، وهو يُكرر كُل يوم دعوات الانبطاح والتزلف للإنجليز؟ وكيف يقاتل الجيش الأردني الصهيونيين وجميع قادته من ضباط الإنجليز؟ ثُم كيف تجتمع ست دول عربية لتحشد معًا أقل من ربع عدد المقاتلين اليهود؟ وخلص إلى أن ما يجري مُجرد تمثيلية مثل ما يصدر من ساسة العار في مصر المحروسة.

لو كانت الأردن بلاده لما نام ليلة واحدة وذلك الملك المتوج بأمر بريطانيا والمُدعي أنَّه عبدٌ لله قابع على عرشه. شعر بكراهية شديدة تجاه تلك العينين الطافحتين بالمكر والخديعة في صورة الملك بالجريدة، ليقول لنفسه إنَّ الخونة دائمًا يتشابهون في نظراتهم، لكنه عاد وتذكر أنَّ عيني «النحاس باشا» تبثان نظرات مختلفة. قرأ خبرًا حول زيارة الملك للقدس بعد سقوطها في أيدي القوات الأردنية وتحته كُتب باللون الأسود «جلالة الملك عبدالله ابن البيت النبوي الشريف». ضحك «حسين» مُستنكرًا، وهو يتذكر حملة مُشابهة شنتها الصُحف والمجلات المصرية قبل عام زعمت فيها أنَّ نقابة الأشراف أثبتت انتساب الملك «فاروق» لسلالة النبي محمد. كُلهم

كاذبـون، مُحتالـون، ويتاجـرون بـكُل شيء. الديـن والأخـلاق ومصلحـة الوطـن، أمـا الأبطـال الحقيقيـون فمنفيـون، ومطـاردون، وممنوعـون مـن الحُـب. هكـذا فكَّـر وهـو يُدخِّـن سـجائره بنهـم شـديد مُفكـرًا في ضرورة مواصلـة النضـال بـلا هـوادة.

سـمع صوتًـا أمامـه، فـأزاح الجريـدة ليجـد أمامـه شـابًا طويـلًا بملابـس عسـكرية يسـأله في بـرود عـن اسـمه. واصـل رسـم اللامُبـالاة ناظـرًا نحـو جريدتـه دون أن ينبـس محـاولًا قـراءة مـا يـدور بـرأس الرجـل الـذي كـرر سؤاله مـرة أخـرى قبـل أن يُخبـره بأنَّـه مـن نقطـة الأمـن العمومـي بعمّـان وأن السـيد «الليـث» مفتـش الأمـن يطلبـه. مـدَّ «حسـين» يـده ببضعـة وريقـات ماليـة وضعهـا في جيـب العسـكري، ثُـم سـأله:

ـ ماذا يريد؟

ـ إجراء طبيعي للاستفسار عن اللاجئين. أنت تعرف ظروف الحرب.

ـ نعم. اجلس.

قالهـا «حسـين» الـذي اشـتَم رائحـة الخطـر، وتذكَّـر كيـف نصحـه مُسـتقبله في العقبـة، بـأن يدفـع مقابـل الأمـان. هُنـا كُل شيء لـه ثمـن: المعلومـة، والخبـر، والطريـق. مـدَّ يـده في جيبـه، وأخـرج جنيهًـا ذهبيًـا وضعـه أمـام العسـكري سـائلًا إيـاه:

ـ هل أستطيع أن أثق فيك؟

حملـق العسـكري في الجنيـه الذهـبي مشـدوهًا، ونظـر يمينًـا ويسـارًا قبـل أن يـرُد بحـزم:

ـ بالطبع.

أشعل «حسين» سيجارة جديدة، نفثَّ منها في الهواء، وسأل مُكررًا:

ـ إذن قُل لي بصراحة. لماذا يريدني السيد الليث مفتش الأمن؟

فكَّر العسكري قليلًا، وعاود النظر حوله ثُم قال:

ـ لقـد سـألني عنـك وتحريـت سريعًـا وعلمـت أنَّـك لاجـئ مـن خـا...

ونس، لكنَّه يظن أنَّك تشبه أحد المصريين المطلوبين في القاهرة، والمرصود لهم مكافأة سخية، لذا فإنَّه يأمل أن يُسلّمك للسلطات المصرية ويقبض الجائزة.

مدَّ العسكري يده نحو الجنيه الذهبي، لكن كف «حسين» أمسكت ها قبل أن يقول وعيناه تلتمعان بالغضب:

ـ اسمع. أنا الشخص الذي يبحث عنه رئيسك. ستأخذ هذه القطعة ومثلها ثلاث قطع إن أخرجتني من بلادكم.

- إلى أين؟

سأل العسكري، فأجاب «حسين» قائلًا:

سوريا الحُرة.

ابتسم العسكري، وقال:

ـ ليست حُرة تمامًا كما تتصور. لكن لا عليك. السفر إلى هُناك سهل الغاية، جهّز نفسك، وسأشغل عنك مفتش الأمن حتى تُغادر.

- اتفقنا.

***

ثلاث ليال قضاها «حسين» في فندق الإخوة بالمارجة بعد وصوله إلى العاصمة دمشق، تلك المُفعمة بالحركة، الصاخبة بالحديث، قريبة الشبه بالقاهرة بأزقّتها ومبانيها وسمتها الشرقي الأصيل. بعد ذلك وجد دون جُهد شقة صغيرة بحي الصالحية ذي البنايات القديمة، والأبواب الحمراء، والبوابات المملوكية. شعر «حسين» سريعًا بالألفة في الشقة التي احتضنته بعد رحلة هروب جبري فرّ فيها من عمّان بمساعدة شرطيين. قال لنفسه إنَّ الشرطة التي تمسك هي ذاتها التي

t.me/qurssan

تُفلت وتُهرب.

أحسَّ الشاب المُطارد أنَّ دمشق أقرب لقلبه من عمّان، وفكر أنَّ تلك الجُدران تضُم حنقًا وغلًا ضد الاستعمار ودُعاة الاستسلام، وهؤلاء الناس يمتلكون كبرياءً وأنفة تجاه كُل مستغرب. وذلك المسجد المجاور لمسكنه يضم رفات الشيخ الصوفي محيي الدين بن عربي الذي يذوب دراويش مصر في حُبه. زار «حسين» حي السيدة زينب، وقرأ الفاتحة لها في المقام الكبير المُقام لها مُندهشًا كيف يجد ضريحًا لها وللحسين في قلب العاصمة السورية مثلما هو الحال في القاهرة.

ومن مقهى لمقهى، ومن بار لآخر استعذب «حسين» اللهجة السورية، وشعر خلال أسابيع قليلة بأنه قادر على التأقلم معها والتحدث بها، وهو ما قاله له عم نظيم المصري صاحب المقهى الكبير بالمارجة، الذي صار ملاذًا مُحببًا للاجئ الفلسطيني المُزيف.

وذات صباح كان «حسين» يجلس بالمقهى عندما اقترب منه رجل أنيق يحمل حقيبة صغيرة مُقدمًا نفسه بأنَّه صحفي مصري اسمه يوسف عباس. كان من الواضح أنَّ الصحفي المُتطفل يحاول مقارنة هيئة وملامح «حسين» على صورة لديه في سجل الذاكرة رغم وجود شارب كث انزرع بالوجه المُستقبل لنظرات الشك. كانت الضحكة المُجلجلة واللهجة الشامية التي حرص «حسين» على الحديث بها تدفع الصحفي إلى التراجع عن تصور الشبه مع قاتل «أمين عثمان» إنَّ آخر مشاهدة لـ«حسين توفيق» في مصر كانت يوم هروبه من مسكنه وهو بصحبة ضابط الشرطة المُكلف بحراسته، وبعدها لم يعلم أحد أين اختفى، حيث ردَّد البعض أنَّه ذهب إلى الصعيد حيث أخفاه بعض أقاربه، بينما زعم آخرون أنَّه صعد إلى جبال الصحراء مع المطاريد من المجرمين وقطاع الطريق، وادّعى آخرون أنَّ أفراد بتنظيمه السري قتلوه وأخفوا جثته ليتحول إلى أسطورة

t.me/qurssan

حاول الصحفي فتح باب للحوار مع «حسين توفيق» حول قضايا الاغتيالات في مصر، فقال له إنه كان شاهد عيان على اغتيال القاضي «أحمد الخازندار» عندما كان خارجًا من المحكمة وفي يديه أوراق قضية، فأطلق عليه اثنان من الشباب النار. ركز الصحفي كلامه إلى مُحدِّثه بأن ذلك كان بعد أسابيع قليلة من الحادث المأساوي لاغتيال أمين باشا عثمان. وردَّ «حسين» مُكررًا حكايات سمعها في عمّان عن مذابح اليهود في فلسطين وضرورة توحد كُل الشعوب العربية لإنقاذها من توحش الصهيونية. ظلّ الصحفي يُحملِق في مُحدثه، ويُكرر بأنَّ حوادث العُنف في مصر اتسعت وتكررت بعد اغتيال «أحمد باشا ماهر» أمام البرلمان، بينما ظلَّ «حسين» يحكي مآسي اقتلاع الأرض من أصحابها في فلسطين ومنحها لليهود تحت حماية المستعمر البريطاني.

بعد ساعات من الكرّ والفرّ لم يجد الصحفي بُدًّا من المغادرة، بعد أن يئس في إيجاد خيط واحد يربط اللاجئ الفلسطيني بـ«حسين توفيق» سوى الشبه. دقائق لم تمض على اللقاء حتى وجد «حسين» يدًا تربُت على كتفه في مودة، ليُبصر خلفها رجلًا طويلًا أسمر ذا جبهة عريضة وعينين جاحظتين يقول له:

أحسنت يا أستاذ. أنت دائمًا حاذق.

ابتلع «حسين» ريقه، مُتفرسًا في المصري الآخر الذي يسعى للإيقاع به، فابتسم وردَّد بلهجة شامية بأنَّ الحرب في فلسطين لم تترك سوى الآلام والحكايا.

ابتسم الواقف، ثُم سحب كُرسيًا وجلس، وهمس:

لا داعي لذلك. حسين أنا أعرفك جيدًا. لا تخف. هُنا أنت في أمان.

أنا فعلًا حسين، لكن أنا من خان يونس ومن عائلة الراوي.

هزّ الرجل رأسه وغمز بعينه اليُمنى وكرر الهمس:

t.me/qurssan

ـ حسين توفيق من مصر.

ثُم قال مُقدمًا نفسه:

ـ أنا عبدالقادر عامر. هل سمعت عني؟

سكت «حسين» محاولًا استلهام ذاكرته دون جدوى، ففكَّر أنَّ عيون المُخبرين وصائدي المكافآت تتبعه من العقبة إلى عمّان ومن عمّان إلى دمشق. تذكّر أنَّ ما لديه من مال قارب على النفاد، وأنَّه لن يصبح قادرًا على دفع المزيد من الرشاوى لهؤلاء المُتطفلين.

نادى «عبدالقادر» النادل وطلب قهوة ثانية، وقال:

ـ هل سمعت عن حوادث تفجيرات الإسكندرية؟

هزَّ «حسين» رأسه بالإيجاب، فقال «عبدالقادر»:

ـ أنا المُتهم الأول فيها، لقد اضطررت للهرب، أنا واثنان من زملائي في العام الماضي، ونحن نعيش هُنا بقليل من المال الذي يُرسله لنا أخي الأكبر.

تذكر «حسين» أنَّه قرأ أخبارًا عن القضية وهو في السجن، ثُم رنَّت برأسه كلمات لـ«أنور السادات» بأنَّ هناك مجموعات عديدة تُحارب وتقاوم الإنجليز. شعر بالطمأنينة تفيض من عيني جليسه، الذي صار أكثر ودًا وهو يتحدث بصراحة شديدة مُقرًا أنَّهم يبحثون عن قائد، قوي، وصلب، وماكر.

قال «عبدالقادر»:

ـ اسمع يا حسين. أنا وزميلاي مُصطفى كمال ومحمد المرصفاوي هربنا بحرًا إلى سوريا، وحاولنا الانضمام لجيش الإنقاذ الذي يُحارب في فلسطين، لكنَّ عيون المُخابرات هُنا تتبعنا، وقد حذرونا مرارًا من أنَّ المشاركة في أي عمل ستدفعهم لترحيلنا إلى مصر.

أذَّن أذان الظهر بصوتٍ جميل عذب أثار الذكرى في نفس حسين، مُسترجعًا ليالي صيد الجنود في شوارع القاهرة، ولقاءات جروبي

t.me/qurssan

واجتماعـات حجـرة عثمـان الجنايـني، وقُبـلات ميمـي المحمومـة عـلى كورنيـش النيـل. طـاف برأسـه وجـه السـادات وهـو يتحـدث عـن الفـداء، وعـين إبراهيـم إمـام وهـي تُخفـي خُبثًـا وخداعًـا، وطربـوش النحـاس وهـو يتراقـص فـوق رأسـه عندمـا وقـف غاضبًـا يُـدلي بشـهادته في قضيـة أمـين عثمـان.

نظر بامتنان إلى «عبدالقادر» وسأله:

ـ لِـم تـراني مُناسـبًا لقيـادة مجموعتكـم رغـم أنَّـك أدرى مـني بمَـن معـك؟

ردّ «عبدالقادر» بنظرة طمأنة وقال سريعًا:

ـ أنـت اسـم وتاريـخ وعمـل حقيقـي. لقـد كُنـا نتابـع قضيتـك بتعاطـف ومحبـة، وأنـت والسـادات كُنتمـا لنـا القـدوة. هـل تعـرف. سـيفرح مصطفـى ومحمـد بشـدة لـو علمـا أنـني وجدتـك هُنـا في سـوريا. سـنضم أعضـاء جُـددا ونوجـه نضالنـا ضـد الصهاينـة. هُـم أشـد خطـرًا عـلى الأمـة.

شـعر «حسـين» أنَّـه وُلـد مـن جديـد. أبـصر سـلالم المجـد تقـترب مـن حذائـه، وشـاهد «أنـور السـادات» يبتسـم مُشـجعًا. قـال:

ـ القـدر يرسـم لنـا الطريـق. سـنُحقق هُنـا مـا لـم نُحققـه في القاهـرة والإسـكندرية.

تابعـا صـوت الراديـو يُذيـع أُغنيـة لأسـمهان وهـي تشـدو «فـرّق مـا بينـا لـه الزمـان. دا العمـر كلـه بعـدك هـوان»، قبـل أن يسـأل «عبدالقـادر» «حسـين» عـن مـكان سـكنه، فأشـار إلى آخـر الشـارع قائـلًا:

ـ هُنا.

ـ إذن. هيا بنا. اعزمني على الشاي عندك في البيت.

قاما سعيدين، بعد أن دفع «حسين» الحساب.

***

عقـدوا الاجتمـاع الأول يـوم مظاهـرات دمشـق الكُبرى المُطالبـة بإنصاف الفقراء، الـتي وصلـت لحـد إشـعال النـيران في مبـاني البلديـة في كثـير مـن أحيـاء العاصمـة الخـضراء. كان النـاس مُسـتنفرين ضـد حُكومـة شـكري القوتـلي بسـبب غـلاء الأسـعار، وعـدم وجـود وظائـف لجيـش مـن الشـباب الآمـل في حيـاة هانئـة بعـد سـنوات مـن الكفـاح لنيـل الاسـتقلال. في مـنزل «حسـين» البسـيط بحـي الصالحيـة جلسـوا معـا عـلى مائـدة مُسـتطيلة يرتشـفون الشـاي الأسـود ويُدخنـون السـجائر اللـف، راسـمين طريـق نضالهـم القـادم. كان «عبدالقادرعامـر» يبـدو رغـم قـوة تأثـيره في زميليـه مُحبـذًا وضـع كُل شيء تحـت تـصرف «حسـين»، رُبمـا تقديـرًا لكونـه ذا إسـهامات عظيمـة في مجـال القتـل والعمـل السـري، فضـلا عـن إيمانـه التـام بـأنَّ أي عمـل فـدائي يسـتلزم تمويـلًا، وأن الوحيـد القـادر عـلى تدبـير المـال هـو «حسـين» ابـن العائلـة الثريـة، الـتي مازالـت تُرسـل لـه كُل شـهر أمـوالًا كافيـة للعيـش دون عمـل. أمـا «مصطفـى كمـال» فبـدا رغـم ملامحـه الصارمـة قليـل الـكلام، أقـرب للخجـل، وظهـر «محمـد المرصفـاوي» كرجـل بوهيمـي سـاخر يعشـق المُتـع الحسـية ويُبالـغ في مُديـح الخمـر والنسـاء.

لقـد رأوا حُسـين مُغامـرًا فريـدًا، بـاردًا إلى أقـسى درجـة، لا يكـترث لـدم، ولا يشـعر بخـوف، لـذا فقـد اعتـبروه جديـرًا بتـولي القيـادة بعـد أن سـجنتهم البطالـة النضاليـة وملّـوا مـن حالـة الـلا حركـة.

حملّـق «حسـين» في وجـوه الثلاثـة المُسـتمعين لـه، ليتذكـر مجموعتـه الأولى المكونـة مـن «سـعيد» و«مدحـت» و«سـيد» و«جـول»، وقـال:

ـــ إنَّ أكـبر خطـر يواجـه بلادنـا اليـوم هـو خطـر الصهيونيـة، وهـو العـدو الأول لنـا جميعًـا، لـذا فـإنَّ علينـا أن نُحـدد أهدافنـا بوضـوح في إرهـاب وقتـل اليهـود في أي مـكان، إلى جانـب تصفيـة كُل مَـن ينـادي بالسـلام والتسـوية مـع الصهاينـة، وإلحـاق الأذى بـأي مؤسسـة أو جهـة أجنبيـة تسـاند دولـة إسرائيـل.

ـ مُتفقون.

قالها «عبدالقادر»، فواصل «حسين»:

ـ سنرصد ما يجري حولنا، وسنبحث عن الخونة والجواسيس ونتصدَّى لهم تاركين لجيش الإنقاذ مهمة القتال المباشر.

بدت من «محمد» نظرات استفهام قال على إثرها:

ـ أهم شيء السلاح. كيف سُندبّر المال لشراء السلاح؟

ـ لا عليك. أنا كفيل به.

أجاب «حسين» ببرود، وكأنهم يتوقعون الإجابة فهزوا رؤوسهم في اسليم.

واصل «حسين» شرح الأهداف قبل أن يسمع طرقًا خفيفًا على الباب انخلعت له قلوب المُجتمعين، لكنّه طمأنهم، ثُم قام بهدوئه المُعتاد ليفتح الباب قليلًا ليسمح لوجهه فقط بالخروج. وجد «حسين» أمامه فتاة طويلة الشعر، كثيفة الحاجبين، لها عينان زرقاوان تفيضان عذوبة، ترتدي تنورة قصيرة سوداء فوق قميص لبني رقيق بأزرار كُحلية. بدا خداها متوردين خجلًا لتزداد جمالًا على حمال، مما دفع هرمونات الذكورة في داخله أن تنتفض بعد خمول دام شهورًا، حملق فيها مستفسرًا، قبل أن تنطق في رقة:

ـ آسفة على إزعاجك. والدتي مُصابة بنوبة قلبية ووالدي في بيروت وليس معي أحد. هل يُمكن أن تساعدني في نقلها إلى المُستشفى.

هزَّ رأسه في اهتمام، ورمى ضيوفه بنظرة طمأنة ثُم قال لها:

ـ طبعًا طبعًا.

أغلق الباب على أفراد تنظيمه الجديد، وجرى معها ليدخل الشقة المُقابلة، حيث وجد سيدة ضئيلة الجسد تجلس على كنبة صغيرة بوسط الصالة، وإلى جوارها فتاة أخرى قمحية البشرة ترتدي جلبابا ...ي اللون وتحتضن كفها بقلق ظاهر.

t.me/qurssan

ـ الأستاذ جارنا الجديد، يُريد أن يطمئن عليكِ.

قالـت الفتـاة لأمهـا، الـتي ردَّت بنظـرة اسـتجداء نحـو وجـه الغريـب، قبـل أن يصيـح:

ـ ألف سلامة عليك يا خالة. ستكونين بخير.

حملهـا بشـعور طـاغٍ بالقـوة والصلابـة، وهبـط السـلالم في بُـطء وإلى جـواره ذات القميـص اللبـني. سـارا معًـا عـبر الزقـاق ليسـمعها تُشـير إلى مستشـفى صغـير آخـر الشـارع. كـررت الفتـاة أسـفها لحامـل أمهـا الشـهم، بينمـا رددت الأم الدعـاء لـه بصـوتٍ مُتقطـع حـتى وصلـوا جميعًـا، حيـث وضـع «حسـين» حملـه فـوق أحـد الأسرَّة ثُـم انتظـر خارج الغرفـة بعـد أن وصـل الطبيـب. تذكـر اجتماعـه المُنقطـع، لكنَّـه قـال في نفسـه إن نـصرة النسـاء واجـب قومـي، وأن الشـهامة لصيقـة بالمناضلـين. ثُـم تذكَّـر رقـة الفتـاة وجمالهـا، فقـال أيضًـا إنَّ الجمـال دائمًـا يسـتحق كُل تقديـر.

خرجت الفتاة بعد دقائق لتشكُره. قالت:

ـ لقد طمأننا الدكتور. شُكرًا على نبلك.

ابتسم مُبحرًا كملاح عظيم في عينيها:

ـ لا شُكر على واجب.

ثُم مدَّ يده مُصافحًا، وهو يقول:

ـ تحت أمرك.

منحته ابتسامة امتنان وهي تُكرر الشكر قائلة:

ـ شُكرًا مرة أخرى يا أستاذ...

ـ حسين.

كررت:

ـ شُـكرا يـا أسـتاذ حسـين. أنـا سُـعاد، وأخـتي الـتي في البيـت اسـمها

فاطمــة.

ـ تشرَّفنا.

لاحظت أنَّ يدها مُختبئة بين أصابعه، فسحبتها باضطراب، وسألته:

ـ هل أنت مصري؟

ابتسم وسأل:

ـ ألا أبدو فلسطينيًا؟

هزَّت رأسها بالنفي، فقال:

ـ إذن أنا مصري.

ودَّعتــه بابتسـامة، وشـعر باعـتزاز غريـب، وهــو يعــود مـرة أخـرى إلى شـقته ليجـد ضيوفـه مُنهمكـين في التدخـين والثرثـرة. وقـف «عبدالقـادر» فـور دخولـه مـن البـاب، واقـترب منـه ثُـم احتضنـه في محبـة وقـال:

ـ أنت شهم جدًا يا حسين. نحنُ محظوظون أننا وجدناك.

***

«أخي العزيز «حسين»..

أشـتاق إليـك بشـدة. أشـعر بأنـني وحيـد، مُنعـزل، غريـب عـن أقـاربي وأصدقـائي وجـيراني. كثـيرون في الجامعـة يتحاشـونني بعـد أن حصلـت على الـبراءة، وخرجـت منصـورًا مـن قضيـة «أمـين عُثمـان». لا عليـك. أخـبرني أنـت: كيـف حالـك؟ مـا أخبـارك؟ وماذا تفعـل؟ وهـل أنـت في مأمـن مـن البوليـس السـياسي وأذرعـه الطويلـة؟ لقـد كانـت المحنـة صعبـة علينـا جميعًـا، لكـن عنايـة اللـه كانـت دائمًـا ترعانـا وإلا لمـا صـدرت الأحـكام مخفَّفـة بهـذا الشـكل.

علمـت مـن طنـط «سـميرة» أنَّـك مُسـتقر، وأنَّ ظروفـك تتحسـن بعـد

t.me/qurssan

التأقلم مع المُحيطين بك. أنا واثق من ذلك. أنت مخلوق استثنائي، قادر على فك طلاسم الناس، والتعايش مع الآخرين، واستيعاب الناس بسرعة، وهي صفات لا أزال أرى أنَّها مؤهلة لقيادة البلدان. إنِّي أتصور أنك مُنخرط في أعمال نضال جديدة، ضد أعداء جُدد، وخونة آخرين، وكُل أملي أن أكون إلى جوارك مساندًا ومُعضدًا ومُعينًا.

أُعيش فترة اكتئاب طارئ بعد دخول مُعظم الرفاق إلى السجن، حتى أنَّه لم يبق لي سوى «نجيب» المُنصرف عن الكفاح، الرافض للعمل السري، لذا فإنني أقضي ساعات طويلة في قراءة التاريخ ومُتابعة سير الأبطال والزعماء في العالم.

في الأسبوع الماضي تلقيت عرضًا من زميل بكلية الحقوق للانضمام إلى جماعة الإخوان، وزاد الإغراء عندما فاتحني مُباشرة في أن أصبح عضوًا في الجهاز الخاص. بالطبع، رفضت بشدة، ذلك لأنني لا أرى في جماعة الإخوان سوى مجموعة من البُلهاء العميان الذين يسيرون دون تفكير خلف رجُل مهووس يُتاجر بالدين اسمه حسن البنا. لقد عرفت أنَّ الجهاز الخاص للجماعة يحاول عسكرة أعضائه والتغلغل في الجيش، لكن أنا على ثقة أنَّه سيفشل بسبب استهجان الناس لأي ربط بين الدين والسياسة، وهذا هو سر مباركة الناس لقرار حل الجماعة الذي أصدره النقراشي بعد القبض على عدد كبير من أعضاء الجهاز. لقد كان أعضاء ذلك الجهاز من السذاجة لدرجة، أنَّهم أعادوا استثمار أفكارنا وخططنا وكرروها بنفس الشكل، حتى ظن البعض أنَّ التفجيرات التي قاموا بها مؤخرًا ضد بعض المُنشآت والمصالح اليهودية من تنفيذنا. هل تتصور أنَّ أحد الصحفيين نقل لي أنَّ الضابط «إبراهيم إمام» قال لأحدهم لولا أنَّه مُتأكد أنَّ حسين توفيق خارج البلاد لتصور أنَّه وراء الحوادث الأخيرة. إنَّ هذا يُشعرني بالفخر، ويؤكد لي كم كُنا مؤثرين فيمَن حولنا.

الحياة السياسية في مصر مازالت أقرب لبار كرياكو، فالسادة الزُعماء

الأفاضل غائبون عن الوعي ومازال بعضهم يتحدث عن اليهود المصريين باعتبارهم مواطنين صالحين. يرفع «النقراشي» باشا شعار التفاوض السلمي، ويُهدد الوفد بإعلان الجهاد، ويخطب رئيسه كُل يوم مُطالبًا بالجلاء، وباقي الأحزاب تتفرج وتناور لتكسب رضا الملك أو الإنجليز أو كلاهما معًا. ومُعظم الشباب في وادٍ آخر، يكررون أفكارنا وكلماتنا حول الكفاح المسلح، والمقاومة بالدم، ويعتبرونك مثالًا عظيمًا للفداء.

ستسألني عن «أنور السادات». لا علم لي بما يفعل الآن، فبعد براءتنا غاب تمامًا عن الظهور، لكنني علمت من صديق خاص أنّه يعمل بالتجارة، لكنَّ هناك أقاويل عن علاقته بتنظيم الحرس الحديدي التابع للسراي، وهو تنظيم فدائي جديد دبّر عدة عمليات لاغتيال ضباط إنجليز، وحاول اغتيال «مصطفى باشا النحاس» مرتين وفشل. وفي اعتقادي فإنَّ «السادات» رجُل مُحنّك، صعب الفهم، وأتصور أنّه يعرف طريقه جيدًا، وهو الأقدر على قراءة ما يُحيط بنا.

أنت تعرف أنني أعشق هذه الأجواء، وأحب المغامرات، وعلى استعداد تام للتضحية في سبيل الوطن، لكنني عاهدت والدي العزيز بعد براءتي ألا أشارك في أي عمل فدائي حتى أتخرج في الجامعة، وأتصور أنني مُرغم على ذلك، خاصة ما دمت أنت بعيدًا، فلا السادات ولا الإخوان ولا غيرهم أستطيع التأقلم معهم.

زُرت زُملاءنا في السجن، وآلمني أن أجد «محمود مُراد» بتلك الحالة الغريبة من الانكسار. إنَّه مُحبط وموجوع بشدة رغم تأكيدات البعض بأنَّ أمرًا ملكيًا سيصدر بالعفو عن المحبوسين في القضية. قال لي «محمود مُراد» إنَّه يُريد أن يُهاجر من مصر فور خروجه، فهو يتصور أنَّ البلد لم يعُد مُناسبًا لطموحاته. أما سيد فهو الأكثر سُخرية مما جرى، ومازال قادرًا على ترديد النكات وتقليد الزُعماء،

والأدهـى أنّـه يُقلـد الآن السـادات باعتبـاره خطيبًـا مفوهًـا. «سـعيد» و«مدحـت» و«محجـوب» و«عُمـر» كمـا هُـم أقويـاء وسُـعداء بالسـجن، ويسـألون عـن أخبـارك كُلمـا سـنح لهـم لقـاء والدتـك.

أثـق أنّنـا سـنلتقي بـإذن اللـه، وأنَّ الأمـور سـتتغير، وسـيُصبح الأبطـال في مكانهـم الطبيعـي، عندمـا نـدوس معًـا بأحذيتنـا عـلى جثـث الخونـة والعمـلاء.

دمت طيبًا وآمنًا ليوم لقاء عسى أن يكون قريبًا.

أخوك

محمد إبراهيم كامل.

القاهرة في ديسمبر 1948».

طـوى «حسـين» الخطـاب، مُسـتبشرًا بـكلام ابـن خالتـه ورفيقـه في الكفـاح قبـل أن يسـمع طرقًـا هادئًـا عـلى بـاب الشـقة. قـام مُطفئًـا سـيجارته العشريـن في منفضـدة بلوريـة ترقُـد فـوق الطاولـة، وفتـح البـاب ليجـد كهـلًا قصـير القامـة يرتـدي حُلَّـة داكنـة، وفـوق عينيـه نظارتـان سـميكتان. حملّـق في وجـه الطـارق ليلمـح حُمـرة مُشـابهة لحُمـرة الفتـاة الـتي اسـتغاثت بـه قبـل أيـام لنقـل أمهـا إلى المستشـفى، فقـدّر أنّـه والدهـا.

ـ مساء الخير يا بُني.

لا يحـب مناداتـه بصيغـة الابـن، لكنّـه رسـم الابتسـامة المُعتـادة وردّ التحيـة، قبـل أن يسـتأذن الرجـل في الدخـول، فسـمح لـه.

قال الرجل بعد أن جلس:

ـ أنـا شـاكر الحميـدي جـارك في الشـقة المُقابلـة، وجئـت أشـكرك عـلى المسـاعدة في نقـل أم سُـعاد إلى المُستشـفى.

ـ لا شُكرعلى واجب أستاذ شاكر.

عرض عليه سيجارة وهو يسأل:

ـ كيف حالها الآن؟

ــ بخـير وسـلام. أنـا أعمـل في السـكة الحديـد العموميـة، لـذا فإنَّـني أتغيَّـب في بعـض الأحيـان لأكـثر مـن يـوم، وكمـا تـرى فإنَّـه لا يوجـد في البيـت سـوى نسـوة، لأن ابـني مُجنَّـد في الجيـش وهـو ضمـن الفرقـة المُرسـلة إلى فلسـطين.

ـ عظيم. هذا شرف لي.

قالهـا «حسـين» وهـو يحافـظ على ابتسامة الترحيـب، ثُـم مـد قداحتـه ليُشـعل للرجـل سيجارته، الـتي سـعل منهـا ثُـم قـال:

ــ إنَّ زوجـتي أصرت أن أدعـوك عـلى الغـداء غـدًا عندنـا في البيـت، هـل يسـمح وقتـك بذلـك؟

فكر حسين قليلًا قبل أن يُجيب:

ـ بالطبع يسمح.

وتذكـر موعـدًا ضربـه لـ«عبدالقـادر» في أحـد مقاهـي سـوق الحميديـة، فقـال:

ـ أوووه. تذكرت موعدًا في الغد بوسط المدينة.

عقد الضيف حاجبيه وقال مُستنكرًا:

ــ غـدًا في وسـط المدينـة. هـذا خطـر يـا بُـني. أنـت تـرى المُظاهـرات في الشـوارع، والنـاس غاضبـون بعـد اسـتقالة حكومـة مـردم، وأنـت مهمـا كنـت غريبـا، والصالـح ألا تخـرُج حـتى تهـدأ الأمـور.

ـ لكنني على موعد مُهم مع صديق.

قاطعه الرجل:

ـ أرجوك أن تتصل به لتدعوه ليُشرفنا. أصدقاؤك هُم أصدقاؤنا.

فكَّر قليلًا ثُم هزَّ رأسه موافقًا، وسأل الرجل:

ـ ماذا تتوقع أن يحدُث حال استمرار غضب الناس؟

t.me/qurssan

اعتدل الرجل للخلف مُعتزًا باعتباره أهلًا للرأي، وقال:

ـ اسمع يا بُني. الناس في بلادنا تبحث عن الأمن والاستقرار، لذا فإنَّهم يُحبون حُسني الزعيم، الذي نشر قواته في شرق البلاد وعرضها. وأعتقد أنَّه سيُمسك بالسُلطة، لأنَّه الأقوى.

ثُم قال بحكمة الواعظ:

ـ السُلطة تذهب دائمًا للأقوياء وليس للأتقياء.

ابتسم «حسين» للمقولة وردَّدها في خياله.

***

كانت المائدة عامرة بأشهى المأكولات السورية، وحولها جلس «حسين» و«عبدالقادر» و«الحاج شاكر الحميدي» وزوجته وابنتاه. شعر «حسين» بالأُلفة والرضا مُستعيدًا التفاف عائلته حول مائدة الغداء أيام الجُمع، حين كان والده حريصًا على الجلوس مع أسرته. سرت في شرايينه غبطة تذوق الطعام البيتي بعد شهور طويلة من سدّ الجوع بما تيسر من طعام المطاعم والفنادق والأكلات الجاهزة، واشتم رائحة أمه الحنون في الأبخرة المُتصاعدة من الدواجن المشوية، والخضروات الساخنة. قرأت عيناه ملامح اهتمام على وجه «سُعاد» كُلما رنا نحو عينيها الساحرتين. شعر بالإثارة وهو يرمق ضفيرتها الطويلة حالكة السواد، وهي تتدلى خلف ظهرها المُعتدل، ثُم نظر بتلصص نحو شقيقتها الصُغرى فلاحظ سكون ملامحها وتركُز نظرتها نحو الأرض، بينما كان وجه «عم شاكر» مُتهللًا ومُنبسطًا وهو يحكي عن مشاغبات ابنه الوحيد.

قالت الأم إنَّها تُحب المصريين وتأمل أن يطيل الله عُمرها كي تفلح يومًا في زيارة القاهرة ورؤية نهر النيل والأهرامات.

بدا عبدالقادر ساكنًا كعادته عندما فاجأه سؤال الأم عن عملهما

ليحمر وجهه شاعرًا بارتباك شديد لم يطل حيث بدده قول «حسين»:

ـ نحن نعمل بالتجارة.

هزَّ الرجل رأسه، وبدا أنَّه غير مُقتنع بذلك، فقال:

ـ الأجواء الحالية في مصر وسوريا لا تصلح للتجارة.

وأضاف وهو ينظر نحو ابنته الكُبرى:

ـ ظروف الحرب في فلسطين، وأعمال الشغب الجارية هُنا دفعت سُعاد أن تترك التعليم، مُكتفية بالوصول لأولى ثانوي. أما فاطمة فقد قررت من البداية أن تتفرغ لمهنة الخياطة، إنها ماهرة للغاية.

ـ عظيم.

قالها «حسين» رامقًا «سُعاد» بنظرة استكشاف.

بدت «سُعاد» مُبتسمة، رائقة المزاج، وهي ترُد نظرات حسين الفاحصة. قالت في سرّها إن الشاب المصري يبدو خجولًا، ونبيلًا، وميسور الحال. أما صاحبه فأشد خجلًا منه، لكنَّهما يخفيان وراءهما الكثير.

قال صاحب البيت موجهًا حديثه إلى «حسين»:

ـ كما قلت لك أستاذ حسين. لن تهدأ الأمور في دمشق إلا إذا تولى حُسني الزعيم السُلطة بشكل مباشر. لا تُصدق أن تشكيل خالد العظم للحكومة سيُهدئ من حالة الغضب العارم بين الناس.

ـ لكنَّه أعلن أن أحد أولوياته تحرير فلسطين.

قالها «عبدالقادر» باهتمام، فردَّ «شاكر» ساخرًا:

ـ كُلهم يدّعون ذلك ليسكت الناس عن فسادهم وفشلهم.

وافقه «حسين» قائلًا:

ـ صحيح الكُل يُتاجر بفلسطين.

t.me/qurssan

ـ سينصرُنا الله على اليهود.

تمتمت «سُعاد»، فرمقتها أمها بنظرة عتاب، ثُم سألت «حسين»:

ـ قُل يا بُني: أين تسكن في مصر؟

ـ في القاهرة.

ثُم أشار لصاحبه قائلًا:

ـ وعبدالقادر من الاسكندرية.

وعلا صوت شاكر قليلًا:

ـ أنتم لا تأكلون.

ـ لا، لقد أكلنا أكثر من المُعتاد. نحن نقول في القاهرة «دايمًا عامر».

شكراه، وقاموا ليجلسوا معًا في غرفة الصالون بينما غابت النسوة لإعداد الشاي والحلويات، وانتهز ربُّ البيت الفرصة ليقول لضيفيه:

ـ اسمعا. أنا أعرف أنكما لا تعملان بالتجارة، لكن يبدو أيضا أنكما أولاد ناس. بالتأكيد لستما لصين أو مُجرمين.

استغربا، فواصل قائلًا:

ـ الواضح والمؤكد أنكما هاربان سياسيًا أو أتيتما هُنا للتطوع للحرب في فلسطين.

أشعل «حسين» سيجارة وبدا عقله يدور بأفكار شتى، قبل أن يهزّ رأسه مُكررًا:

ـ صحيح عم شاكر. أنت رجل صالح.

انبسطت ملامح الرجل قليلًا وسأل:

ـ هل تأمناني على سركما؟

تبادل «حسين» وصاحبه النظر قبل أن يُقرر «حسين» بهدوء أن يقُص على الرجل حكايته كهارب من مطاردة المُحتلين والخونة، ثُم قرر أنَّ «عبدالقادر» مثله تمامًا، لكنه كان يُجاهد في الإسكندرية. نظ

t.me/qurssan

الرجل نحوهما بامتنان، ثُم قبّلهما بحنوٍ قائلًا:

ـ أنا أعرف ذلك.

استغرب «حسين» وسأل:

ـ كيف عرفت؟

ـ قرأت عن قضيتك بالأهرام، ومُنذ سكنت هُنا انتابني الشك، وقد رأيت يومًا أحد المُخبرين يسير وراءك، فعلمت أنَّك الهارب في قضية أمين عُثمان.

ـ يااااه. أنا تحت المُراقبة؟

ـ بالطبع. لكن. لا عليك. كُلنا تحت المُراقبة، والمُخابرات هُنا تُتابع رضا كُل مَن يُجاهد ضد الاستعمار أو إسرائيل.

وأخذ الرجل من ابنته صينية الشاي وأطباق الحلويات، ثُم قال لـ«حسين»:

ـ يا بُني أريد أن تعتبرني مثل والدك تمامًا. لقد كُنت في شبابي أحد المُجاهدين ضد الاحتلال الفرنسي، وبعد التحرير تفرّغت لأسرتي.

ـ سنواصل العمل الفدائي، لكنَّ هذه المرة ضد إسرائيل.

قالها «حسين» وهو يُمسك بكوب الشاي، قبل أن يستمع لحكايات شتى حول بطولات الرجل في العمل الفدائي قبل سنوات.

***

«السياسة تُفسد الأمن». قالها لنفسه وهو يُعيد قراءة ملف طالب الطب البيطري أحمد عبدالمجيد. حدّق الضابط «إبراهيم إمام» في الملف المُتخم بالأوراق الموضوع أمامه، وهو يسترجع نجاحاته في حلّ الألغاز وقراءة وجوه القتلة مُبكرًا. تذكّر «حسين توفيق»

وصُحبته، وقال لنفسه إنَّ مُهمته انتهت عند تقديمه للمحاكمة، لكن تدخل الملك ورجاله والتنظيمات السرية الموالية له ساعده على الهرب من وجه العدالة. إنَّه على يقين من ضلوع زميله اليوزباشي «محمود موسى» في تهريب الولد الخطير. نظر مرة أخرى لملف «أحمد عبدالمجيد»، وقال في سرّه: هذه المرة أفلت الجاني قبل ارتكابه الجريمة بفضل سذاجة أكبر رأس في هذا البلد بعد الملك، ثُم بهدوء وبدمٍ بارد حطّم ذلك الرأس.

«كُنت دائمًا على صواب، وكانوا على خطأ» قالها «إبراهيم إمام» لـ«عبدالرحمن عمّار» وكيل وزارة الداخلية عندما سأله كيف تمكّن طالب صغير من الوصول لوزارة الداخلية، وإطلاق الرصاص على رئيس الوزراء ليُلحقه بصديق عمره «أحمد باشا ماهر». قبل الحادث بثلاثة أيام بالضبط، عرض الضابط الثعلب على رئيس الوزراء تفاصيل مؤامرة قال إنَّ عددا من شباب الإخوان يدّبرونها لاغتياله وكان على رأس المُتآمرين الطالب «أحمد عبدالمجيد»، لكنَّ «النقراشي باشا» هوّن من الأمر، ورفض إصدار أمر باعتقال أحمد عبدالمجيد، وقال لإمام ناصحًا:

ـــ هؤلاء الأولاد مازالوا صُغارًا.. طلبة. حاول أن تستوعبهم يا إبراهيم لا تعتقلهم.

قدره. قالها أكثر من صديق مُعلقًا على الحكاية، لكن الضابط المُخضرم الذي قفزت به كفاءته بُسرعة من يوزباشي إلى بكباشي، ثُم قائمقام، كان يعي أن الصُغار أكثر خطرًا من الكبار، وأنَّ استيعاب الطلبة الساعين نحو الدم مُستحيل. إنَّه مؤمن أنَّ الساسة لا يفهمون في الأمن، وأنَّهم بعيدون كُل البُعد عن فهم أدمغة القتلة والمُجرمين. لقد حقق من قبل عشرات القضايا، وتابع كيف تحوَّل شاب مهووس مثل «حسين توفيق» من قاتل إلى رمز، ومن مُجرم إلى بطل. فكَّر أنَّ الإرهاب تجاوز كُل حدوده، تارة تحت لافتة الوطنية

ومقاومة الإنجليز، وتارة أخرى تحت لافتة نصرة الإسلام. مُنذ قتلوا «أحمد باشا ماهر» أمام البرلمان والعُنف يطغى ودوارق الدم لا تكف عن تلطيخ المشهد، فبعده قُتل أمين عثمان، ثُم قُتل القاضي «أحمد الخازندار»، وتوالت عمليات التفجير ليتم نسف سينما مترو، ثُم شركة الإعلانات الشرقية، ومحلات بنزايون، وحارة اليهود، وغيرها، كما قُتل «سليم زكي» حكمدار القاهرة نفسه بُقنبلة في وسط القاهرة.

وهاهُم طلبة الإخوان يُكملون المشهد بقتل رئيس الوزراء بواسطة طالب لم يتجاوز الواحدة والعشرين ارتدى بذلة ضابط شُرطة ودخل إلى وزارة الداخلية ليُطلق أربع رصاصات على ظهر الرجل. قال «إبراهيم إمام» لنفسه إنَّ عدد التنظيمات المُسلحة في مصر يزيد على عدد الأحزاب، وما دام الكبير يؤمن بسياسة التصفية ويُنشئ الميليشيات السرية الموالية له، فإنَّ الحركات والتنظيمات الأخرى ستحذو حذوه، وما الإخوان منهم ببعيد. ورنا بذاكرته لسنوات مضت كان يخرُج فيها طلبة الإخوان مُنددين بالوفد وبُدعاة الديمقراطية لإرضاء الملك، متوقعًا انقضاء شهر العسل قريبًا بعد أن طال الخطر أقرب المُقربين من الملك نفسه.

فكَّر كثيرًا وهو يُراجع تقريرًا وضعه «إبراهيم باشا عبدالهادي» حول الإجراءات الأمنية الموصى بها لكبح جماح الجهاز الخاص للإخوان، ثُم لفتت نظره عبارة مدوّنة من ضابط البوليس السياسي الموالي للسراي «محمود موسى»، التي أوصت باعتقال كُل أنصار «حسن البنا» والمُحيطين به، وتركه وحيدًا. قلّب «إبراهيم إمام» الورقة أمامه وقال وهو يُمصمص شفتيه «سيُقتلونه بكُل تأكيد. يا له من ساذج». نظر إلى ساعته فوجدها تجاوزت الحادية عشرة، وقرر أنَّ عليه المُغادرة، فهو في حاجة للراحة، ومضى إلى بيته في برود اللا مُهتم.

***

رسم «حسين» خطة العملية الأولى. اشترى الأدوات والأسلحة وجهّز المسرح كما اعتاد في القاهرة. سيكون يوم السبت مُناسبًا لوأد أي أنفاس تستعر في ذلك المعبد القديم بالحي الغربي من العاصمة السورية، والذي يعود للقرن الأول بعد ميلاد المسيح. كان مشهد تجمع العائلات اليهودية أمام المعبد الكبير في حي جوبر مُستفزًا لـ«حسين» وزُملائه مثلما كان مُستفزًا للسوريين أنفسهم الذين دبَّروا أكثر من واقعة اعتداء على محلات ومُنشآت يهودية. في الصباح سيدفع «مُصطفى كمال» عربة توت مُحمّلة بالقنابل ليمُر أمام المعبد، وسيرابط «عبدالقادرعامر» فوق سطح إحدى البنايات العالية المجاورة ليطلق رصاصه نحو العربة لتنفجر، في الوقت الذي سيقف فيه حسين أمام بوابة المعبد لقنص كُل هارب من رواد المعبد بعد حدوث الانفجار. أما «محمد» فستكون مُهمته تأمين هروب «حسين» بعد قتل أكبر عدد من الزوار اليهود.

في الصباح غادر «حسين « حاملًا مُسدسه الجديد الذي اشتراه من أحد تُجار دمشق ووصل إلى المقهى المُجاور للمعبد لينتظر بهدوء موعد التنفيذ. طلب شايًا وأشعل سيجارة ولاحت على وجهه ابتسامة رضا، وهو يتذكر القُبلة المطبوعة على خدّه من جارته «سُعاد» التي أصرت أن تغسل له ملابسه. فكَّر كم هي رقيقة بلهجتها الشامية، وصوتها الهادئ، وعينيها الناعستين. قال لنفسه إنَّها نموذج جميل للفتاة الصلبة، الجريئة التي تقف أمام الأزمات غير عابئة أو خائفة. لقد كان صديقه «عبدالقادر» مُصيبًا عندما أخبره بأنَّ هذه الفتاة تُحبه، مُدللًا على ما يقول بأنَّ عينيها لم تُفارق طلعته مُذ جلسا معًا على مائدة الطعام قبل أسبوعين، وفيما بعد أخبرته هي بنفسها أنَّها مُعجبة بأناقته وشخصيته، قبل أن تؤكد ذلك بالأمس عندما طبعت قُبلة على وجهه. فكر أنَّها أرق وأجمل وألطف من «سناء» و«ميمي» وفتيات جروبي والنادي والعائلات المصرية المُتكلفة.

t.me/qurssan

رشـف شـايه، مُحفـزًا عقـارب السـاعة عـلى التحـرك ليحـين الموعـد المُحـدد في الثانيـة ظهـرا. تذكَّـر مـا قالـه الليلـة الفائتـة لزملائـه بـأنَّ قتل اليهـود هـو أفضـل انتقـام يُمكـن الـرد بـه عـلى المذابـح الداميـة لعصاباتهـم في فلسـطين. السـكوت جريمـة، والصفـح عـار سـيُلاحقنا إلى الأبـد. هكـذا قـال لأصحابـه وهـو يرسـم لهـم خطـة التنفيـذ. عـرض عليـه «عبدالقـادر» التعـاون مـع أي مـن المجموعـات السـورية المُسلحة لتنفيـذ العمليـة في إشـارة منـه لتعرفـه عـلى أفـراد بتنظيـم يحمـل اسـم «كتيبـة الفـداء» تمكـن مـن ذبـح 20 يهوديًـا في حلـب، لكنَّـه أبى مؤكـدًا أنَّ المجموعـة يجـب أن تبقـى مصريـة خالصـة، حـتى يُصبـح لهـا شـأنها عندمـا تعـود إلى مـصر.

سـمع حـوارًا دائـرًا بـين رجلـين يجلسـان عـلى المقهـى حـول سـيطرة حُسـني الزعيـم عـلى مقاليـد الأمـور في البـلاد. «إنَّـه كُل شيء الآن، ولا أحـد يتحـرك دون إذنـه، ولـم يبـق أمامـه سـوى الإعـلان رسـميًا عـن رئاسـته لسـوريا»، قـال أحـد الرجلـين. فكَّـر «حسـين» في كلام جـاره «شـاكر الحميـدي» حـول علـم المُخابـرات بوجـوده وتحركاتـه، وصمتهـا عليـه باعتبـاره يُنفـذ مطالـب ورغبـات الشـارع السـوري في الانتقـام مـن الصهاينـة المُعتديـن. لاحـظ باعـة جائلـين يمـرون أمامـه وتذكـر شـوارع وسـط القاهـرة بصخبهـا وحيويتهـا وفكَّـر أنَّـه لا يشـعر بالغُربـة في دمشـق قريبـة الشـبه بالقاهـرة.

نظـر في سـاعته فوجدهـا تقـترب مـن الثانيـة، فقـام مُغـادرًا بعـد أن دفـع الحسـاب، ووقـف بمدخـل أحـد البيـوت المُقابلـة للبـاب الرئيـس للمعبـد مُنتظـرًا حـدوث الانفجـار، في الوقـت الـذي لمـح فيـه «مُصطفـى كمـال» يسـير بسُرعـة تـاركًا خلفـه عربـة التـوت. انتظـر دقائـق متوقعًـا أن تُصيـب رصاصـات «عبدالقـادر» القنابـل المُخبـأة بالعربـة لتنفجـر مُعلنـة بـدء معركـة المعبـد اليهـودي، لكـنَّ أملـه خـاب عندمـا فوجـئ بصبـي صغـير مـن المـارة في العـاشرة مـن عمـره يقـترب مـن العربـة ليلتقـط بكفـه بعـض

التـوت الموضـوع في عُلبـة مـن الصفيـح ليُخبئـه في جيبـه، وشـعر بالخـوف أن يظـل الصبـي واقفًـا لفـترة لسرقـة التـوت. قـال لنفسـه إنَّ «عبدالقـادر» قـد يتراجـع عـن إطـلاق الرصـاص عـلى العربـة خوفًـا عـلى الصبـي، وهـو مـا يُهـدد بفشـل العمليـة بالكامـل. مـرّت الدقائـق بطيئـة مُزعجـة دون انفجـار وقـدّر أن اسـتمرار وقـوف الصـبى يُهـدد بكشـف العربـة الـتي تركهـا صاحبهـا واختفـى عـن الأنظـار. فكـر للحظـات قبـل أن يتخـذ قـراره، وقـام عـلى الفـور بتجـاوز بوابـة المعبـد اليهـودي بسرعـة دفعـت الحـارس الواقـف أن يصيـح بـه طالبًـا التوقـف، لكنّـه واصـل طريقـه ببرود مُعتـاد، ولـم تمُـر لحظـات حـتى سـمع دوي انفجـار كبـير رُجـت الأرض عـلى إثـره، وجـرى النـاس يمينًـا ويسـارًا في حالـة فـزع شـديد، بينمـا غطـى الدُخـان سـماء حـرم المعبـد لتسـود حالـة مـن الفـوضى العامـة. أخـرج مُسدسـه ليُبـصر «عبدالقـادر» و«محمـد المرصفـاوي» إلى جـواره يُطلقـان رصاصهمـا عـلى الأجسـاد الهاربـة. ولـم تمُـر لحظـات أخـرى حـتى لمـح ثلاثـة شـباب مُلثمـين يقفـون داخـل حـرم المعبـد ويُطلقـون رصاصهـم عـلى الـرواد مـن الرجـال والنسـاء، فواصـل قنـص الهاربـين، حـتى فرغـت خزنتـه، ثُـم أخـرج مُسدسًـا آخـر، ليصطـاد بـه كهـلًا سـمينًا خـرج مفزوعًـا، ثُـمَّ لاحـت أمامـه سـيدة عجـوز هدّهـا الوهـن، وبـدت هدفًـا سـهلًا في ظلّ الدُخـان المُتصاعـد، فضغـط عـلى الزنـاد مُقـررًا أن زمـن التفرقـة بـين النسـاء والرجـال انتهـى، وأنَّ إسرائيـل تُجنّـد النسـاء اليهوديـات، لتسـقط بـلا حـراك.

بـدأ الانسـحاب رويـدًا وهـو يسـتعذب أزيـز الرصـاص، مُسـتمتعًا بصرخـات الهلـع مـن رواد المعبـد مـن اليهـود، شـاعرًا أنَّـه يسـتمع لسـيمفونية رائعـة لبيتهوفـن. مـا أجمـل السـماء المُغطـاة بدُخـان الانفجـارات. قالهـا لنفسـه قبـل أن يعـود إلى بيتـه بـذات الخُطـى البـاردة دون مُطـارد أو تابـع.

***

t.me/qurssan

في الصباح تصدَّر خبر انفجار المعبد اليهودي صُحف دمشق. اكتشف «حسين» ورفاقه أنَّ حصيلة العملية بلغت 12 قتيلًا من بينهم امرأتان وطفل صغير وأكثر من ثلاثين مُصابًا. التقوا في ضريح صلاح الدين الأيوبي إلى جوار المسجد الأموي يتحدثون عن نتائج العملية. سأل «حسين» زُملاءه عن أولئك المُلثمين الذين وقفوا إلى جوارهم يُطلقون معهم الرصاص لكنَّه لم يتلق إجابة شافية. لا أحد يعرفهم، ولا يعرف كيف جاءوا، ولا من أين، والغريب أنَّهم لم يحاولوا التعرض لهم بتاتًا خلال العملية أو بعدها.

قال «عبدالقادر» بنبرة صدق حاول فيها تحليل ما جرى:

ـ إنَّ هُناك مجموعات أخرى عديدة محسوبة على الفدائيين السوريين والفلسطينيين تعمل بشكل سري في قتل اليهود والأجانب وتتواجد في عدة مُدن سورية، وإحدى هذه المجموعات تُسمى كتيبة الفداء، وأنا شخصيًا أعرف اثنين من أعضائها يقطنان في المارجة.

رفع «حسين» كفيه مُظهرًا قراءة الفاتحة داخل الضريح، قبل أن يقول بغضب:

ـ لا يُمكن أن تكون مُصادفة. لو سلمنا أنَّ هؤلاء الذين وقفوا معنا يُطلقون الرصاص يحملون نفس أفكارنا ويعملون مثلنا على ضرب اليهود في كُل مكان، فكيف لهم أن يعرفوا بتوقيت المُهمة؟ هل أنتم متأكدون أنَّ أحدًا لم يُحدّث أي شخص حول ما سيتم تنفيذه؟

ثُم نظر إلى «عبدالقادر» سائلًا:

ـ ألم تقترح أن نتشارك في العملية مع كتيبة الفداء التي تتحدث عنها؟

همس «عبدالقادر» قائلًا:

ـ أُقسم بالله العظيم أنَّ توقيت المهمة لم يخرُج إلى أي شخص في أي تنظيم، وما اقترحته قبل العملية من التعاون مع كتيبة الفداء

كان مُجرد اقتراح، ونسيته تمامًا عندما رفضت أنت.

نظر «مصطفى كمال» إلى «عبدالقادر»، وقال:

ـ أتمنى ألا أكون مُتهمًا بإفشاء سر العملية.

ـ وأنا كذلك.

ردَّد «محمد المرصفاوي» ليُعلق «عبدالقادر» سريعًا:

ـ يا رفقاء أنا على ثقة تامة منكما.

ونظر إلى «حسين» وقال:

ـ مصطفى ومحمد لا يكذبان أبدًا. أتصور أنَّ المجموعة التي شاركتنا العملية كانت تُراقب المعبد اليهودي مُنذ فترة، ثُم انتهزت فرصة هجومنا عليه لينتهز المراقبون الفرصة ويقاتلوا إلى جوارنا، وليس أدلّ على ذلك من كوننا انسحبنا بهدوء دون أي كلام من هؤلاء، بل أعتقد أنَّهم مهَّدوا لنا طريق الخروج من هُناك.

خرجوا ليجلسوا معًا على أحد المقاهي، أشعلوا سجائرهم قبل أن يتركهم «محمد» لشراء ساندوتشات شاورمة، ليعود إليهم شاحبًا وفي يديه إحدى الصُحف الفرنسية. بدا الامتعاض مطبوعًا على وجهه قبل أن يرفع الصحيفة أمام «حسين» قائلًا:

ـ تصوروا. لقد مات صبي صغير كان يمُرّ خارج المعبد من جراء الانفجار. هذه الصحيفة نشرت صورته.

ثُم قال:

ـ هو طالب بالإعدادي اسمه إلياس حسان، وهو ليس يهوديًا.

ـ مُسلم؟

سأل «مصطفى»، فأجاب «محمد» قائلًا:

ـ نعم.

هز «حسين» رأسه وقال:

t.me/qurssan

ـ هـذا الولـد لـص. كان يـسرق التوت، وتسـبب في تأخـير موعـد العملية لعـدة دقائق.

ـ نعم.

قالها «عبدالقادر»، وأضاف:

ـ ترددت كثـيرًا قبـل إطـلاق الرصـاص بسـببه، لكـن في النهايـة كان لابـد من حسـم الأمـر.

فـكّ «حسـين» لفـة الطعـام ليتنـاول ساندوتشًـا قبـل أن يقـول موجهًـا حديثـه إلى «محمـد»:

ـ اسـمع يـا محمـد. في بعـض الأحيـان، تضعـك الظـروف في مواقـف صعبـة، لا تختارهـا لكنّهـا تُفـرض عليـك فرضًـا. ومـا حـدث للصـبي حرامي التـوت وارد التكـرار في عمليـات أخـرى، ولابـد مـن عـدم الالتفـات لأي شيء يُهـدد بفشـل العمليـة أو سـقوط مُنفذيهـا.

ثُم قال بثقة الخبير:

ـ في عمليـات بطوليـة عديـدة فقـد الفدائيـون أرواحهـم بسـبب النُبـل الزائـد والشـهامة.

هزّ «محمد» رأسه تسليمًا، وقال «عبدالقادر»:

ـ أوافقك الرأي.

ـ وأنا أيضًا.

قالها «مصطفى كمال»، وهو يلتهم ساندوتش الشاورمة الساخن.

***

فتح «حسين» باب شقته بعد أن عاد من احتفال بنجاح العملية في أحد البارات القديمة بصُحبة «عبدالقادر»، والذي أخبره بنبأ اغتيال الشيخ «حسن البنا» في القاهرة. دلف إلى الداخل مُستعيدًا قول صاحبه بأنَّ فلول الإخوان في سوريا يقولون إنَّ الشيخ البنا قُتل بواسطة أحد الأجهزة السرية التي يُديرها الملك فاروق، وفكّر للحظات أنَّه ربما نفذَ عملية اغتيال «أمين عُثمان» لصالح الملك دون أن يدري. حدّث نفسه بأن قتل زعيم الإخوان المُسلمين بهذا الشكل يؤكد أنَّه لا أمان للملك أو رجاله أو المُتصلين بالسراي، وأنه ربما يُضحي بأي شخص في سبيل تحقيق آماله. أضاء نور الصالة فلاحظ مظروفًا تم دفعه من تحت الباب، فسارع لفضِّه متوجسًا خيفة. قرأ خطابًا بدون توقيع من مناضل عربي إلى المناضل «حسين توفيق» يُثمّن بطولته وشجاعته ويُحيي فيه إقدامه على الانتقام لدماء الفلسطينيين في دير ياسين. وقال مُرسل الخطاب إنَّ طريق العملية القادمة مرسوم بعناية، وأنَّه يترك تحديد موعد التنفيذ له، موضحًا أنَّ هُناك جاسوسا بريطانيا يقطُن في الناحية الشرقية من جبل قاسيون في منزل فخم، واسمه سترلينج، يعمل مراسلًا لجريدة «التايمز». وذكر الخطاب أنَّ الرجل يستيقظ في السابعة صباحًا ويذهب إلى مكتب الجريدة في الثامنة ويظلُّ مُتنقلًا بينه وبين الهيئات الحكومية والسفارة البريطانية حتى السادسة مساء حيث يعود إلى البيت. أضاف الخطاب أنَّه لا يوجد لدى الجاسوس أي حُراس، وكُل مَن يعيشون معه هُم سائق وخادمة وسُفرجي، وأنَّ لديه بُندقية سريعة الطلقات في منزله، فضلا عن مُسدسات متنوعة.

واعتبر «حسين» الخطاب دليلا على صحة استنتاج «عبدالقادر» بشأن وجود تنظيم مُشابه ومُقارب في التوجهات، لكنَّه شعر بالحيرة عن السبب الذي دفع ذلك التنظيم إلى إهداء المعلومات حول سترلينج له بدلًا من القيام مباشرة بالاغتيال مباشرة.

t.me/qurssan

في الصباح وعلى مقهى الصالحية الأكبر جلس «حسين» مع «عبدالقادر» يُناقش مكاسب العملية الجديدة، مؤكدًا أنَّ الهجوم على الجاسوس البريطاني سيحقق ردعًا للمخابرات البريطانية، وسيُسعد الشارع الرافض للتدخل الأجنبي في شئون البلاد، وسيوفر للتنظيم أسلحة عديدة ومتطورة يمتلكها سترلينج. إنَّهم في حاجة أيضًا للمال، ومثل هذا البيت سيكون غنيًا بالذهب والأموال اللازمة لتمويل المزيد من العمليات. ودعا «حسين» صديقه إلى أن يحاول التحقق من صحة المعلومات الخاصة بالصحفي البريطاني وفي حال ثبوتها، سيتم التنفيذ في أقرب وقت ممكن.

في اليوم ذاته لم يرفض «حسين» طلب «سُعاد» أن يصحبها في نزهة نحو حديقة الحيوانات، ليتلقى سيلًا من الأسئلة الساذجة عن أهله، ووالدته، ومدرسته، وأصدقائه، وملابس الفتيات في القاهرة، والمطاعم والمتنزهات. سألته إن كان أحب، فروى لها قصصًا عديدة من مغامرات وهمية، ونساء جميلات، وأحلام طوتها الغُربة، وأمانٍ خنقها القلق.

ـ ما آمالك؟

ردّ بأنَّه موجوع بتحرير الشعوب العربية من الحُكام الخونة، والمُحتلين.

قالت له:

ـ ألا تخاف؟

صارحها بما يشعر به، وكان مُحقًّا بأنه لم يخف قط. قال إنَّه كان مُنذ الصغر يشعر بأنه مُختلف، لا تستهويه لعب الأطفال الساذجة، ولا يخاف من حكايات الغول الخارق للطبيعة، يُنكر وجود العفاريت، ولا يأبه بتهديد الكبار له. دار بخلده أنه أقسى مما تتصور، وقال لنفسه دون أن يُطلعها على ذلك أن الشفقة كلمة لم يحملها تجاه إنسان. إنَّه صلب كالصخر، بارد كالثلج، خاوٍ من أي مشاعر حُب إلا

t.me/qurssan

للأوطـان والأبطـال.

لامســت كفــه يدهــا الدافئــة ليتســلل شــعور صــارخ بالإثــارة نحــو جســده، مُتذكــرًا أنَّــه مــا لامــس أُنــثى مُــذ فــارق بجســده بلــده الأم. فكَّــر أنَّ الأبطــال والزعمــاء التاريخيــين في حاجــة لكبــت أحاسيســهم ومحــو ملامــح الضعــف الإنســاني عــن أجســادهم. سـحب يـده بـبرود، وســأل فتاتــه في اســتعلاء عــن حقيقــة مشــاعرها تجاهــه. بـدت مُرتبكـة وهــي تتلعثــم مؤكــدة أنَّــه أول رجُــل في حياتهــا تخــرج إلى جــواره. قالـت لــه إنَّ شــعورًا مُتعاظمًــا بالأمــان ينتابهــا كُلمــا وقفــت إلى جــواره. أفضـت إليــه بأنَّهــا تشــعر بالحيــاة تبتســم كُلمــا نظــرت نحــو وجهــه، إنَّــه رجُــل كمــا ينبغــي للرجولــة أن تكــون، فيــه ســمات الشــهامة، وكبريــاء القــوة، وصرامــة الشُــجعان. امــتن لمديحهــا وســألها في بــرود:

ـ هل تتزوجينني؟

بدون تردد أجابت:

ـ طبعًا.

مــرَّت الأيــام رتيبــة في انتظــار رد «عبدالقــادر» قبــل أن يُقــرر بصحــة المعلومــات حــول عنــوان مُراســل التايمــز. في الليلــة الموعــودة، كــسر «عبدالقــادر» نافــذة ســترلينج ليدلــف «حســين» ومــن معــه إلى غرفــة النــوم الهادئــة، لــم يُبــد الصحفــي المُتهــم بالتجســس أي مقاومــة، إذ طعنــه «حســين» بســكين حــاد في جانبــه الأيمــن، قبــل أن يُفتــش دولابــه بحثًــا عــن الأســلحة والأمــوال، دون طائــل. نضــح الــدم غزيــرًا فــوق الفــراش، وغــادر «حســين» وزُمــلاؤه بعــد أن أحســوا بالقلــق بعــد ســماع صــوت ســيارات قادمــة.

***

t.me/qurssan

فاتـح «حسـين»، «شـاكر الحميـدي» في طلـب ابنتـه للـزواج، فلـم اجئـه ابتسـامته ولا ردّه السريـع بمُعانقتـه وتقبيلـه، وكأنَّ الرجـل ينتظـر أمرًا كهـذا، فيمـا أطلقـت الأُم زغاريـد قالـت إنهـا تعلمتهـا مـن مشـاهدة الأفـلام المصريـة. بكـت «سُـعاد» فرحًـا وهـي ترنـو لكـف والدهـا محتضنـة كـف «حسـين» يقـرآن معًـا الفاتحـة، مُحدديـن الجُمعـة الأولى من شـهر مـارس موعـدًا للـزواج.

سُر «عبدالقـادر» بالنبـأ، وقـال لـ«حسـين» إنَّ إقدامـه عـلى الـزواج في الشـام يعـني بأنَّـه يُخطـط للاسـتقرار فيهـا وتأسـيس أسرة بهـا. وأخـبره بأنَّـه علـم أنَّ مُراسـل التايمـز لـم يمُـت، وأنَّـه قـرر مُغـادرة البـلاد لعـدم شـعوره بالأمـن، في الوقـت الـذي ألمـح فيـه «عبدالقـادر» لـضرورة التريُّـث والحـذر في تنفيـذ عمليـات جديـدة لأن هُنـاك اختراقـا واضحـا لعملياتهـم. شـعر «حسـين» بـضرورة التشـاور مـع كتيبـة الفـداء للتأكـد إن كانـت عـلى علـم بعملياتـه أم لا، والتعـرف عـلى كيفيـة كشـف الاختراق لمجموعتـه، وبالفعـل «رتـب عبدالقـادر» لقـاءً بـين «حسـين» وطالـب سـوري بالجامعـة الأمريكيـة اسـمه «هـاني الهنـدي» في أحـد المطاعـم النائيـة بأطـراف العاصمـة. كان «هـاني» طويـل القامـة، أبيـض البـشرة، مُسترسـل الشـعر، هـادئ الملامـح، كثـير التلفُّـت، رخيـم الصـوت، وهـو مـا جـدَّد في ذهـن «حسـين» لقـاءه الأول بـ«أنـور السـادات». سـأله «حسـين» عمـا فعلـه تنظيمـه فأجـاب بـأنَّ مـا فعلتـه كتيبـة الفـداء يبقـى سرًا مـن أسرارهـا لا يجـوز الحديـث عنـه، ثُـم أضـاف إنَّـه لـولا معرفتـه بـ«عبدالقـادر عامـر» مـا وافـق عـلى لقائـه خاصـة أنَّـه يعـرف جيـدًا أنَّـه مرصـود مـن أجهـزة الأمـن. بـدا «هـاني» مُدققًـا في وجـه «حسـين»، مُسـتقرئا لـه قبـل أن يسـتمع منـه لملخـص عملياتـه في دمشـق. ابتسـم «هـاني» ابتسـامة سـاخرة قبـل أن يصـدم «حسـين» بقولـه:

ـ لقد كُنت من البداية أعمل في خدمة الأمن السوري.

ـ الأمن؟

t.me/qurssan

سأل «حسين»، مُستنكرًا، فأجاب «هاني» بهدوء:

ـ نعم. الأمن. وتحديدا في خدمة مدير الأمن العام حُسني الزعيم.

انعقد حاجبا «حسين»، فواصل مُحدِّثه شارحًا:

ـ حُسني الزعيم من أذكى ضباط الجيش السوري، وهو رجل عمل مع الأتراك، والفرنسيين، وحارب في الحربين، وحقق أموالًا طائلة، وله أتباع ومُخبرون في كل مكان، وهو من أولئك الذين يُنفِّذون عملياتهم بأيدي غيرهم، وقد استفاد بقوة من حادث الاعتداء على المعبد اليهودي بنشر قواته في جوبر، واستفاد أيضا من حادث الاعتداء على الصحفي البريطاني سترلينج لأنه كان أحد الذين يفضحون أفعاله وعملياته القذرة، لذا فقد قدمت له خدمة عظيمة بما فعلت.

انزعج «حسين» وقال:

ـ هل يعني ذلك أنَّ رجال حُسني الزعيم هُم مَن قاتلوا إلى جوارنا يوم المعبد.

ابتسم «هاني الهندي» ابتسامة ثقة وقال:

ـ نعم، هم بلا شك. واضح أنَّه كان يُراقب تحركاتك مُنذ دخلت دمشق، وسينقلب عليك إن شعر أنك خارج سيطرته. رُبما تنفجر قُنبلة تحت منزلك فتكون نهايتك، أو يدُس عليك مَن يقنصك عن بُعد، أو يُلقي القبض عليك اشتباهًا ويُسلمك لشرطة بلادك أو أي شيء آخر.

صمت سائلًا نفسه إن كان موعودًا بالاستغلاليين القادرين على توجيهه عن بُعد، واعتبر نفسه ساذجًا بين ثعالب وذئاب. سأل طالبًا النصيحة، فقال له «هاني»:

ـ لا تُفكر بمجابهته أو تحديه. هو أصعب من أن يتحول إلى هدف. إنَّه شخص ماكر وحريص وواسع النفوذ. أفضل شيء أن تحاول مُلاطفته. قدّم له نفسك باعتبارك صديقا، وابحث عن نقاط التقاء

مع توجهاته. امنحه شعورًا بالثقة إن كُنت ترغب في استمرار العمل سوريا، وأتصور أنَّه يمكن عقد اتفاق معه.

مزيد من الخوض في الوحل. ما لأحلام البطولة والنضال تتحطم على صخور الانتهازيين؟ «محمود موسى» ساعدك لأنَّك قتلت غريم الملك، و«السادات» بنى مجده وشهرته على مغامراتك وخرج من القضية كالشعر من العجين.

ـ وفلسطين؟

سأل «حسين» بحماس، فقال «هاني»:

ـ ستواصل عملك ما دمت بعيدًا عن مصالحه. سيُخبرك بأنَّه يدعمك ويؤيدك، لكن في حقيقة الأمر فإنَّ الأمر لا يعنيه كثيرًا.

ـ شُكرًا على النصيحة.

غادر «حسين» مُسرعًا بعد أن أخفى مُسدسه في بنطاله. لم يُهدر وقتًا، إذ أوقف تاكسيًا وطلب منه أن يوصله لمركز الأمن العام في قلب العاصمة. طرق الباب، ففتح أحد الحرس المُتجهمين الذي سأله بغلظة عما يُريد، فقدَّم نفسه بهويته الفلسطينية مُطالبا بلقاء العقيد «حُسني الزعيم»، مُكررًا أنَّ لديه معلومات مهمة جدًا يجب عرضها عليه. سلَّمهم مُسدسه بعد عملية تفتيش دقيقة، ودخل إلى غرفة صغيرة ظلَّ فيها ثلاث ساعات استجاب خلالها أحد الحراس لنداءاته المُتكررة لتقديم الماء له، قبل أن يدخل إليه رجل ضخم الجُثة ليعيد تفتيشه مرة ثانية، ثُم قاده إلى بهو مُتسع مؤثث بأثاث فخيم، ومزدان بصور طبيعية لقلعة حلب وسور دمشق القديم والمسجد الأموي. نظر أمامه فوجد رجلا أبيض سمينا مُتسع العينين، يحمل ابتسامة باردة، وله عينان صاحيتان، فوجئ به يمد يده بالمُصافحة.

ـ أهلا وسهلًا أخ حسين.

قالها بصوتٍ أجش، ضاغطًا بيدٍ قوية على كف «حسين»، الذي ابتسم وجلس مُضطربًا.

ـ أنا لاجئ مصري ولست فلسطينيًا.

هزَّ حُسني الزعيم رأسه وقال:

ـ نعم. أعرف ذلك.

ـ أنا المُتهم الهارب في قضية قتل أمين عثمان.

ـ هاااا. عظيم. كان هذا الرجل من أعدى أعداء الملك. لقد أحسنت بما فعلت.

احتفظ «حسين» ببروده وقال:

ـ أطمع في رعايتك وتأمينك.

ـ لك ذلك. نحن نعلم بوجودك، ومع ذلك لم يتعرض لك أحد.

غمز الرجل بطرف عينٍ سائلًا:

ـ قُل لي لماذا قتلت أمين عُثمان؟

ـ لأنه خائن.

ـ تمام.

ـ الساسة مُخادعون وليس سوى رجال الحرب من أبطال.

ـ صحيح.

ـ أنا أمقتهم وآمل أن تنجح في إيقاف مهازل الأفاقين من رجال الأحزاب ونواب البرلمان وتُعيد لهذا البلد أمنه وقوته، خاصة أنَّه أول حائط صد ضد الصهيونية.

ـ سأفعل إن شاء الله. الشباب هُم الأمل، وسأعمل لهم من أجل سوريا عظيمة قوية ومُتقدمة.

ـ عندي معلومات عن صحفي بريطاني أظن أنَّه جاسوس على بلادكم.

t.me/qurssan

ـ هاااااااااا، لقد أحسنت صُنعًا.

لقد حاولت إنقاذ البلاد من شره، لكن...

ـ لا عليك. لقد خرج خائفًا يترقب.. ها ها ها. قُل لي يا حسين: ماذا تشرب؟

ابتسم «حسين» قليلًا قبل أن يقول:

ـ قهوة.

أخرج الرجل سيجارًا غليظًا منحه لحسين الذي سارع بإشعاله، مبتسمًا للرجل:

ـ وصلت رسالتك يا حسين. لا تخش شيئًا. امض وسنؤمنك. لكن لا تأخذ مُسدسك من الحارس. لا سلاح لك بعد اليوم.

هزَّ «حسين» رأسه، فكرر الرجل:

ـ مفهوم؟

ـ مفهوم.

وخرج مذهولًا من سطوة الرجل وقوة شخصيته.

***

اسم على مُسمى. خُلق ليحكُم. مع الخطر عاش، مُقدّرًا أنَّ المُغامرين ينالون ما يحلمون به، وأنَّ الخائفين لا يصنعون مجدًا. عبر بسيارته غير المسقوفة صفوف جُنوده المُحاصرين لقصر الرئاسة، رافعًا يمينه بالتحية، كبطل أسطوري، مُنطلقًا نحو ممر قاعة الاستقبال ليُبلغ سيده السابق، والرئيس كسير الأجنحة شُكري القوتلي نبأ عزله. تذكر «حُسني الزعيم» ما تعلمه في الجيش الفرنسي الذي وصل فيه لرُتبة العقيد بأنَّ مَن يملك القوة يملك كُل شيء ومَن

t.me/qurssan

يعرف اللحظة المواتية للتحرك يكسب المعارك. كان كُل أمله أن يحكُم سوريا، أرض الكرز والمُشمش، ساحرة الألباب، وحصن بني أمية، بيت الثقافات ومُلتقى العقائد والأفكار والمواهب. قال يومًا لوالده الذي كان مُفتيًا دينيًا إنَّ السلطة هي أجمل ما في الوجود، لكن والده كان فظًا وهو يُقرر أنَّها تقود إلى التهلُكة، مما دفعه للرد عليه بأنه على استعداد أن يقتل بشرط أن يحكم سوريا ولو ليومٍ واحد. لم تُحبطه نظرات الانكسار والخضوع البادية من عيني «شكري القوتلي» الذي كان يهز رأسه خوفًا وهو يستمع لبيان الانقلاب، وتذكر أنَّه لم يجبُن يومًا أو ينكسر حتى في أقسى المحن التي واجهها في حياته سواء مُعتقلًا من خلال البريطانيين في الحرب العالمية الأولى، أو مُعتقلًا من جانب الفرنسيين في الحرب الثانية.

أمر «حُسني الزعيم» بسجن رئيس الجمهورية، ورئيس الوزراء في مُستشفى المُزة، كما قام باعتقال كبار الضباط الموالين لهما، فضلًا عن الصحفيين المُنتمين لحركات اليسار والقوميين. كما قام بالقبض على «ميشيل عفلق» مُنظّر حزب البعث العربي وبدأ حملة تشويه وملاحقة واسعة للمسئولين الحكوميين واحدًا وراء الآخر، قبل أن يُعلن حلَّ البرلمان رسميًا. في الوقت نفسه نظَّم من خلال عملاء للمخابرات مُظاهرات عارمة جابت شوارع دمشق للمُطالبة بترشحه لرئاسة الجمهورية وتعطيل العمل بالدستور، وإعلان حظر التجوال.

كان السوريون حائرين بين الخوف والأمل، يُقدمون قدمًا ويؤخرون أخرى، ولا يدرون إن كان ما جرى خيرًا أم شرًا. البعض مثل هاني الهندي كان واضحًا بأنّ ما جرى هو انقلاب من ديكتاتور صغير على ديكتاتور أكبر منه، بينما كان «شاكر الحميدي» يرى أنَّ سوريا في حاجة لرجل قوي قبل أي شيء، وأنَّ الصرامة ضرورية لبناء دولة قوية، وتحقيق نتائج طيبة.

في تلك الأجواء تزوَّج «حسين» في حفل بهيج ضم عددا محدودا

.. الأصدقـاء وأقـارب العـروس، الـتي بـدت كالبـدر يـوم اكتمالـه.
.. مغلًّ «حسـين» أمـوالًا بعثتهـا إليـه والدتـه في شراء أثـاث حديـث
.. سمت «سُعاد» أن تختاره بنفسـها، بينمـا أهـدت إليهـا والدتهـا ملاءات
أ..زة وشراشـف ملونـة وملابـس نـوم رجـالي وحريمـي، ومزهريـات، وعـددا
.. مواريـر العطـر. حـرص «عبدالقـادر» عـلى المشـاركة في جميـع الأمـور
..مظهر بمثابـة الشـقيق لحسـين، مُهديًـا إيـاه أكيـاس سُـكر وشـايا أسـود،
أ.. «محمـد» و«مصطفـى» فقـد دخـلا إلى الحفـل ومعهمـا عـدد لا
.. أس بـه مـن صناديـق الويسـكي الفاخـر، وعُلـب السـجائر الكِنـت. جلـس
المدعـوون في شـقة «شـاكر الحميـدي» الـتي تزينـت باللمبـات والـورود،
.. أحـد المُطربـين أغنيـة «يـا أم العبايـة» لسـهام رفقـي، ثُـم غـنَّى
.. د ذلـك أغنيـة محمـد عبدالوهـاب «ولمـا قالـوا لي غايـب». طبخـت
ال.. يدة أُم «سُـعاد» صينيـة مكمـورة وملوخيـة وعـددا لا بـأس بـه مـن
المحـاشي ثُـم قدمـت للمدعويـن بقـلاوة وكُنافـة نابلسـية اسـتطابها
أصدقـاء حسـين. في نهايـة الحفـل دخـل هـاني الهنـدي ببذلـة سـوداء
أ..ة يحمـل بوكيهًـا مـن الـورد، ثُـم قـدَّم للعريـس ولاعـة مـن الفضـة
..حوتـا عليهـا رسـم لقلعـة حلـب.

..دمـا اختـلى بزوجتـه نهـل «حسـين» مـن سـحرها مؤكـدا أنَّ عطشـه
..لنسـاء لا آخـر لـه، وقوتـه بـلا حـدود، حـتى سـمت «سـعاد» بروحهـا
ومشـاعرها فـوق السـحاب، لتُكـرر القـول لـه أكـثر مـن مـرة بأنَّـه أجمـل
..ي، حـدث لهـا في حياتهـا. قالـت إنَّ سـبعة عـشر عامـا مـن الحيـاة لـم
.. رف فيهـا سـعادة كمـا عرفتهـا بزواجهـا، وأنَّهـا تشـعر أنَّ اللـه يُكافئهـا
.. انـه ودفئـه وإخلاصـه.

..رَّت الأيـام الأولى للـزواج هانئـة وسـعيدة رغـم انقبـاض ألـمَّ بالنـاس
.. وفًـا مـن إرهاصـات الانقـلاب العسـكري لـ«حُسـني الزعيـم»، الـذي
.. ان أكـثر حـدَّة في التعامـل مـع خصومـه. كانـت الشـوارع تزخـر بلافتـات
التأييـد الـتي أعدَّهـا تُجـار وأعيـان الشـام للرجـل، كمـا كانـت الصُحـف

مُمتلئة بقصائد المديح ومقالات التفخيم، حتى أنَّ «هاني الهندي» قرأ بكل غيظ على «حسين» في إحدى زياراته له قصيدة مديح لا الرجل للشاعر إلياس طرابيه تقول: «بشخصك ساد العرب وافتخ القطر/ فقدرك فينا لا يعادله قدر./ بلغت مقامًا دونه الشمس رفعة/ ومنزلة عن مثلها قصر البدر». أما «حسين» فكان لا يعبأ كثيرًا بأفاعيل الرجل، فكل ما كان يهمه هو الشعور بالأمان والاستقرار خاصة عندما أبلغته زوجته بحملها.

***

ركبت أحلامها قبل الطائرة. كانت تنتظر بشوق شديد اليوم الذي تحتضن فيه صغيرها بدفء وحنان وراحة بال. كانت تراه صغيرًا رغم أنَّ عمره اقترب من الخامسة والعشرين. مازال «حسين» في عينيها الوليد الزاحف الذي يتحرك كثيرًا، وينظر باستغراب لكُل من يُناديه، مازال الطفل الشقي المُعتز بأبناء بلده، الكاره لتكبر وغطرسة الأتراك، يلعب مع أقرانه فيختار دور الفلاح لا السيد، وينتصر له من ظُلم يراه مغموسًا فيه. مازالت تراه الصبي الخجول المُعتزل للرقص والرافض للهو، والباحث عن دور حقيقي يخدم به بلاده، حتى لو كان ذلك الدور يحمل خطرًا على حياته.

زارت السيدة «سميرة» ابنها المسجون «سعيد»، فسألها عن «حسين»، وزارتها ابنة خالتها، فسألتها عن حُسين، وقابلت في النادي إحدى الفتيات اللاتي تعرفنَّ به فسألتها عن «حُسين»، وكانت كُلما رأت «محمد إبرهيم كامل» يسألها كأنَّها تراه كُل يوم، تُحادثه، وتحتضنه، وتشعر بأمومتها تجاهه. قبل أيام قال لها زوجها إنه يشعُر باعتلال صحته، وأنَّه يخشى أن يموت قبل أن يطمئن على حال «حسين»، وأنَّه لولا علمه بأن خصومه في الوزارة يتتبعون حركته لسافر إلى

t.me/qurssan

دمشق لرؤيته. دعاها أن تُسافر سرًا إلى هُناك لتلتقي به، وتمكث معه شهرًا أو اثنين لتطمئن على أحواله وتطمئنه.

...حائر عدة قتلتها خلال رحلة الطائرة من القاهرة إلى دمشق تنفيسًا ... أشواق مُستعرة للقاء صغيرها، الذي مهما كبُر سيبقى صغيرًا. ...ت الورقة المُدون بها العُنوان لتُعيد قراءتها مرة واثنتين، وهي ... ممع لصوت الطيار مُخبرًا السادة الرُكاب بقرب الهبوط. فكَّرت في ...لة جأش «سعيد» المحبوس بالسجن، وقالت إنَّ «حسين» المُطارد ... صلابة، وأنَّ من حقها أن تفخر بابنيها الرجلين. تذكرت أنَّ عائلتها ...ركيا ضربت المثل في القوة والصلابة وتحدي الخطر، وخمَّنت أنَّ ال...مات الموروثة في العائلة تظهر بوضوح في «حسين» و«سعيد».

...رجت من المطار بسرعة بسبب قلة أعداد المسافرين، لتستقل ...سيًا أعطته عنوان ابنها في الصالحية وطلبت توصيلها إليه. فكَّرت ... وقع المُفاجأة على وجه «حُسين»، وتصورت أن يحملها ويدور بها ...، أو يحتضن كفها لاثمًا، أو يبكي من شدة الفرح، ثُم تذكرت أنه ...لًا ما يبكي، بل نادرًا أو مُستحيلًا، وقالت لنفسها أنَّها لم تضبُطه ...ا يذرف دمعة. سألت السائق عن الأحوال في سوريا فرمقها بنظرة ...ص قبل أن يرُد قائلًا:

ستعود سوريا مملكة قريبًا بإذن الله.

استغربت كلامه فسألت:

. كيف؟

- إنَّهم يتحدثون عن تتويج حُسني الزعيم ملكًا.

مصمصت شفتيها، وشعرت أنَّ الرجل يسخر من الأحوال، ولاذت بالصمت.

كانت الشوارع مُزدانة بلافتات من القماش تحمل عبارات التأييد للزعيم المحبوب من الناس، مع صور لا حصر لها ملصقة على

t.me/qurssan

معظم الحوانيت. لاحظ السائق نظراتها المُستغربة فقال:

ـ الناس حزانى على سوء الأحوال وغلاء الأسعار، وهزيمة العرب في فلسطين، وحسني الزعيم قبض على نصف السياسيين وأودعهم السجن، ومع ذلك فالجميع يؤيده ويُهلل له.

ـ تصورت أنَّ الحال لديكم أفضل من القاهرة.

مصمص شفتيه وقال:

ـ لديكم ملك شاب، وزُعماء طيبون، لو كان لدينا رجل مثل النحاس باشا لما وصل بنا الحال لما نحن فيه.

هزَّت رأسها وتمتمت:

ـ الجميع لا يعجبه حاله، ولو كُنت لدينا للعنت كُل شيء.

وصل الصالحية، الحي القديم مُبهر بعمائره ومآذنه العُثمانية. أوقف السيارة إلى جانب ضريح محيي الدين بن عربي ليسأل عن البناية رقم 334، ثُم تحرّك مُجددا بضعة أمتار قبل أن يتوقف تمامًا ويهبط ليحمل حقيبة السيدة ذات الشال الأسود. سألت «سميرة» طفلًا صغيرًا يقف أمام البناية عن «حسين المصري»، فأشار إلى الدور الثاني قائلًا:

ـ هُنا. عم حسين.

صعدت «سميرة» لتطرُق الباب طرقات خفيفة رغم بحار الشوق المتلاطمة في قلبها مُنذ تسعة شهور من الغياب. انتظرت لحظات، ثُم طرقت الباب مرة أخرى دون مُجيب، ثُم لامت نفسها أنَّها لم تتصل بحسين لتُخبره بوصولها. وقفت حائرة قبل أن تُقرر أن تطرق باب الشقة المقابلة لتفتح لها سيدة نحيلة، بدت شبه ناعسة، لكنَّها رمقتها بتركيز شديد، قبل أن تحتضنها بشدة.

ـ أنت أُم حُسين؟

سألت سيدة الشقة المقابلة، فأجابت «سميرة» مُبتسمة:

t.me/qurssan

- نعم. كيف عرفتِ؟

- الدم واحد، ونفس لون الشعر.

- شُكرًا لك.

ابتسمت أم «سُعاد»، ودعت الضيفة للدخول إلى الصالون لحين عودة «حسين»، ولم تكد قدما «سميرة» تخطو قليلًا داخل الشقة حتى شهقت عندما لمحت صورة ابنها وإلى جواره عروس بفستان الزفاف مُعلقة على الجدار المواجه للباب.

جلست مُستغربة، وشعرت بالدم يغلي في رأسها. كيف فعلها؟ ا زوَّج دون إذن؟ ومن أين؟ من دمشق؟

انتشلها من دهشتها صوت أم «سُعاد» تقول:

- هذه سُعاد. ابنتي. تزوجت حسين الشهر الماضي، وهُما الآن عند الطبيب.

ثُم قالت بسعادة حقيقية:

- إنَّها حامل، ستُنجب لك أول حفيد إن شاء الله.

صدمتان مُتتاليتان. اختطاف مُفاجئ. حُضن جديد. امرأة أخرى اقتنصه. ستجعله أبًا. طفل يحمل طفلًا. ستسحبه بعيدًا بعيدا مُستغلة ظروف الهروب ليبتعد عن أمه الحنون.

- ماذا تشربين؟

ردَّت باشمئزاز:

- لا شيء. سأُدخن.

ومضت تستمع بحنق مكتوم لحكايات السيدة عن ابنتها والمحبة الغامرة التي يغمرون بها ابنها، وواصلت التدخين بعصبية زائدة منتظرة قدوم الولد المُنفلت.

***

ـ لا أستسيغ طعامكم ولولا الجوع ما ذُقته.

قالت السيدة «سميرة» لـ«سُعاد» على مائدة الغداء بمشاركة «حسين» الذي لم يتفاجأ كثيرًا بزيارة أمه. قبل ساعات لم تنجح الأم في منع حُضنها من احتواء ابنها رغم غضبها من زواجه دون إذن، واكتفت بمنح الزوجة نظرة استعلاء. قُبلات مُتتالية منحتها السيدة لابنها فور رؤيته داخلًا برفقة امرأته قبل أن تصر على أن ينام تلك الليلة إلى جوارها حتى الصباح لتحرم الزوجة من شريكها في الفراش.

قالت «سُعاد» التي بدت مُزدهرة الوجه:

ـ حسين اعتاد أن يأكل من يدي، وصار لا يتناول غداءً دون زعتر.

عقدت «سميرة» حاجبيها، وبدا وجهها مُتجهمًا وهي ترُد:

ـ عندما يعود إلى مصر سينسى الزعتر وسيرجع لأكلات بلده.

ابتسمت «سُعاد» في برود قبل أن تقول:

ـ نحن نقول عندنا إن بلد المرء هي مَن فيها امرأته.

ردَّت «سميرة» في عصبية:

ـ هاااا... ونحن عندنا نقول إنَّ المرأة تتبع الرجل إلى أي مكان، ووطنها هو ما يختاره هو وطنًا له.

وأضافت في فخر:

ـ أنا في الأصل تُركية، لكن بعد أن تزوجت توفيق باشا صرت مثلك مصرية.

ضحك «حسين» بصوتٍ عال، ونظر إلى أمه سائلًا:

ـ هل حصل الوالد على الباشوية؟

ردَّت بغيظ:

ـ هو على وشك ذلك، ثُم لا تتحدث عن والدك إلا بكُل احترام.

- حاضر.

مدّت «سُعاد» يدها بقطعة دجاج قائلة:

- جربي يا خالة أكلي.

هزّت «سميرة» رأسها، وقالت:

- شبعت.

ثمّ قامت من المائدة، وجلست على الأريكة، ونظرت إلى «سُعاد» وقالت آمرة:

- اعملي لي شايا.

جلس «حسين» إلى جوار أمه يسألها عن أحوال القاهرة، والأصدقاء، والأقارب، والنادي، وابن خالته «إبراهيم كامل»، و«سعيد» و«مدحت» و«محمود مراد» و«سيد» وباقي المحبوسين. أنبأته أنّ المحامي بشّر والده بأنّ قرارًا ملكيًا من مولانا سيصدر بالعفو عن المُدانين في القضية، وسيسقط الحُكم الصادر بالحبس ضده ليعود إلى أرض مصر مرة أخرى. قالت له إنّ مُستقبله محفوظ في إدارة أملاكها الزراعية المُمتدة في محافظتي الشرقية، والبحيرة، وأنّه سيكون رجل أعمال ناجحًا.

وأخبرته أمه أيضًا أنّه صار عقب هروبه فتى أحلام مُعظم فتيات العائلات الراقية، حتى أنّها قرأت في إحدى المجلات أنّ كثيرات منهُن يخبئن صوره تحت مخداتهن. أسعده النبأ وشعر بالراحة أنّ «سُعاد» كانت في المطبخ لإعداد الشاي. ثُم سأل أُمه هامسًا:

- هل سمعت أخبارًا عن ميمي؟

حاولت التذكُر، ثُم أخرجت سجائرها يُشعل لها «حسين» واحدة، قبل أن تسأل:

- ميمي. مَن؟

لاحظ «حسين» قدوم زوجته، فهمس ثانية:

t.me/qurssan

ــ ميمي صديقة إحسان. ألا تذكرينها؟ فتاة النادي التي كانت أمها صديقة خالتي.

ــ آه. آه. عرفتها. لقد أنجبت ولدًا. هي مُتزوجة الآن من البكباشي محمود موسى.

ــ يااه.

ــ نعم لقد زار والدك ليطمئن على أحوالك بعد صدور الحُكم، وكان لطيفًا.

مُفاجأة. قالها في سرّه، قبل أن يُشعل سيجارة استغراب، لتواصل أُمه الثرثرة في موضوعات شتى لم تدخل رأسه، والذي كان مشغولًا بتساؤلات جمة حول قانون الصدفة الذي يحكم كثيرا من الأمور حوله.

في الأيام التالية كرّرت أمه عبارات اللمز والمُكايدة «لسُعاد» التي بدت صبورة أكثر مما توقّع، والتزمت الصمت. في إحدى المرات قالت لها إنّ المصريين لا يحبون النساء النحيفات، وفي مرة أخرى قالت إنّ خفة دم المصريات أكثر جاذبية للرجل من أي جمال، ومرة ثالثة حكت قصصًا وهمية عن صراع فتيات حي المعادي الراقي على «حسين». كانت «سُعاد» تبتسم وتهز رأسها دون رد مُنتظرة أن يتكلم زوجها لوضع حد للهجة التجريح التي تتحدث بها حماتها، لكنه لم يفعل، ورغم ذلك تظاهرت «سُعاد» أمام والديها بالسعادة لزيارة حماتها لهما، حتى انقضى شهران كاملان، امتلأ فيهما جسد «حسين» قليلًا، بينما انتفخ بطنها، وجهزت السيدة «سميرة» حقيبتها للمُغادرة.

***

ازدادت الأوضاع توترًا مع بدء حركة اعتقالات شملت كثيرًا من القوميين العرب، في الوقت الذي وصلت فيه الأنباء عن هروب عدد كبير من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين من مصر إلى سوريا بعد ضربات قاصمة تعرضت لها الجماعة. وعلى إثر شائعات حول اعتزام «حسني الزعيم» تسليم حقول النفط السورية لإحدى الشركات الأمريكية الكبرى، وقبوله عمولات من شركات ومؤسسات غربية، دعت كتيبة الفداء العربي إلى اجتماع شامل يضُم جميع الفصائل والتنظيمات العاملة ضد المصالح الصهيونية والغربية، واختارت أحد البيوت القديمة في مدينة حمص مكانًا للاجتماع.

كان «حسين» ممثلًا للمجموعة المصرية قد فوجئ بوجود مجموعة أخرى من مصر يقودها ضابط جيش سابق تابع للإخوان يُدعى «مصطفى راغب» حاضرًا معه، بينما حضرت مجموعة سورية بقيادة شاب وسيم يُدعى «جهاد ضاحي»، وأخرى بقيادة صديقه السابق «هاني الهندي»، ومجموعة فلسطينية يُمثلها رجل كث اللحية يُدعى «أبا عدنان».

عرض «هاني» ضرورة استكمال عمليات الاعتداء على منشآت يهودية في اللاذقية وحمص وبيروت، مُحبذًا فكرة الابتعاد قليلًا عن العاصمة، حتى لا يُثير ذلك «حسني الزعيم» ويعتبره موجهًا ضده شخصيًا، كما طرحت المجموعة الفلسطينية ضرورة تنفيذ عمليات اغتيال ضد الساسة والمسئولين العرب الذين تقاعسوا عن نجدة فلسطين خاصة الملك عبدالله ملك الأردن، ونوري السعيد رئيس الحكومة العراقية. ورأى «مُصطفى راغب» أنَّ الإخوان في مصر نفذوا اغتيال النقراشي باشا باعتباره مسئولًا عن ضياع فلسطين، ودفعوا أغلى ثمن وهو حياة «حسن البنا» المرشد العام للجماعة، فضلًا عن تشريد وملاحقة أعضاء الجهاز فردًا فردًا، وهو ما يعني أنَّه ينبغي على باقي كتائب الفداء العربي تنفيذ عمليات اغتيال شبيهة ضد الساسة

العـرب.

ـ قدرُنا أن نحيا وسط حشود من الخونة.

قالها «حسين توفيـق»، وهـو يقرأ عـلى وجـوه زملائـه تعبـيرات مُحرضة ضـد جميـع الساسـة العرب.

ـ لقد باعوا فلسطين دون مقابل.

ردَّ «جهاد ضاحي» ساخرًا، ليُضيف «هاني الهندي» قائلًا:

ـ إنَّ علينـا الـضرب بشـكل قـاسٍ وُمُتكـرر كُل المصالح اليهوديـة والغربية حولنا.

وفـرد «هـاني» خريطـة للقُطـر السـوري واللبنـاني أمامـه، ليُحـدد عليهـا أماكـن الأهـداف المُقـررة في المُـدن السـورية واللبنانيـة، موزعًـا المهـام عـلى كُل مجموعـة مـن المجموعـات المكونـة لكتائـب الفـداء العـربي.

ولاحـظ «حسـين» عـدم تكليفـه بـأي عمليـات فاسـتفسر غاضبًـا، فقـال لـه «هـاني»:

ـ إنَّ نطـاق مجموعتـك هـو دمشـق، ومـن غـير الصـواب اسـتفزاز حُسـني الزعيـم خاصـة بعـد مـا فعلـه مـع القوميـين، ولا تنـس مـا فعلـه مـع انطـوان سـعادة، والـذي سـلمه بـدمٍ بـارد إلى الأمـن اللبنـاني ليقومـوا بإعدامـه.

ثُم أضاف قائلًا:

ـ لا تتصـور أنَّ الزعيـم يعبـأ بأحـد، هـو خائـن، والخائـن يبيـع كُل مَـن حولـه في سـبيل اسـتقرار نظامـه.

ـ لكن أنا قادر على تنفيذ عمليات دون لفت نظره أو استفزازه.

قالها «حسين»، وملامح الضيق تعتري وجهه، فأجاب «هاني»:

ـ مـا نعرفـه تمامًـا مـن مصادرنـا أنَّ مخابـرات الزعيـم تضـع جميـع اللاجئـين والفدائيـين تحـت الرقابـة المُشـددة، وقـد نقـل لنـا ضابط شـهم اسـمه العقيـد أديـب الشيشـكلي معلومـات حـول قـرب اسـتهداف بعـض

مقرات الكتائب الفدائية لنقوم بتهريب أعضائها خارج البلاد سريعًا.

ـ أليس من المُمكن أن تكون تلك الفعلة مُجرد خدعة من الزعيم نفسه؟

سأل «حسين» ببرود، فقال «هاني»:

ـ مُستحيل. هذا ضابط حارب في فلسطين، وهو أحد ضباط كثيرين حول الزعيم يشعرون باستياء من خيانته لانطوان سعادة، وقبوله معمولات من الغرب، ودعوته لمُهادنة إسرائيل.

هزّ «حسين» رأسه تسليمًا قبل أن يقول:

ـ كُل ما تقوله يدفعني في ناحية واحدة لا بديل عنها.

ـ ما هي؟

سأل «مصطفى راغب» في فضول، فأجاب «حسين» قائلًا:

ـ القتل.

وأضاف:

ـ يجب أن نُسرع بتخليص الأُمة من هذا الخائن.

ونظروا مُندهشين إلى الفدائي ذي القلب الميت، الذي طالما أدهشهم بجرأته. وربت «هاني» على كتفه وقال:

ـ آمل أن تنجح أيُها الرفيق. لكن كُن حذرًا. حُسني الزعيم ليس أمين عُثمان.

***

توالت التفجيرات. تحوّلت مدرسة الأليسانس ببيروت إلى أنقاض بعد تفجير سيارة نصف نقل إلى جوار أسوارها العالية. لم يمُت أحدٌ، غير أنّ رياح الفزع طالت العائلات الأجنبية في العاصمة اللبُنانية. في

اليـوم التـالي ألقـت سـيارة مُنطلقـة بسرعـة شـديدة قُنبلتـين عـلى مقـر القُنصليـة البريطانيـة في اللاذقيـة لتصيـب شـظايها حارسـين تابعـين للأمن السـوري، ثُـم تـم إلقـاء قُنبلـة شـبيهة عـلى مقـر المفوضيـة الأمريكيـة ببـيروت في اليـوم نفسـه، ثُـم ألقيـت أخـرى عـلى مقـر الشرطـة في طرطـوس بعـد يومـين، قبـل سـاعات مـن انفجـار مقـر وكالـة «غـوث» للاجئـين عـلى الحـدود السـورية لتنـشُر الصُحـف بيانًـا منسـوبًا لكتائـب الفـداء يُحـذر منظمـة الأمـم المتحـدة والحاضنـة للوكالـة مـن مـشروع توطـين الفلسـطينيين في الـدول العربيـة.

فى تلـك الأثنـاء كان غيـاب «حسـين» عـن المـنزل يتكـرر كُل مسـاء تحـت دعـاوى مُتابعـة أعمـال تجاريـة يقـوم بهـا مـع «عبدالقـادر»، وكانـت «سُـعاد» عـلى يقـين بـأنَّ زوجهـا يُكـرر مغامراتـه الخطـرة، مُحبـذة الصمـت عمـلًا بنصيحـة أمهـا الطيبـة. قالـت لنفسـها إنَّ الإصرار عـلى التدخـل في أعمـال زوجهـا قـد يدفعـه دفعًـا إلى الانفصـال عنهـا خوفًـا من إفسـاد مهامـه. كانـت تؤمـن بـأنَّ زوجهـا بطـل حقيقـي وأنَّـه يُعـرّض حياته للخطـر مـن أجـل حريـة وكرامـة العـرب. في يـومٍ مـا سـمعت والدهـا يتحـدث مـع زوجهـا هامسًـا بـأنَّ السـلاح المطلـوب موجـود مـع تاجـر فلسـطيني يقطُـن في حـي السـيدة رقيـة، وعرفـت وقتهـا أنَّ والدهـا يُسـاعد «حسـين» بشـكل سري في أعمالـه الفدائيـة، مُقـدرة عظمـة تلـك الأعمـال الـتي لا تعـرف عنهـا شـيئًا سـوى أنَّهـا موجهـة ضـد اليهـود والخونـة.

قالـت لنفسـها إنَّـه لـولا أعمـال «حسـين» الفدائيـة لمـا سـافر إلى دمشـق، ومـا عرفتـه ومـا أحبتـه، واقترنـت بـه. لقـد سـاءتها زيـارة حماتهـا، ونظراتهـا المُشـمئزة تجاههـا، لكنَّهـا كانـت عـلى يقـين بـأنَّ تلـك الزيـارة مُجـرد حـدث عابـر، وأنَّ زوجهـا لـن يعـود إلى القاهـرة مـرة أخـرى.

بـدت «سُـعاد» مُبتهجـة بعـودة شـقيقها «عـاصي» مـن الأسر بعـد غياب عـام كامـل في حـرب فلسـطين. عوضهـا الولـد الضاحـك كثـيرًا عـن غياب «حسـين» المُتكـرر، حيـث كان يقـضي السـاعات تلـو السـاعات إلى جوارها

-اأمًا عن قصص غرام زُملائه من الجنود، الذين لم يُحاربوا بشكل
.. اشر نتيجة تمركزهم بعيدًا عن نطاق الاشتباكات. كان «عاصي»
.. اخرًا، ومُغرمًا بترديد النكات عن المصريين، وكان كثيرًا ما يقول
اا. فيقته بأنَّ «حسين» يشبه «جوبلز» وزير الدعاية لدى «هتلر».
، لدا «عاصي» بعينيه الخضراوين وشعره المُسترسل أشبه بمُمثلي
الكوميديا الشوام، وهو يُقلد حركات وتعبيرات «حسين» ساخرًا من
،،صبيته البادية وجديته الدائمة. سأل «عاصي» شقيقته يومًا، وهو
،،ضحك إن كان وجه «حسين» يحمرّ حال جلوسه معها وحيدين؟
،اان أكثر سُخرية، وهو يسأل في تبجح كيف حملت منه؟

،صارح «عاصي» شقيقته بأنَّ أفضل ما يتمناه هو الهجرة لأوروبا،
.. درًا أنَّ البلد وما فيه لا يُبشر بمستقبل يحمل أي سعادة، وأنَّه يحلُم
، أن يُصبح مُمثلًا على أحد المسارح الأوروبية، لذا فقد كان حافظًا
، شرات النصوص المسرحية باللغة الفرنسية التي أجادها إجادة تامة.
،انت تراه رغم أنَّ فارق العُمر بينهما لم يتجاوز العامين، ذا عقل
، الم، بريء، وكانت تتمنى أن يُفكر بجدية في البحث عن أي عمل
ُاسب ليُساعد والدها في مصروفات البيت بعد أن رسمت عجلات
الشيخوخة آثارها على وجهه.

كانت «سُعاد» تنظر باهتمام أكبر إلى شقيقتها الصامتة كثيرًا،
ُقدرة أن تركها للدراسة، ونحول جسدها، وقلة جمالها يُقلل من
فرص زواجها، خاصة في ظل الظروف المُضطربة بالبلاد. قالت يومًا
لـ«حسين» أنَّها غير قلقة على أحد من عائلتها سوى «فاطمة» التي
اشعر بأنَّها تُخفي في داخلها تلالًا من الحُزن، وكان من الواضح أنَّ
زوجها غائب عنها في عالم آخر تتلاطم فيه موجات التفكير في أفضل
وسيلة لتخليص البلاد من خائنها الأعظم. لم يرُد كعادته، وواصل
وضع تصورات قتل الرجل الأحوط في دمشق. قال لنفسه إنَّ «حُسني
الزعيم» لم يعُد يمر بسيارة مكشوفة كما كان يفعل في الماضي،

t.me/qurssan

وتذكر كيف ناقش مع «عبدالقادر» و«مصطفى» عادات الرجل وتحركاته، وخلصوا إلى صعوبة الوصول إليه أو استهدافه بقُنبلة أو رصاص قناص من بعيد، ثُم تذكر اقتراح «مصطفى» بدس السم للرجل في بعض زجاجات الويسكي الموردة إلى القصر الرئاسي، لكن «عبدالقادر» استبعد ذلك بسبب إجراءات الكشف والمتابعة التي يقوم بها حُراس الزعيم كل صباح. لقد فكروا في كُل سيناريو لقتل الرجل، حتى أنَّ ذهن «حسين» دفعه إلى التفكير في محاولة مقابلته وقتله مُباشرة بأي وسيلة، لكنَّه عاد ورفض أن يُضحي بنفسه من أجل قتل خائن واحد. فكَّر «حسين» بأنَّ أمامه طابورا طويلا من الخونة، ولابد أن يُخلص العالم العربي منهم، والقبض عليه مره أخرى سيُنهي حلمه في أوطان حُرة بلا خونة وتابعين.

في تلك الجلسة استجابت أذناه لقول زوجته بأنَّه رجلهم القوي، وهو القادر على فك عُقدة «فاطمة»، وإيجاد العريس المُناسب لها. فكر سريعًا في كلام «سُعاد»، لتلمع عيناه ببريق آخاذ، وترتسم ابتسامة فخر فوق شفتيه، قبل أن يُقرر في حسم:

ـــ أريدك أن تسألي أمك إن كانت فاطمة تقبل الزواج من صديقي عبدالقادرعامر أم لا. أخبريها أنَّه سيستأجر شقة قريبة من هُنا، وسيجهزها خلال شهرين، وهو من أسرة ميسورة تُرسل له ما يكفيه تمامًا.

غمرت السعادة قلب «سُعاد»، حتى أنَّها أحسَّت بتحرك الجنين ببطنها، كأنَّه يرقص فرحًا. قبّلت «حسين» فوق شفتيه وقالت له:

ـــ سأسألها، وستوافق بكل تأكيد.عبدالقادر رجل شهم، ومُهذَّب، ويكفينا أنَّه صديقك.

ابتسم في غرور، وغاب مرة أخرى في التفكير في هدفه الصعب حُسني الزعيم.

***

مفاجأة لم ينتظرها الشباب الغاضب على القائد المُستبد. في ساعات قليلة سمع الناس بنبأ محاصرة المُقدم «سامي الحناوي» قصر الرئاسة، قبل أن تُذيع إذاعة دمشق بيانًا مُقتضبًا عن خلع رئيس الجمهورية وإصدار حُكم سريع بإعدام «حُسني الزعيم» ورئيس وزرائه «مُحسن البرازي» وتنفيذه. كانت الحكايات قد تناثرت أنَّ «الزعيم» قُتل بواسطة ضابطين قوميين كانا مُكلفين بالقبض عليه، ثُم اضطرت السُلطات إلى القول بالحكم سريعًا بإعدامه حتى لا يعيبهما أي محاكمة.

حكى «هاني الهندي» لـ«حسين» وجمع من الأصدقاء اجتمعوا في مقهى بإحدى ضواحي العاصمة أنَّ «حسني الزعيم» كان يقهقه بصوتٍ عالٍ وهُم يطلقون عليه الرصاص، وأنَّه نظر إلى «مُحسن البرازي» ووجده يبكي خوفًا فصرخ فيه بأن يهدأ ليموت كرجل لا كسيدة.

ونشرت الصُحف نص بيان المجلس الحربي الذي ذكر أنَّ «حسني الزعيم» اتُهم بتبديد ثروة البلاد وانتهاك حرمة قوانينها وحرية أبنائها، وأنَّ حكمه اتسم بالفوضى والتعسف، وأنَّ المجلس الحربي الأعلى وبعد محاكمة عادلة ثبت له أنَّ «الزعيم» مجرم، فنفَّذ فيه وفي رئيس وزرائه حكم الإعدام.

هلَّل الناس فرحًا بسقوط «الزعيم»، وعلَّق تُجارالأقمشة والملبوسات بسوق الحميدية لافتات التأييد للمقدم سامي الحناوي، فيما كتبت الصُحف عن مخازي الرئيس الطاغية الذي رحل غير مأسوفٍ عليه، وتبرأ الشُعراء من مدائحهم السابقة للرئيس القتيل، ذاكرين أنَّها ولدت تحت سيف الخوف. وعلى المقاهي أطلق الناس في محاوراتهم صفات الخسَّة والوضاعة على الرجل المعدوم، مؤكدين أنَّه نال ما يستحق، وأنَّ ربك لا يظلم أحدًا.

عرض «حسين» على «هاني» استئناف أنشطة مجموعته، لكنَّ «هاني»

رفض طالبًا منح السُلطة الجديدة الفرصة لتصحيح الأوضاع، مُشيرًا إلى أنَّ أحد القادة العسكريين الكبار وهو «أديب الشيشكلي» على علاقة ود مع الأحزاب القومية.

ــ من الضروري أن ننتظر قليلًا حتى لا يحسبوننا في الجانب المُضاد أو يظنوننا غاضبين على إعدام الزعيم.

قالها «هاني»، الذي كان من الواضح أنَّه الأكثر سيطرة على قادة الفصائل والتنظيمات العاملة في إطار مواجهة الصهيونية. وأضاف قائلًا:

ــ إنَّ الدكتور جورج حبش طلب منَّا وقف تنفيذ أي عمليات جديدة، والتركيز على العمل السياسي.

ــ سياسي؟

أجاب «حسين» ساخرًا، قبل أن يُقرر:

ــ إنَّ السياسيين هُم سبب نكبتنا.

وأضاف:

ــ إنَّ جورج حبش يحلُم بعيدًا عن الواقع.

ــ كُل النجاحات بدأت كأحلام.

ــ إنَّه يتصور أن الجماهير ستتحرك يومًا وستثور لتحقيق ما يُنادي به، وهذا أبعد ما يكون عن الواقع.

لم تلق كلمات «حسين» قبولًا لدى ممثلي التنظيمات المُجتمعة، مما دفعه للسكوت، والمُغادرة غاضبًا.

عاد «حسين» إلى أعضاء مجموعته، مُحبذًا فكرة العودة للعمل السري بشكل مُنفرد وبدون تنسيق مع أحد. كان يرى أنَّ الوقت هو الأنسب لاستكمال الأعمال الفدائية، خاصة في ظل حالة الصراع على السُلطة في دمشق.

في غضون ثلاثة أيام حدد «حسين» الهدف، ورسم لزملائه خريطة

العملية الجديدة، حيث هاجمت المجموعة مركزًا ثقافيًا أمريكيًا العاصمة، وتم إلقاء قُنبلتين داخل المبنى لتنفجرا دون سقوط أي سحايا. فيما بعد نجح «حسين» في استقطاب شاب فلسطيني غامض يُدعى «نوار» كان يعمل مع «هاني الهندي»، وله علاقة وثيقة بصناعة الديناميت من خلال تحضير النيتروجلسرين في معمل صغير ببيته. كان «حسين» يُريد أن يُبرهن لـ«هاني الهندي» و«جهاد ضاحي» وقائدهما الروحي «جورج حبش» أنَّه قادر على العمل دون مساندتهم.

ورغم حالة من القلق انتابت «سُعاد» عندما استمعت لحديث بين زوجها و«عبدالقادر عامر» عن نجاح عملية التفجير، واتساع حالة القلق بين الموظفين الأمريكيين في دمشق، لكنَّها صمتت تمامًا، خاصة عندما بدأت عائلتها في إجراء ترتيبات زفاف شقيقتها «فاطمة» إلى «عبدالقادر». وقفت «سُعاد» إلى جوار شقيقتها مُساعدة، وناصحة، ورافضة لاعتراضات شقيقها «عاصي» غير المُبررة على تلك الزيجة. كانت تقرأ بصيص السعادة على وجه «فاطمة »، مثلما عرفته في وجهي والديها. قالت وقتها لشقيقتها:

ـ إنَّ عاصي دائمًا له رأسه وفكره المُختلف، ويكفي أنَّه لا يريد العيش في سوريا، وليس لنا بعد والدنا من رجال سوى أزواجنا.

في الوقت نفسه اعتبر «حسين» زواج «عبدالقادر» من شقيقة زوجته بمثابة توطيد لعلاقة الولاء المُباشر له. لقد افتقد بالحبس والسفر إخوة مُخلصين ورفقاء أوفياء مثل «محمد إبراهيم كامل»، و«سعيد»، و«مدحت »، و«سيد»، و«محمود مراد»، وها هو القدر يُقدِّم له البديل في شخص عبدالقادر. لقد كان يراه نقيًا حالمًا، يحمل ذات أفكاره، ويؤمن بضرورة التغيير بالقوة، ويكن كُل كراهية وعداء للأجانب ويعتبرهم وراء كُل بلاء ابتليت به الأمة.

ـ سأُسمي ابني باسمك، وستُسمي ابنك باسمي.

قالها لـ«عبدالقادر» وهو يحصي الأيام المُتبقية على دخول زوجته

مرحلـة الوضـع. كان يُفكـر في ابنـه القـادم باعتبـاره امتـدادا لنضالـه ضـد الخونـة والمُخادعـين، مُقـررًا أنّـه لـن يُربيـه مثلمـا تـربى، بـل سيُعلّمه الكفـاح وسـيزرع فيـه الجـرأة والإقـدام. «لـن تكـون مُدلـلًا يـا عزيـزي. سـتولد رجُـلًا». قالهـا بصـوتٍ هامـس وهـو يتحسَّـس بطـن «سُـعاد» المُنتفـخ.

***

دقَّـق الرجـل النحيـل ذو العينـين المسـحوبتين، المُحاصرتـين بسُـحب داكنـة تكّونـت بفضـل النيكوتـين والكحـول والسـهر الطويـل، في ملـف أحمـر موضـوع أمامـه قبـل أن يتصفّـح في صمـت أوراقـه الصفـراء. وقفـت عينـاه عنـد صـورة شـخصية كُتـب تحتهـا اسـم «حسـين توفيـق أحمـد» ليسـتنطق تفاصيلهـا مُكررًا تجربتـه السـابقة في توقـع تصرفـات الإنسـان طبقًـا لملامحـه. كان «عبدالرحمـن نـاصر» الرجـل الخطـير، الـذي يُديـر أهـم جهـاز أمـني في العاصمـة السـورية، يقـول دائمًـا إنّـه قـادر عـلى رسـم تحـركات النـاس، واسـتنباط سـلوكهم الشـخصي طبقًـا لأوصافهـم الشـخصية، مُقـررًا أنّ هنـاك نظريـة في علـم الإجـرام تربُـط تصرفـات معينـة بأوصـاف شـكلية. وكثـيرًا مـا ذكـر «عبدالرحمـن» لتلامذتـه مـن ضبـاط الاسـتخبارات أنّ القاتـل إمّـا أن يكـون مُفـرط الطـول أو واضـح القـصر، وأنّ الرجـل قـاسي القلـب لـه في الأغلـب جبهـة عريضـة، وذقـن صغـير. وزاد عـلى ذلـك أنّ الإنسـان الـذي لا يعبـأ بمشـهد الـدم وربمـا يُطـرب لـه ويسـتعذبه، يعـاني في الغالـب مـن قصـور مـا في أحـد حواسـه، مثـل السـمع أو النظـر أو الـكلام.

فكّـر رجـل المعلومـات الأول في شـخصية «حسـين توفيـق»، وأمامـه تقريـر بتحركاتـه ولقاءاتـه وأنشـطته مُنـذ دخـل الأراضي السـورية وحـتى لحظـة اطلاعـه، وأعـاد النظـر في صورتـه المُلتقطـة قبـل أيـام، ليخلُـص

t.me/qurssan

إلى أنّه شخص مُناسب لأعمال الجهاز غير الرسمية. رشفَ رشفات قليلة من قنينة ويسكي أخرجها من أحد أدراج مكتبه الفخم قبل أن يطرق الباب أحد حُراسه ليُخبره أنه جلب المدعو «حسين توفيق»، وأنّه الآن ينتظر في الخارج.

ـ ماذا يفعل؟

ـ لا شيء. يجلس صامتًا.

ـ دعهُ ينتظر.

قالها وعاد إلى أوراقه، ثُم قال لنفسه إنّ السُلطة لم تستقر بعد انقلاب «الحناوي»، وأنّ الأيام القادمة ستشهد صراعات جديدة خاصة بين مجموعة الضباط الذين حاربوا في فلسطين، والذين يعتبرون أنفسهم الأحق بالقيادة. إنّ «حسين توفيق» نموذج مثالي لخادم مُطيع. مثال جيد لقاتل مُحترف، سهل التوجيه، والمُتابعة، لا يعرف الخوف، ولا ينتابه القلق، مُتبلّد المشاعر، مُنعدم الأحاسيس، يعشق القتل ويستمتع برؤية الأرواح وهي تغادر الحياة. عيناه تشعّان بريقًا مُفزعًا، وجبهته تُدلل على قسوة قلب لامُتناهية، أما فمُه فيفيض لامبالاة غير محدودة. هو الشخص المُناسب في التوقيت المُناسب، لأنّ كل مُتصارع عليه أن يستعرض أدواته اليوم.

نظر إلى حارسه وسأله:

ـ هل طاوعك هذا المصري في المجيء سريعًا؟

هزّ الحارس رأسه، فسأل رجل المُخابرات مرة أخرى:

ـ هل سألك عن وجهته، وعمّن يُريده؟

ـ نعم، وقلت له إنّ ذلك ليس من شأنه، وأن عليه أن يأتي معي دون كلمة، ففعل.

ـ عظيم. أدخله الآن.

وأخرج قنينة الويسكي مرة أخرى ليدلق بعضها في جوفه، ثُم تظاهر

t.me/qurssan

بالنظر في أوراق الملف، عندما دلفَ «حسين» مُلقيًا السلام، ليشير له بيده ليجلس على أحد كُرسيين أمامه، قبل أن يقول لحارسه:

ـ لا داعي لأي إزعاج. لا أحد يدخُل علينا.

نظر رجل المخابرات المُخضرم لوجه «حسين»، مُراجعًا أوصاف «لومبروز» للشخص المُجرم، جبهة عريضة، أذنين كبيرين، شعر غير مُتناسق،عينين زائغتين، وأنف بارز، ثُم لاحظ رباطًا من الشاش حول كف «حسين» الضخم، فسأله مُبديًا القلق:

ـ قُل لي ما بك؟ ماذا أصاب يديك؟

ـ لا شيء. مجرد حادث بسيط.

رفع «عبدالرحمن» حاجبيه وقال:

ـ أي حادث؟

نظر «حسين» في عينيه وقال إنَّهما تُذكرانه بعيني «إبراهيم إمام». ليس كـ«حُسني الزعيم» في صرامته، هو مُجرد مُبتدئ في عالم الخوف. ابتسم قليلًا وهو يقول:

ـ صينية بطاطس. كانت أم عبدالقادر تُعدّ لي صينية بطاطس، وحملتها عنها فأحرقت كفي.

ـ يااااه. ألف سلامة عليك.

ثُم قال بنبرة غموض:

ـ كيف حالها؟

ـ مَن هي؟

ـ أم عبدالقادر.

هزَّ حسين رأسه وقال:

ـ هي بخير.

عاد رجل المُخابرات إلى النظر إلى الملف الموضوع أمامه، وفتحه

t.me/qurssan

تظهر صور عديدة لـ«حسين توفيق»، منها صور له في مصر، وصور في عمان، وصور في دمشق. التقطت أصابعه صورة «لحسين» ومعه «عبدالقادر» و«مصطفى صدقي» و«محمد المرصفاوي» جالسين على أحد المقاهي، وضعها أمام جليسه، وقال:

ـ لم تُنجب زوجتك بعد. لكنَّك ستُسمي ابنك القادم عبدالقادر حُبًا في صديقك.

كرر حسين هز رأسه، وهو يقول:

ـ هذا صحيح.

أخرج الرجل الذي يظُنّ نفسه دماغ السلطة الجديدة في دمشق بعد إسقاط «حُسني الزعيم» قنينة الويسكي ليرشف منها قليلًا قبل أن يقول لـ«حسين»:

ـ وهل تعرف السيدة أم عبدالقادر أنَّ عبدالقادر هذا مُجرم؟

ـ مُجرم؟

كررها «حسين» مُستغربًا، ثُم قال:

ـ عبدالقادر ليس مُجرمًا حضرة المُقدم. إنَّه بطل.

ـ بطل؟

ـ نعم بطل. ألم تقرأ ملفه؟

ثم قال وابتسامة ناعمة تتراقص على شفتيه:

ـ أنا أعرف أنَّك تعرف عني كُل شيء. وتعلم يقينًا طبيعة المُهمة التي أصيبت فيها يدي. وأتوقع أنك تُلم بكُل شيء عني وعن زملائي، لأنَّك ببساطة ورثت ملفاتي الموجودة في خزائن حُسني الزعيم.

قام «عبدالرحمن» واقفًا، وصفَّق بيديه، ثُم وضع ذراعه على كتف «حسين»، وقال له:

ـ ياااه. لقد قصّرت عليّ الطريق. أنا أُقدّر التعامل مع الأبطال

العظام أمثالك. أنت واضح وصريح، ولا تعرف لفًا أو دورانًا.

ابتسم «حسين»، وقال:

ـ إنّي أعلم مُنذ اليوم الأول لي هُنا أنّكم تراقبونني.

وأخرج علبة سجائره، قائلًا:

ـ هل تأذن لي بالتدخين؟

ـ بالطبع بالطبع.

أشعل «حسين» سيجارته، وهو يقول:

ـ تصوَّر أيها الضابط النبيل أنَّ ضابطًا مصريًا حرمني من التدخين وهو يُحقق معي. قمة التجبر والوحشية.

ـ ياه. لابد أنَّه شخص موتور، ليس لديه أخلاق.

نفثَ «حسين» دُخانه وقال:

ـ لا يا حضرة الضابط لا تسبه. إنني أحبُّه وأحترمه. كان ذكيًا للغاية، لكن في النهاية، فهناك ذكي وهناك أكثر ذكاءً.

ربت «عبدالرحمن» على كتِف «حسين»، ثم عاد مرة أخرى إلى مقعده، قبل أن يقول:

ـ اسمع. أنت رجل عظيم. ويُشرفني أن تكون واحدًا من رجالي.

ـ أنا على استعداد للتعاون معك.

ـ عظيم.

ـ ستسمح لنا بعملياتنا الفدائية ضد إسرائيل والخونة وستجد منا كُل مساعدة.

ـ طبعًا. لكننا يا صديقي سنعمل ضد الخونة فقط، أما إسرائيل فسنتركها للقادة والزعماء والجيوش المُنظمة.

ابتسم «حسين» وقال:

ـ إننا في حاجة للمال.

بالطبع.

والسلاح.

هذا ضروري.

ودلق رجل المخابرات بقية قنينة الويسكي في فمه، وقال:

- سأوفر لكم كُل ما تحتاجونه. العملية القادمة ستكون في طرطوس. ضابط سابق من أتباع الخائن حسني الزعيم هرب واختبأ هُناك، بعد إعدامه. تصوَّر كان هذا الضابط هو حلقة الوصل بين الزعيم وإسرائيل، وظنَّ أنَّه يُمكنه أن يُفلت بما فعل.

ومد يدُه بملف للضابط المذكور وصورة شخصية له. مدَّ «حسين» يده ثُم هزَّ رأسه موافقًا.

***

سُرَّ «حسين» بعمله الجديد كقائد لخلية مُحصنة أمنيًا من جانب المُخابرات، ووجد هو وزُملاؤه أنفسهم في العودة لاحتراف الخطر، وقنص الأهداف المُتحركة، وزرع الفزع في القلوب، ورسم الهلع على الوجوه. رصاصة هُنا وأخرى هُناك يتبعها شعور طاغٍ بالبطولة يدفعهم دفعًا للسهر والغياب في نُعاس الكحول، ليرى كُل منهم نفسه فارسًا مغوارًا. كان «حسين» يعود كُل مرة لزوجته مُنتصب القامة كأحد قادة الحروب القروسطية، مُمارسًا حقوقه الزوجية في قوة واعتزاز وفخر.

وضعت زوجته، وهو في إحدى المُهمات خارج العاصمة، وعندما عاد شاهد ولدًا مُطابقًا في الشبه له، وفوجئ بحميه قد أسماه «خالد». فكَّر في وعده لـ«عبدالقادر»، فقرر أن يُغيّر الاسم في بطاقة الميلاد بعد العودة إلى القاهرة. نظر في عيني ابنه وقال له «ستكون

t.me/qurssan

رجلًا صلبًا»، وتذكر والده ونظرته المُشفقة تجاهه والتي كان يكرهها للغاية. اشترى لِعب أطفال عديدة كان من بينها مُسدس صغير يرُش ماء، وهو ما أثار حالة من الضحك لدى «سُعاد» التي كانت في قمة جبل السعادة بالمولود الجديد. كما كانت سعيدة أن ترى «حسين» ذا مال وفير في الفترة الأخيرة إذ تعددت هداياه للبيت، والزوجة، والطفل الصغير.

في يوم ما صحا الناس على موسيقى عسكرية في إذاعة دمشق، ليعرفوا سريعًا أنَّ انقلابًا عسكريًا جديدًا قد وقع، وأنَّ ضابطًا بارزًا يُدعى «أديب الشيشكلي» قبض على «سامي الحناوي» وأجبره على التنازل عن الحكم، وأصدر قرارًا بنفيه إلى بيروت. لم يُفاجأ «حسين» هذه المرة، وشعر ببعض التفاؤل لعلمه أنَّ المُنقلب الجديد على صلات جيدة بكتائب الفداء والحركات القومية، وهو ما قد يمنح النضال ضد الصهيونية دفعًا للأمام.

وردت الأخبار من مصر مُزعجة خاصة عندما عرف «حسين» بفوز حزب الوفد في الانتخابات التي جرت باكتساح، وقيام «مصطفى النحاس» بتشكيل الحكومة. ذلك الداهية العجوز مازال قادرًا على الاستحواذ على محبة الناس، والسير معهم في نفس الطريق مُدعيًا أنَّه يستمد منهم القوة. قالها لنفسه، وهو يُفكر كيف أفلت الرجل من موتٍ مُحقق نتيجة فارق لا يتعدى الثواني الثلاثة فقط. هو محظوظ لاشك في ذلك، هكذا حسب، وهو يشعر بصعوبة نجاح جهود أسرته للحصول على عفو ملكي في ظل وجود «النحاس» والوفديين على رأس الحُكم. لن يغفروا له أبدًا. هكذا كرر وهو يُفكر في أصدقاء الماضي الأوفياء. تذكر «السادات» واستغرب ما عرفه من «عبدالقادر» حول عودته إلى الجيش مرة أخرى. كيف عاد المُحرّض الأكبر، والقاتل في الظل إلى عمله في المؤسسة العسكرية؟ ألم يُحسب يومًا على الألمان؟ ألم يعمل مع الإخوان؟ ألم يُتهم بالعُنف

والإرهاب؟ ألم يُفجّر ويُطلق النار ويستحل الدماء؟ لِم تمت تبرئته الآن، بينما صار هو طريدًا للعدالة، صيدًا سهلًا للمُستغلين من رجال المُخابرات وميليشيات الحركات السياسية في كل مكان؟

جلس «حسين» ليلعب الشطرنج مع حميه، عندما حكى له الرجل في هدوء الزاهد أنَّه مُصاب بمرض خطير قد يُنهي حياته خلال شهور قليلة، وأنَّه يُحمّله مسئولية مُراعاة «أم سعاد» ، والاهتمام بها وبابنتيها، وأن يكون لهم بمثابة الراعي، خاصة بعد سفر «عاصي» إلى لبنان للعمل هُناك لفترة حتى يتمكن من إتمام حلمه بالهجرة إلى الخارج. قال «شاكر الحميدي» لصهره إنَّه ترك لابنه مُكافأة نهاية الخدمة، بينما أوصى بشقته لابنتيه سُعاد وفاطمة. لم يشعر الرجل بجزع صهره مما حكاه كأنَّه يُحدث نفسه، وسمعه بعد فترة يقول في برود غريب:

ـ كِش ملك.

كان «حسين» وقتها يُفكر في أمر مُختلف، فقد رنّت في أذنيه كلمات المُقدم «عبدالرحمن ناصر» له قبل أيام بضرورة التخلُّص من «أديب الشيشكلي». لقد حكى رجل المخابرات لـ«حسين» كيف خدع هذا الرجل الأحزاب الوطنية والقومية، وادعى المُشاركة في حرب فلسطين، بينما لم يُطلق رصاصة واحدة، واستهدفت مشاركته الحصول على أكبر كم من الأسلحة لتخزينها لصالحه واستخدامها وقت الحاجة. واستغرب «حسين» حكايات سردها مُحدثه عن اتفاقات لـ«الشيشكلي» مع بعض الساسة خاصة بعد أن أعاد «هاشم الأتاسي» رئيسًا شكليًا للجمهورية، بهدف عمل صلح مع إسرائيل.

«لقد حقق الرجل ما يريد مرحليًا وهو الوصول لمنصب رئيس الأركان وسيصبح خلال شهور قليلة الحاكم الأوحد لسوريا، ووقتها سيأمرني بالقبض عليك وعلى أصحابك المُناضلين ليُسلمكم للمخابرات البريطانية التي تطلب رؤوسكم». كررها «عبدالرحمن» على مسامع

«حسين» حتى بات يُرددها مع نفسه.

ـ للأسف مات الملك.

قالها «شاكر الحميدي»، وهو يُمسك بأصابع مُرتعشة ملكه الخشبي، بينما سرح دماغ «حسين» في خطة اغتيال أديب الشيشكلي.

***

قال «حسين» وهو يشرح تفصيليًا على خريطة ورقية رسمها له «عبدالرحمن ناصر» أخطر وأهم عملية مُنذ لامست قدمه أرض الشام:

ـ سنقتل الطاغية. سنأكله غداءً قبل أن يتعشى بنا جميعًا. غدًا في المساء سيمُر الهدف من ميدان المارجة للاجتماع في مجلس الحكماء مع «أكرم الحوراني». سيتكون موكبه من ثلاث سيارات جيب في كل منها أربعة جنود، فضلًا عن سيارته الكاديلاك. ستكون هناك سيارة حراسة في المقدمة وواحدة على اليمين وواحدة على اليسار. فور دخول الموكب إلى الميدان وقبيل التوقف بثانيتين سيُلقي نوار الفلسطيني قُنبلته على سيارة المُقدمة، بينما سيكون «مصطفى كمال» و«المرصفاوي» خلف الموكب ليلقيا قنبلتين على السيارتين المجاورتين، في اللحظة نفسها سأخرج أنا و«عبدالقادر» من العمارة المجاورة لمجلس الحُكماء لنطلق النار على الرجل فور انفجار القنابل. بعد إصابة الهدف سننسحب بهدوء نحو مبنى الفنادق الجديدة لنقفز من سطحه إلى المبنى المجاور، وهُناك سنُغيّر ملابسنا ونرتدي ملابس الشرطة لنبدو كباحثين عن القتلة، وستقلنا بعد ذلك سيارة عسكرية خاصة بعيدًا عن الموقع.

كانوا خمسة يتحلقون حول مائدة مُستديرة بشقة صغيرة استأجرها

••سين» قبل شهور لتُصبح مقرًا لاجتماعاتهم. بدا «عبدالقادر ،امر» مُقتنعًا بجدارة الخطة التي وضعها «حسين» أو وُضعت له. ‍،ن على يقين بأنَّ هُناك جهة ما أو حركة قوية وراء عمليات «حسين» و‍الافاته السخية، لكنَّه رضي ألا يسأل ما دامت تلك العمليات تُحقق ‍طموحاته في الفداء والمُغامرة، فضلا عن استقراره في دمشق وحياته الهانئة بعد الزواج من «فاطمة». وشعر «مصطفى كمال» بميل ‍..يد نحو أعمال القتل وإطلاق الرصاص، مُكررًا فكرة عبثية الحياة الطبيعية، وضرورة العيش مع الأخطار. أما «محمد المرصفاوي»، ‍كان لا يُفكر إلا في الحصول على أموال وفيرة تكفيه شراء صناديق ‍الخمور المُتنوعة واستئجار أجساد الفاتنات من المومسات. وجاء ‍«سمام «نوار» الفلسطيني إلى المجموعة نكاية في مجموعة «هاني الهندي» التي مالت إلى السلمية بأوامر من «جورج حبش».

‍قلب «حسين» كرتونة من الأسلحة المتنوعة فوق الطاولة، وقال ‍لزملائه:

- سيكون مع كُل واحد منا مُسدسان محشوان في جيبيه، وثالث ‍مربوط في ساقه وستوضع القنابل في حقيبة صغيرة يتم تعليقها فوق الكتف.

وأضاف:

- ساعة الصفر هي الواحدة ظُهرًا، حيث سنتحرك إلى مواقعنا وسنبقى فيها مُختبئين حتى السابعة مساء موعد وصول الهدف.

- ماذا نفعل لو تأخر وصوله أو ألغي اجتماعه؟

سأل «مصطفى» في اهتمام، فردَّ «حسين» قائلًا:

- لا تقلق. لو تأخر سننتظره، أما إذا ألغي الاجتماع وهذا احتمال مُستبعد، فسنضع له خطة أخرى.

‍نظر «حسين» مرة أخرى إلى أفراد جماعته واحدا تلو الآخر، وعلا

t.me/qurssan

صوتـه قليـلًا وهـو يقـول:

ـــ خـذوا بالكـم. لـو خـرج أكـرم الحـوراني لاسـتقبال رئيـس الأركان، علينا قتلـه هـو الآخـر، ووقتهـا سـتتضاعف المُكافـأة. سـتصبحون جميعًـا أثريـا، إلى الأبـد.

وتفحصهم بنظرات سريعة قبل أن يسأل مرة أخيرة:

ـ هل لدى أحد أي سؤال؟

هـزُّوا رؤوسـهم، وانصرفـوا، فعـاد «حسـين» إلى البيـت ليجـد امرأتـه تُهدهـد طفلهـا وهـي تبـكي، فاسـتفسر مُتظاهـرا بالاهتمـام، فأجابـت بـأنَّ حـرارة الطفـل مرتفعـة مُنـذ الصبـاح، وتشـعر بالخـوف الشـديد عليـه طمأنهـا مُقبـلًا، وأخبرهـا بـأنَّ كل الأطفـال يمـرون بحـالات مرض مشـابهة، قبـل أن يتركهـا ليجلـس وحيـدًا في شرفـة بيته يُدخـن في هـدوء. كان يُفكر في العمليـة القادمـة الـتي قيـل لـه إنَّ دولًا كُبرى في المنطقـة يهمهـا نجاحهـا، وأنَّـه سـينال مـا لـم ينلـه شـخص مـن تكريـم، خاصـة أنَّـه سـيُنقذ العـرب مـن عـار جديـد سـيلحقه بهـم الضابـط الطاغيـة. تخيَّـل «حسـين» جسـد رئيـس الأركان وهـو يتراقـص تحـت زخـات الرصـاص المُنهمـر، ثُـم يسـقط صريعًـا لتسـقي دمـاؤه أرض الميـدان الأشـهر بالمدينـة القديمـة. مـر بخاطـره مشـهد «أمـين عُثمـان»، وهـو يهـوي عـلى الأرض بعـد أن غـرس في جسـده عـدة رصاصـات قاتلـة. ابتسـم، وهـو يفكّـر كيـف تهرب الروح مُفارقـة جسـدًا يُحـاول حبسـها! مـا أجملهـا مُهمـة، تلـك الموكولـة لملاك المـوت، أن يسـحب نفسًـا مـن عالـم الأكاذيـب ليُلقـي بهـا عاريـة في عالـم الحقيقـة. تصـوَّر لـو مـات هـو، لـو اختـاره القـدر هدفًـا بـدلًا مـن صيده، لـو تلقفـه المـلاك الحـازم لينقلـه مـن مـكان إلى لا مـكان، ومـن زمـان إلى مـا لا يعـرف. لـو رفرفـت روحـه مُفارقـة، وعاصيـة لإرادتـه. لـو أخطأ هدفـه وأصابتـه أيـدي الأوغـاد الأشرار. سـاعتها سـتبكي «سُـعاد»، رُبما أكـثر مـن الآن، وسـيكبُر ابنـه مُدلـلًا رخـوًا ناعمًـا كمـا النسـاء، ضعيفًا مثـل «عـاصي»، ورُبمـا جبانًـا مثـل «نجيـب». سـيقف أمـام ضحايـاه دون

ام. سيقتصون منه. ستلعنه كُتب التاريخ، وسيشوهون أعماله.

رد وساوسه، وقام ليغسل وجهه ويُغيِّر ملابسه، ويتمدد على
راش بعد أن منح ابنه قُبلة نادرة، دفعت زوجته للدهشة.

***

مقرّ الشركة العربية للتجارة بحي المارجة جلس «حسين»
عبدالقادر» يتابعان إجراءات تحويل بضائع لمصر عبر البحر.
ا قد ادعيا أنَّهما تاجران يرغبان في بحث تفاصيل نقل عشرات
سناديق من الأقمشة والمنسوجات إلى ميناء الإسكندرية، واستهلكا
ا طويلًا في أسئلة بلا مغزى سوى إطالة الوقت، حتى موعد
راب ساعة الصفر. استئذنا بعد مشاورات طويلة وظلا عدة دقائق
نان على السلالم انتظارا لصوت الانفجار موعدا لبدء العملية.
اوزت عقارب الساعة الموعد المُحدد، ولم يجرِ أي شيء، مما دفع
سين» للخروج إلى الشارع، مُقتنعًا أن سوء الحظ كثيرًا ما يُفلت
ه ضحاياه. نظر خلفه فوجد «عبدالقادر» قلقًا وهو يخطو خارج
المبنى، فرفع كتفيه بعلامة عدم معرفة ما دفع «أديب الشيشكلي»
إلى إلغاء موعده. سار «حسين» بضع خطوات إلى جوار مجلس
الحُكماء ليتبعه «عبدالقادر» في تسليم، لكن لم تمض نصف دقيقة
تى ظهرت سيارات الموكب بادئة على غير المُعتاد بالسيارة المُقلة
الهدف، والتي توقفت سريعًا ليهبط منها بضعة جنود مُدججين
البنادق صانعين دائرة شبه مُكتملة، ثُم ترجّل قائدهم عابرًا
طوات سريعة نحو المبنى، مما دفع «حسين» للالتصاق سريعًا
حائط المبنى، قبل أن تتقابل عيناه مع عيني أحد الحراس المُتحفزين
قرأ فيهما الاستعداد التام. رمى «حسين» بعينيه إلى زميله سائلًا
ما أعاق بقية الأفراد عن القيام بمهامهم، ثُم غمزه غمزًا فهمه

t.me/qurssan

«عبدالقـادر» فاتخـذ موضـع الاسـتعداد، ليبـدأ معًـا في اللحظـة ذاتها إطلاق ذخيرة أربعـة مسدسـات نحـو «أديـب الشيشـكلي» الـذي توقف مكانـه غـير عـابئ بالرصـاص، مُثبتًـا لنفسـه قبلهـم أنَّـه ذو قلـب ميت عـشرات الرصاصـات انهمـرت عـلى موقـع وقـوف الهـدف، قبـل أن يبدأ حُراسـه في الـرد بعصبيـة وتوتـر ممـا أصـاب القنّاصـين بالارتبـاك، وتقهقرا رويـدًا وظـنَّ «حسـين» أنَّ بضـع رصاصـات أصابـت هدفـه وحارسه الشـخصي. جريـا بظهريهمـا نحـو مبـنى الفنـادق، لكنَّهمـا فوجئـا أن بابه مُغلـق مـن الداخـل بإحـكام، فواصـلا الركـض نحـو المبـنى المجاور، لكنَّـه كان مُغلقًـا كذلـك، فتابعـا الهـرب والرصـاص يُـدوي فوقهمـا ليؤكد إصرار الحـرس عـلى الإيقـاع بهمـا.

مـن حائـط إلى آخـر تنقـلا، وبحـث «حسـين» عـن شـق في الأرض أو سلمًا إلى السـماء دون فائـدة، في الوقـت الـذي سـمع فيـه عـواء مكتومًـا خلفه عـرف منـه أنَّ «عبدالقـادر» أُصيـب. نظـر إليـه فـرآه رافعًـا ذراعيـه لأعلى في وضـع الاستسـلام، فأيقـن أنَّـه مهمـا فـرّ فسـيصلون إليـه، وتذكـر يوم القبـض عليـه بعـد سـاعات مـن قتـل «أمـين عُثمـان». فكَّـر للحظات قبـل أن يُقرر أنَّـه ليـس مـن الحكمـة مواصلـة الركـض، ليُلقـي بمُسدسه عـلى الأرض، ويهبـط عـلى ركبتيـه رافعًـا يديـه مثـل زميلـه.

قُيِّـدا، وضُربـا، وصُبـت عليهمـا الشـتائم، واقتيـدا نحـو إحـدى سيارات الحراسـة لتنطلـق بهمـا بسرعـة جنونيـة مرَّت خلالهـا عبر شـوارع عديدة، ثُـم توقفـت أمـام حاجـز عـدة دقائـق قبـل أن تنطلـق مـرة أخـرى في طريـق خـارج العاصمـة، في الوقـت الـذي سـمع فيـه «حسـين» أنين صاحبـه، ثُـم بُـكاءه، فالتفـت إليـه مُعاتبًـا بنظراتـه لـيرى يُـسراه تكتم دمًـا مُتدفقـا مـن جانبـه الأيمـن. هـزَّ رأسـه وقـال لنفسـه: إنَّهـا الخيانة.

وقفـت السـيارة فجـأة ليجـد «حسـين» مَـن يلـف عصابـة حـول عينيه، ثُـم يدفعـه لأسـفل، فسـقط عـلى الأرض، لكنـه تماسـك ووقـف مرة أخـرى ومـضى أمـام يـد تدفعـه بقـوة، حـتى وجـد نفسـه في غرفـة مُظلمة

ا... ن أنها إحدى زنزانات رئيس الأركان المتطلع إلى الحُكم. رفعوا ...صابة ليشعر بألم حاد في عينيه أعاد لذهنه آلام ما بعد عملية ... لاح الشبكية. تذكر ما سمعه من حميه يومًا عن كيفية تعامل ...سكريين مع بعضهما بعضا. هُم لا يعرفون الرحمة. رصاصات ... ...ة يتلذذون بإطلاقها نحو ضحاياهم، ورُبما شاهدوا خصومهم ...دبون أمامهم طلبًا للموت الرحيم فأبوا. لقد قتلوا «حُسني ال...م» بدمٍ بارد، قبل أن يدوسوا جُثته بالأحذية يوم غدروا به، أ... قتلوا «سامي الحناوي» بعد أيام قليلة من نفيه لبيروت دون أي ... سوى الانتقام. وها هو «الشيشكلي» ينجو من رصاص كاد أن ... و طموحاته نحو الانفراد بالسُلطة.

... «حسين» إن كان عليه أن يحكي كُل شيء عن رجل المُخابرات، ... ي حرَّضه ورسم له الطريق، ودفع، وموّل، وطمأنه بالسلامة ما ... حيًا. قال إنه سيكون إلى جواره دائمًا، ولن يسمح لأحد بإيذائه، ... دُق «حسين» لأنَّه كان يُريد أن يُصدق، أو لأنَّه كان في حاجة لمال ... بل لأنَّه كان في حاجة لرصاص يُطلق، ودمٍ يسيل، وروحٍ تُزهق. ... ل يعلم «عبدالرحمن ناصر» أين هو الآن؟ وهل سينقذه بالفعل؟ أ... يكون هو الذي وشى به؟ لكن لِمَ؟ لو أراد القضاء عليه لفعل ...ساطة وبدون مثل هذه الأفلام الساذجة.

... ال لنفسه، إنَّه أقوى من الخوف، وأصلب من التوتر، وأشدّ ... أي تعذيب. جلس على ركبتيه، واضعًا وجهه بين كفيه، مُغمضًا ... ن احمرتا من أثر الضربات ودُخان الرصاص، لينام. رأى «ميمي» ... ه باهتمام وهي تُصارحه بأنَّها لا تشعر بأي نشوة مع زوجها ال...ابط. قالت هامسة بميوعة: «إنَّه يرتعش كُلما نظر نحو نهداي». ...سنته «سناء»، وهي دامعة العينين، لتطلب منه أن يُسامحها. ...حت كم كانت على خطأ عندما فضّلت عليه «نجيب» قارئ ال...ب وعاشق الأفلام: «إنَّني أريد رجلًا قويًا مثلك. رجلًا حقيقيًا».

t.me/qurssan

سمع «سعيد» يُناديه بصوتٍ عال: كم أفتقدك يا مُعلمي. اشتمت جيوبه الأنفية عطر «سُعاد» الهادئ، وشعر بجلدها الأبيض يُلامس جلده. كانت كما عرفها دومًا طائعة، ساكنة، توافقه على أي فعل، وتلتمس له ألف عُذر.

فتحت له ذاكرته نافذة على شوارع نظيفة هادئة، وعساكر لهم بشرة بيضاء يسيرون بأفخاذ عارية، وطلبة أشقياء يلقون عليهم الطوب ثُم يختبئون خلف أشجار سامقة. شاهد وجه أبيه مُحمرًا وهو يُتابع مشهد إطلاق الرصاص على قاضي دُنشواي بسعادة غامرة، ثُم رآه باردًا بعد أن غمرته راحة المنصب وأسكتته سكينة النفوذ. أطلَّت أمه بسمتها المُتعالي وملامحها التُركية لتقول له إنَّه باشا لأنَّ والده باشا وخاله باشا وجده باشا وأنَّه لا يجب ألا يلعب مع «سيد» قريب «عثمان الجنايني».

ــ قُم.

أيقظه صوت ارتطام الباب الحديدي بجدار الزنزانة ليجد ماردًا مُخيفًا يرتدي ملابس عسكرية يأمره بالسير أمامه، ليقوده عبر دهليز مُعتم إلى حجرة مكتب فخم شديدة الشبه بتلك التي التقى فيها حُسني الزعيم في العام الماضي. دُفع داخل الغرفة ليجد هدفه جالسًا ببذلة عسكرية مُزدانة بالنياشين وفوق رأسه بيريه لائق برجل حرب. وقف «حسين» صامتًا وهو لا يكاد يُصدق أنه واقف أمام الرجل الذي بات يحلُم بقتله. كان ذا وجه نحيل تمامًا مثل «إبراهيم إمام»، وكانت عيناه تشعان بريقًا غامضًا. سأله بجدية:

ــ هاااا. لحساب مَن تعمل؟

صمت كثيرًا، وفكَّر في مُحرِّضه، لكنَّه خشي أن يخلع ثوب البطولة أمام زُملائه، وتذكر قول رجل المخابرات بأنَّه آمن. استجمع شجاعته وقال بعد أن رسم على وجهه ملامح الثائر:

ــ لصالح فلسطين.

فلسطيييييييييين.

ررها رئيس الاركان ساخرًا، قبل أن يصرُخ قائلًا:

- وهل هُناك من أعطى فلسطين مثلي؟ لقد حاربت، بينما كان القادة يتصارعون على الحُكم، ومن أجلها خلعت حُسني الزعيم، أم من أجلها خلعت الحناوي.

وخبّط بيمينه على المكتب، وواصل:

- أي مجنون أنت لتتصور أنني مع أعداء فلسطين. لقد غامرت بحياتي من أجلها وسأجعل سوريا كُلها تنتفض ضد الصهاينة لطردهم مرة أخرى.

نظر رئيس الأركان بغيظ شديد إلى «حسين»، وقال له:

- اسمع أيها المعتوه. لقد أصبت حارسي المُخلص برصاصة في الرأس، وهو الآن في المستشفى العسكري يعالج. لو مات، سأقتلك بيدي هذه، ولو لم يمُت سأجعله يقتُلك بمسدسه. هل تفهم؟ في الحالتين أنت ميت تتنفس أنفاسك الأخيرة.

وأشار للحارس ليأخذه من أمامه.

***

من القاهرة إلى دمشق قطع رحلته بالطائرة في ساعتين ليؤدّي واجبه في الترافع عن «حسين توفيق» بعد اتفاقه مع والده على ذلك نظير أتعاب ألفي جنيه. كان «أحمد الناحي» المُحامي أحد الذين شاركوا في انتزاع رقاب قتلة أمين عُثمان من قبضة عشماوي بعد أن قدّم إلى المحكمة شهادات طبية تفيد عدم مسئولية «حسين» عن أفعاله نتيجة اضطراب نفسي يُعاني منه.

قال له «توفيق بك»:

t.me/qurssan

ـــ إنَّ مُهمتك أن تُفلت حسين من الإعدام مثلما فعلت في السابق
أنت أفضل مَن يقوم بذلك.

ذهب إلى المحكمة العُليا بدمشق طالبًا الإذن بالترافع، قبل أن يبعث أحد أصدقائه من المحامين السوريين لجلب أوراق القضية. كانت القضية قد حوّلت للنيابة العسكرية التي أثبتت اعتراف «حسين توفيق» بإطلاقه الرصاص على رئيس الأركان أثناء هبوطه من سيارته مما تسبب في إصابة حارسه الشخصي بإصابات خطيرة. وقرأ المُحامي اعتراف عبدالقادرعامر بمشاركته في محاولة الاغتيال اعتقادًا منهما أنَّ رئيس الأركان يسعى لعمل صلح مع الدولة الصهيونية، فضلا عن اعتراف «مصطفى كمال» باعتزامه المشاركة في العملية، إلا أنَّه قُبض عليه قبل ساعة من تحركه نحو موقع التنفيذ. أما «محمد المرصفاوي» فأنكر تمامًا أي صلة له بالعملية، بل إنَّه أنكر أن يتورط صديقاه «حسين توفيق» و«عبدالقادرعامر» في إطلاق رصاص على أديب الشيشكلي لأنهما يعرفان وطنيته، ثُم أنكر «المرصفاوي» معرفته بـ«نوار» الفلسطيني الذي كان واضحًا أنه مَن وشى بهم جميعًا.

قدَّم المُحامي طلبًا للاجتماع برئيس الأركان قبل الترافع في القضية، خاصة أنَّه يعلم أنَّ القضاء العسكري بات وحاسم ويرفض ألاعيب المحامين وحيلهم. قال إنَّ إقناع الرجل بعدم سلامة المُتهم الأول كفيل باستدرار عطفه، وهو ما قد ينجح معه في الحصول على عفو عنه أو سجن مؤبد. فوجئ «أحمد الناحي» بسرعة تحديد الموعد ليجلس أمام رجل مهيب، تبدو عليه الحكمة رغم بعض العصبية البادية على ملامحه. في البداية حاول المُحامي كسب ود الرجل فقال له:

ـــ تهانينا على الثورة ضد الحناوي. آمل أن تجد البلاد في ظل قيادتكم الاستقرار والرفعة.

t.me/qurssan

لكنَّ «أديب الشيشكلي» ردَّ سريعًا:

ـ لا ثورة ولا شيء. إنَّه انقلاب عسكري، ثُم أنا لست القائد كما ترى. هناك رئيس جمهورية.

ـ تمام. لكنَّك كُل شيء.

ـ ادخل في الموضوع أيها المُحامي الكبير. أنا لا أستطيع مجاراة المصريين في الحوار. أنتم ماهرون في كُل شيء، وأنا رجل عسكري لا أعرف اللف والدوران.

ابتسم المُحامي، وقال للقائد:

ـ إنَّ مصر دولة كبيرة في المنطقة، ومن الضروري لأي سُلطة في دمشق أن تعمل على تحسين علاقاتها مع...

قاطعه الرجل سائلًا:

ـ هل أنت مبعوث جلالة الملك فاروق؟

هزَّ المُحامي رأسه نافيًا، فكرَّر مُحدِّثه:

ـ هل أنت موكل من السيد مُصطفى باشا النحاس للتحدث باسم الحكومة المصرية؟

هزَّ المُحامي رأسه مرة أخرى، فصاح «الشيشكلي»:

ـ إذن ادخل في الموضوع سريعًا.

ـ حسين توفيق.

ـ ما له؟

ـ إنَّه ولد مريض نفسيًا وهذه شهادات طبية تؤكد.....

قاطعته إشارة من كف الرجل، ورنَّ جرسًا أمامه ليطلب من الحارس أن يجلس أمام أحمد الناحي ثُم قال:

ـ هل ترى أذنه؟

وأشار إلى بقايا أذن مبتورة، فوق جرح مازال واضحًا، قبل أن يضيف:

t.me/qurssan

ــ هـذا رجـل مـن أخلـص رجـالي. أطـار الولـد المريـض الـذي تدافـع عنـه أذنـه فلـم يعُـد يسـمع سـوى بواحـدة. ولـولا سـتر اللـه لقـضى نحبه.

هـزَّ المُحامـي رأسـه اقتناعًـا، قبـل أن يعـود الهـدوء إلى وجـه رئيـس الأركان ليسـأله عمـا يـشرب، ثُـم قـال لـه في أدب جـم:

ــ أنـا أقـدر موقفـك أيهـا المحامـي القديـر. أنـت تـؤدي واجبـك. لكـن، صدّقـني، لقـد قـررت المحكمـة بالأمـس أن يكـون حكمهـا بإعـدام حسـين وزميلـه الآخـر. أمـا الولـدان الآخـران فسـيتم سـجنهما عـشر سـنوات.

باتت خيبة الأمل مرسومة على وجه المحامي، الذي قال:

ــ هل لي أن أسألك سؤالا؟

ــ تفضل.

ــ لِمَ قبلت لقائي وأنت تعرف أنني سأتحدث إليك في هذا الموضوع؟

ابتسم «أديب الشيشكلي» قليلا قبل أن يقول:

ــ لقـد انتظـرت أن تُقنعـني بـأن حسـين توفيـق لا يسـتحق المـوت. لكـن هـذا لـم يحـدُث.

شـكره المُحامـي بدبلوماسـية قائـلًا لنفسـه إنَّ الرجـل يريـد أن يؤكـد لـه أنَّ الأبـواب لـم توصـد بعد. غـادر مُفكـرًا، ليلتقـي «سُـعاد» في منزلهـا، ناقـلًا لهـا رسـالة مـن «حسـين» بـأنَّ تأخـذ وليدهـا وتسـافر إلى القاهـرة. كانـت ذابلـة العينـين، وبـدا وجههـا شـاحبًا مـن طـول السـهر والبـكاء حُزنًا عـلى والدهـا الـذي رحـل بعـد ثلاثـة أيـام مـن سـقوط زوجهـا في أيـدي الشرطـة العسـكرية، فضـلًا عـن رفـض السـلطات العسـكرية رؤيتها لـ«حسـين»، والـذي تظـن أنّـه صـار قريبًـا مـن نهايتـه. قالـت للمُحامي:

ــ مـا الـذي يدفعـني لـترك الشـام؟ والـدي رحـل، لتبقـى أمـي وشـقيقتي وحدهمـا. وزوجـي ينتظـر الإعـدام في أي لحظـة. سـأبقى هُنـا.

انهمـرت دموعهـا لترسـم خطـين أسـمرين عـلى خديهـا الجميلـين. ... لهـا المحامـي بعطـف قبـل أن يقـول:

t.me/qurssan

ـ أنتِ حُرة بالطبع. لكني أرى أنّه ليس لك دخل الآن، ومعاش والدك بسيط جدا، وهو بالكاد يكفي احتياجات أمك. وشقيقتك هي الأخرى بلا عائل. وأفضل اختيار في تصوري هو القدوم معي إلى القاهرة. هُناك ستجدين كُل ما تحتاجينه ويحتاجه ابنك. هُناك ستجدين التربية المناسبة لخالد، والعائلة الأصيلة، والبيت الكبير. فكّري جيدا يا بنتي. وجودك هُنا بلا فائدة. وسنحاول الضغط سياسيًا للإفراج عن حسين.

لم ترُد، وشكرته دامعة، ثم ودَّعته، وهي تُفكّر في الانتقال إلى القاهرة.

***

وصلته الرسالة واضحة: لا تقلق. صدر الحُكم بإعدامه، فاستعاد مشهد خروج الروح من أُناس وقّع شهادات النهاية لهم. كانوا حينئذ يرتجفون، وتجحظ عيونهم، ويُرددون حوارًا هامسًا مع لا أحد. أما هو فلم يشعر بأي خوف، لم تهتز لديه شعرة واحدة، ولم يخفق قلبه هلعًا انتظارًا لإنهاء حياته. كان يشعر بالسكون التام، واللامبالاة المُعتادة، وهدوء الأعصاب الغريب.

ظلَّ «حسين» في محبسه يرتدي بذلة الإعدام، وإلى جواره عبدالقادر ببذلة شبيهة، وقد ربط ذراعه نحو عُنقه، تأثرًا بإصابته بالرصاص يوم الحادث. علما ببراءة «مصطفى كمال» و«محمد المرصفاوي» ورحيلهما إلى القاهرة قبل ساعات من علمهما بالحُكم الذي تُلي غيابيًا.

مرَّت الأيام دون عد، واختفى المُحامي تماما بعد أن انتهى إلى لا جدوى من نقض الحُكم باعتباره عسكريًا باتًا، حتى فوجئ «حسين» ذات مساء باستدعائه إلى غرفة مُدير السجن العسكري ليتركه المدير

t.me/qurssan

مع رجل المُخابرات المُخضرم «عبدالرحمن ناصر». استعاد السجين حيويته، وفتح الأمل نوافذه مرة أخرى على قلبه، عندما قال له الرجل إنَّه يُقدر ثباته وصلابته، وأنَّه لن يُعدم وسيبقى طي النسيان حتى يأذن الله له بالخروج. أخبره الرجل أيضًا أنَّه بعث بمبلغ من المال لزوجته، قبل أن تُسافر إلى القاهرة بصُحبة ابنها، وأنَّه فعل الأمر نفسه مع زوجة «عبدالقادر». حكى الرجل سريعًا أنَّ أكبر خطأ ارتكبه «حسين» هو ثقته الزائدة في «نوار» الفلسطيني الذي كان يعمل لحساب جماعة أخرى على صلة ود بـ«أديب الشيشكلي» نفسه. أخبره «عبدالرحمن» أنَّ القاهرة تشهد زخمًا شديدًا بعد أعمال شغب عديدة تم خلالها حرق المنشآت العامة والمباني الأجنبية، وتم إقالة الحكومة بعد تحميلها المسئولية. سأل حسين مُحدثه عن الوقت المتوقع لبقائه في السجن، فردّ «عبدالرحمن» بأنَّه رهين بقاء «الشيشكلي» على كرسي الحُكم، لكنَّه أكد مرة أخرى أنَّه لن يُعدم لأنَّ رئيس الأركان الذي أطاح برئيس الجمهورية لينفرد بالحكم سيبقيه ليتفاوض به مع القاهرة بغية تحسين العلاقات. اقتنع «حسين» بحديث الرجل، وقام بطمأنة زميله في الزنزانة، والذي كان يعاني من هُزال شديد واكتئاب حاد.

تلقى «حسين» رسالة من زوجته أبلغته فيها بصدور مرسوم ملكي بالعفو عن جميع المحبوسين في قضية مقتل «أمين عُثمان» واستثنائه بسبب هروبه. أخبرته أنَّها التقت زُملاءه «محمد إبراهيم كامل»، و«مدحت»، و«سيد»، و«عُمر»، و«محجوب»، وأنَّهم رأوا «خالد» وقالوا إنَّه نسخة من «حسين»، وتوقع «سعيد» ساخرًا أن يصبح «خالد» ضابطًا للشرطة. حكت له أنَّ خالته أصرَّت على تعليق خرزة زرقاء في سلسلة من الفضة في رقبة الولد الصغير، لتقيه شر الحسد. وألمحت الزوجة بأنَّ حماتها مازالت تنظر إليها نظرات لوم مُرددة دائمًا أمامها أن الزوجات حظوظ، وأنَّ هُناك زوجات تجلب الخير وأخريات تأتي معها المصائب. قالت إنَّ حماها يبدو أكثر ...

t.me/qurssan

ا.م غيابه المتكرر عن البيت، وإنَّه ينظر دائمًا بمحبة وعطف إلى «الد»، قبل أن تغلبه دموعه سريعًا.

«محمد إبراهيم كامل» بعث برسالة أخرى إلى «حسين» أكد له ڡها أنَّ جميع الأصدقاء فخورون به، وبنضاله ضد الصهيونية، وأنَّه ‏ رأ تحقيقًا صحفيًا في مجلة روزاليوسف سألوا فيه بعض الشباب ‏ ن قدوتهم، فنطق أحدهم باسم «حسين توفيق»، ولما سُئل ‏ ن سبب اختياره، أجاب بأنَّه أطلق الرصاص على خادم الاحتلال، ‏ طارد جنود الإنجليز واعتدى عليهم، ثُم سافر للحرب ضد إسرائيل، ‏ تبع الخونة في كُل مكان. «لقد صرت أبًا روحيًا للمناضلين الجُدد» ‏ رأها «حسين» في رسالة صديقه وابن خالته، والذي زفَّ نبأ تخرجه ‏ عمله بالمحاماة. كان من اللافت أنَّ أحدًا لم يُخبر «حسين» شيئًا ‏ ن «محمود مراد»، لكنَّه توقَّع ما سبق أن قدم له «إبراهيم كامل» في رسالة سابقة بأنَّه طلَّق السياسة تمامًا، وتفرَّغ للهندسة ولا شيء آخر.

مرَّت الأيام رتيبة، باهتة، ومتشابهة على السجينين المحكوم عليهما بالإعدام مع وقف التنفيذ. خفَّت شحومهما، وتآلفا سريعًا مع العساكر والحُراس، قبل أن يتعرفا على بعض السُجناء الآخرين خلال ساعات التريُض. كان من المُثير أنَّ أحدًا من السُجناء لا يعرف جناياتهم أو حتى العقوبات التي ينبغي عليهم تنفيذها، خاصة أنَّ بعضهم أدين بأحكام صادرة من «حُسني الزعيم»، ثُم تم إلغاؤها من خليفته، ثُم أعيدت مرة أخرى بعد انقلاب «أديب الشيشكلي» الأول. تعرَّف «حسين» و«عبدالقادر» على عدد من شباب جماعة الإخوان الفارين من مصر، والذين أكدوا لهما أنَّ السجن في سوريا أهون كثيرًا من سجون «إبراهيم عبدالهادي» الذي قمع الإخوان بعُنف وسادية عقب اغتيال «النقراشي باشا».

ذات صباح صيفي قصَّ عسكري سوري على السجناء المصريين

t.me/qurssan

قصة تحرك الجيش في القاهرة للاستيلاء على السلطة وإعلان خلع الملك. كان من المُفاجئ لحسين أن يعرف أنّ قائد الانقلاب هو «أنور السادات»، والذي أذاع بيان الحركة. سرحت ذاكرته في صاحب الوجه الأسمر وتذكر كيف كان مُرشده الأول، واستبشر أن يرى النور قريبًا، ما دام «الحاج محمد» على رأس الحركة الجديدة. قال لزميله في الزنزانة وهو يُدخّن بنهم:

ـ استعد. سنخرُج قريبًا.

وظل يُكررها خمس سنوات.

***

لم تجد «سُعاد» في بيت «توفيق بك» في مصر الجديدة السعادة المُنتظرة خاصّة في ظل تحكم حماتها في كُل شيء. كانت «سُعاد» لا تستطيع الخروج من البيت إلا بإذن خاص، وبصُحبة السيدة الكبيرة أو شقيق زوجها «سعيد»، وكانت تجد شُحًا بالغًا من سيدة البيت في مصروفها الشخصي الذي اقتصر على بضعة جنيهات كُل شهر.

لم تر الفتاة الحالمة قاهرة الصخب، حاضنة الفن والجمال التي طالما قرأت عنها في الصُحف والمجلات. لم تسر في شوارع وسط البلد، ولم تسهر على أي من مقاهيها، ولم تلتق بمبدع أو فنان شهير في أي احتفال. كان كُل شيء حولها يتغير بسرعة جعلتها لا تكاد تُصدق سُرعة التحولات المُترتبة على ثورة يوليو. غابت الطرابيش رويدًا، مع إلغاء الألقاب، وصدرت قرارات كثيرة بالعفو عن سجناء سابقين في قضايا سياسية.

كانت العائلة الثرية تفتح بيتها لزيارات بعض العائلات الأخرى أو الأقارب، وكانت النظرة التي تتلقاها «سُعاد» دائمًا من الزائرات

t.me/qurssan

ـمـل مزيجًـا مـن الازدراء والاسـتغراب، ازدراء مـن فتـاة تزوّجـت شـابًا
... ممًا ثريًـا، فُحكم عليـه بالإعـدام، واستغراب مـن ملابسـها البسـيطة،
ولهجتهـا الشـامية. كذلـك حمّلـت سـيدات العائلـة الفتـاة السـورية
مسئولية إصابـة وليدهـا «خالـد» بمـرض عصـبي خطـير نتيجـة ارتفـاع
درجة حرارتـه عندمـا كان صغـيرًا. كان مـن الواضـح أنَّ الولـد قريـب الشبه
بـ«حسـين» يُعـاني مـن صعوبـة شـديدة في الـكلام، وكثـيرًا مـا كانـت تنتابـه
حالـة ارتعـاش مُتكـرر، وبـكاء دون سـبب رغـم بلوغـه الثالثـة مـن عُمـره.
عرضت «سُـعاد» أكـثر مـن مـرة في عـرض الولـد عـلى كبـار الأطبـاء، لكـن
تحكم حماتهـا في جميـع أمـور الولـد أصابهـا باليـأس، ودفعهـا للتفكـير
أكثر مـن مـرة في العـودة إلى دمشـق، إلا أنَّ اعتـلال صحـة حميهـا حـال
دون ذلـك، فضـلا عـن عـدم السـماح لهـا بزيـارة «حسـين» في سـجن
المزة الـذي نُقـل إليـه بعـد وقـف إعدامـه بقـرار مـن رئيـس الجمهوريـة
الـذي سـعى لمـد علاقـات ود مـع القاهـرة.

في يـومٍ مـا زارهـا «محمـد إبراهيـم كامـل»، وقـال إنَّـه زار السـيد أنـور
السـادات عضـو مجلـس قيـادة الثـورة ووعـد بالتدخـل للإفـراج عـن
«حسـين»، خاصـة أنَّ الثـورة في حاجـة لجهـود الشـباب الوطـني لخدمـة
البلد. وأخبرهـا ابـن خالـة زوجهـا بـأنَّ «جمـال عبدالنـاصر» عـرض عليـه
العمـل في الحكومـة فاختـار العمـل الدبلومـاسي، حيـث تـم تعيينـه في
وزارة الخارجيـة، وسيسـافر قريبًـا للعمـل في إحـدى السـفارات. ورجاهـا
أن تُكرر الاتصـال بـ»أنـور السـادات» لتذكـيره بموضـوع «حسـين»، لكـنَّ
حماتهـا منعتهـا واختطفـت رقـم الهاتـف مـن أصابـع ابـن أختهـا مؤكـدة
أنَّ النسـاء ليـس لهـن الحـق في الاتصـال بأحـد في غيـاب أزواجهـن، وأنَّ
«سـعيد» سيقوم بالمهمـة عـلى خـير وجـه. ورغـم مـرور أسـابيع طويلـة
على اللقـاء، فـإنَّ «سـعيد» لـم يتمكـن مـن لقـاء «السـادات» بسـبب
كثرة مشـاغله.

فيمـا بعـد قـررت «سُـعاد» الاعتمـاد عـلى نفسـها وزارت الصحفـي

«إحسان»، الذي أخبرها بأنَّ «السادات» أكد صعوبة التدخل لدى دمشق بسبب ثورة الجبل الجارية ضد حُكم أديب الشيشكلي وأن أفضل شيء هو الانتظار، وهو ما دفع «سُعاد» لاتخاذ قرار العودة إلى سوريا. وأدى إصرار حماتها على بقاء «خالد» في القاهرة إلى سفرها وحيدة لتجد شقيقتها في انتظارها بالمطار تُخبرها بأنَّها رأت منامًا يؤكد أنَّ الإفراج عن زوجيهما بات قريبًا. كانت «فاطمة « تؤمن إيمانًا شديدًا بأن الأحلام تحمل كثيرًا من البشارات والعلامات، وكانت مولعة بتفسيرها، وهكذا قصّت على شقيقتها أنها رأت رجُلا مهيبًا يفتح قفصًا لتطير منه عدة عصافير وهي تزقزق فرحة.

كانت دمشق قد اتشحت بالسواد، بعد سقوط عشرات القتلى من الدروز في ثورة الجبل، وبدا واضحًا على وجوه التجار والباعة هموم الكساد والفاقة، في ظل نظام القمع القائم، الذي سبق نظام ثورة يوليو في حلّ جميع الأحزاب والبرلمان واعتقال الساسة وحظر المُظاهرات. ومع تعاظم الثورة ضد الحاكم الحديدي اضطر «أديب الشيشكلي» إلى مغادرة سوريا وطلب اللجوء إلى بيروت ليُعلن في خطاب رسمي تخليه عن السُلطة نهائيا، مما أعاد الفرح مرة أخرى إلى وجوه الناس في أرجاء الشام.

ولم تمض أيام على الواقعة حتى سُمح لـ«سعاد» و«فاطمة» بزيارة زوجيهما، مما جعل «فاطمة» تفخر أمام شقيقتها بصدق أحلامها، وزاد من فرحتهما خطاب أرسله «سعيد توفيق» قال فيه إنَّه نجح أخيرًا في لقاء «السادات»، وأنَّه وعد بالتدخل لدى السُلطات السورية للعفو عن «حسين» وزميله «عبدالقادر».

t.me/qurssan

الفصل الثالث
القاهرة مرة أخرى

t.me/qurssan

ـلس عضـو مجلـس قيـادة الثـورة بمكتبـه الجديـد بـدار التحريـر مفكرًا في كيفيـة تجنب الدخـول كطـرف في الـصراع الدائـر عـلى السُـلطة والنفـوذ داخـل النظـام الجديـد. كان «أنـور السـادات» يعـي جيـدًا أنَّ وضـع الثِقـل داخـل مجلـس قيـادة الثـورة يميـل ناحيـة الضابـط الأسـمر الذكي القـادم مـن أسـيوط الـذي اشـتهر اسـمه بعد حـرب فلسـطين كأحد الضباط الوطنيـين. فكَّـر أنَّ «جمـال عبدالنـاصر» بسـمته البسـيط وعقليته المُتشـككة قـادر عـلى حسـم الأمـر لصالحـه. تيقـن «السـادات» بعـد الأزمـة العاصفـة الـتي كادت أن تـودي بالبـلاد في مـارس المـاضي أنَّ الأسـد العجـوز الموضـوع كرئيـس للجمهوريـة ليـس سـوى واجهـة يتحكـم فيهـا «جمـال عبدالنـاصر» المُحـرِّك الحقيقـي لـكل شيء حولـه. إنَّ «محمـد نجيب» في تصـوره رجـل نبيـل لديـه أخـلاق، لكنـه يُفكـر بـذات الطريقـة التي يُفكـر بهـا السياسـيون القدامـى، ويتصـور أن الجماهـير قـادرة عـلى حمايتـه وإنصافـه في صراعـه ضـد بـاقي أعضـاء مجلـس القيـادة. قـال إنَّ إهمـال تنفيـذ قـرارات الرجُـل أكـد للجميـع أنَّ «عبدالنـاصر» هـو الأقـوى والأجـدر عـلى القيـادة، فهـو الـذي اسـتطاع إنهـاء تمـرد سـلاح الفرسـان، وهـو الـذي نجـح في التلاعـب بجماعـة الإخـوان، وبفلـول الأحـزاب البائـدة ليُسيطر عـلى الأوضـاع ويُديرهـا لصالحـه.

بعـد اسـتقالة «نجيـب»، ثُـم عودتـه تحـت ضغـط غريـب مـن «عبدالنـاصر» و«عبدالحكيـم عامـر» صـار مـن الواضـح لـكل قريـب مـن الأحـداث أنَّ الأيـام القادمـة ستشـهد تحـولات خطـيرة، تؤكـد أنَّ مـا جـرى في دمشـق يُمكـن أن يتكـرر في القاهـرة. لـذا فقـد قـرر الضابـط الـذي تمـرَّغ في سجـون مـصر قبـل سـنوات، وشـارك في أكـثر مـن مؤامـرة ومغامـرة أن يُبـدي زُهـدًا وترفعًـا عـن أي منصـب أو مكانـة تجعلـه طرفًـا في الـصراع.

قـال لنفسـه محـاولًا إقناعهـا بصـدق نوايـاه أنَّـه أكـبر مـن التـورط

t.me/qurssan

في صراعات رفاق السلاح بعد حياة حافلة بالمغامرات والأخطار دفع فيها الثمن سجنًا وتشردًا خارج عمله، ومُطاردًا من البوليس السياسي. كان يعتقد أنَّ القدر يُخفي له جوائز مُستحقة، خاصة أنَّ الصدفة دفعت به ليُلقي بيان الحركة المُباركة رغم قيامه بالذهاب إلى السينما ليلة التحرُّك بصُحبة زوجته والتشاجر مع أحد المُشاهدين وتحرير محضر لإثبات براءته حال فشل الحركة. كما أوكلت له بعد أيام من نجاح الحركة مُهمة القبض على «إبراهيم إمام» غريمه اللدود ليبدو وقتها أحد قادة النظام الجديد الذي سيمحو تمامًا كُل ما سبقه. تذكر كيف قرأ في عيني غريمه رباطة الجأش والاستسلام البارد لمصير مجهول، ثُم مرَّت برأسه سنوات المُلاحقة وأيام التتبع المُثير من رجل يلتزم بالقانون ويُبدي تعاطفًا صامتًا مع شباب العمل السري. قال لنفسه إنه كان يحترم إبراهيم إمام رغم أنَّه فكَّر مرارًا في قتله، لأنَّه كان خصمًا شريفًا، وضابطًا نبيلًا.

واصل رأسه تقليب مشاهد حياته ليتذكر كيف نجح في قتل «أمين عُثمان» دون أن يضغط على الزناد. لقد حقق مُراده في الانتقام من «مُصطفى النحاس» الذي طرده من الجيش، ونفَّذ رغبة الملك في قطع رأس عدوه اللدود دون أن تتلوث يداه بالدماء. كانت كلماته وشخصيته وقدرته على الإقناع كفيلة برسم نهاية وسيط الوفد والإنجليز من خلال صبية أشقياء يتصورون أنَّهم يد العدالة. تذكر «السادات» إلحاح «محمد إبراهيم كامل» و«عُمر أبو يعلى» للتدخل لدى الحكومة السورية للإفراج عن «حسين توفيق»، وخلُص إلى أنَّ رميه الكُرة في ملعب زميله «عبدالحكيم عامر» سيضرب عصفورين بحجرٍ واحد، حيث سيتجنب شكوك «جمال» في تكوين شلَّة من الأشقياء والمغامرين، وسيُرضي كبرياء وشهامة «عبدالحكيم عامر» الباحث عن أي ظلال ضوء في ظلّ تضخم اسم صديقه الحميم.

فكَّر «السادات» وهو يُدخِّن بتلذُّذ في ضرورة تجنُّب الدخول في أ...

مغامرات جديدة قد تؤثر على مُستقبله، وهو ما دفعه مرارًا إلى أن يقف إلى جوار «جمال عبدالناصر» في جميع طروحاته، مُعضدًا ومؤيدًا، حتى ذلك اليوم الذي اقترح فيه «جمال» حلّ مجلس قيادة الثورة وإعادة الأحزاب والدعوة للانتخابات، رفض بحدّة لأنّه يعرف أنَّ اقتراح زميله مُجرد اختبار لكشف مَن يقفون معه ومَن يقفون ضده. قال لنفسه إنَّ وظيفة مُدير لجريدة الثورة، تُلائم ميوله، وتُناسب قناعاته في الوقوف خلف الستار لمُشاهدة عصف الرفاق بعضهم ببعض، وتذكر أنَّ قدوته في السياسة ومحبوبه الأثير «مصطفى كمال أتاتورك» لم يتحرك نحو موقع القيادة إلا بعد أن صفا له الأمر بخروج المُنافسين واحدًا تلو الآخر.

سيسقط «محمد نجيب» قريبًا، وسيخلو المجال أمام «جمال» ليستحوذ على السُلطة مُنفردًا، وسيشتبك مع البعض وسيقصيهم لاستعادة لقب الفرعون مرة أخرى. هكذا تصوَّر، وهو يرنو بعينين ماكرتين إلى ماكيت الجريدة التي اختار لها اسم «الجمهورية» والتي صار مسئولًا عنها.

***

داست عجلات الأيام مشاعره، وحفرت كآبة الجُدران الأربعة شُقوق روحه، وهو يُتابع انقلابات الصحاب وتحولات الناس في بلاده. أيقن «حسين» أنَّه دفع ثمن جرأته وإقدامه عُمرًا من الوجع، وسنوات من الوحشة، والاغتراب. علم بوفاة والده وهو قابع ينتظر عفوًا لا يجيء ليزداد حنقًا على حنق، ويستعر غلًا تجاه بطولات توزع، وزعامات تُمنح زورًا وبهتانًا. قال لزوجته في إحدى الزيارات إنَّ «جمال عبدالناصر» الذي صار ملء السمع والبصر، كان مُنهمكًا في القراءة عندما كان هو يقتل الإنجليز في شوارع القاهرة. أخبرها بأنَّ ذلك

t.me/qurssan

البطل الذي صار عنوانًا للبلاد بعد فشل العدوان الثلاثي على مصر ليس سوى بائع كلمات، وتاجر مواقف. أكد لها أنَّ المُنقذ الذي يرنو له الناس باعتباره مُخلصًا ومُنقذًا لم يُطلق رصاصة ولم يقترب من الموت. آلمه ما نُقل له من وضع أراضي والدته تحت الحراسة، وشعر بالجحود لنسيانه ونسيان جهاده، وعدم ذكر اسمه في الصُحف كواحد من أبطال الوطن. اجتاحه الحُزن على ابنه المريض الذي لم يره وهو يخطو أولى خطواته.

في السجن قرأ عن خيانات التاريخ لأبطال عظام، ورجال شُجعان، تحولوا إلى مُجرمين شواذ تحت وطأة صناعة التاريخ للقادة الجُدد. راجع كيف كانت السُلطة في كُل عصر تمحو أي بطولات لم تُشارك فيها. ذكّر «حسين» صديقه «عبدالقادر» بما جرى للقائد العسكري «روميل» على يد «هتلر» الذي اعتبره خائنًا ودفعه للانتحار خوفًا من افتتان الناس به. قال له إنَّ خليفة المسلمين «سليمان بن عبدالملك» عذّب «موسى بن نُصير» القائد العظيم وباعث الفتح الاسلامي للأندلس ورماه في السجن إلى أن مات.

فكّر «حسين» مرارًا في الهرب، لكنّه كان يعلم أنَّ خصومه في الخارج يترقبون اللحظة المُناسبة للفتك به. كان يوقن أنَّ جماعات الفداء العربي ورجال هاني الهندي وجهاد ضاحي الذين صاروا نجومًا ورموزًا في بلاد الشام لن يغفروا له محاولته قتل «أديب الشيشكلي». في الوقت نفسه، كان يعلم أنَّ رجل المُخابرات السوري الذي أوغر صدره يومًا على رئيس الأركان السابق لن يحميه، وأنَّ أقصى ما كافأه به هو إيقاف تنفيذ الإعدام به حتى ينساه الجميع.

راجع «حسين» بمرارة خيانات عديدة طعنت ظهره، مُتذكرًا ما فعله «نوار» الفلسطيني به وبصُحبته رغم كُل ما قدّم لفلسطين من حُب وقتل وتفجيرات هُنا وهُناك. استعاد يوم أن رفض زُملاؤه ضم «نوار» إلى الجماعة تحت دعوى عدم الثقة، وتذكر كيف قال،

لهم أنه قادر على قراءة عيون البشر، وأنّه على يقين أنّه مُخلص وأمين، وأنّهم في حاجة لدوره باعتباره مصنع ديناميت مُتنقلًا. لقد كان «حسين» مفتونًا بالديناميت ويعتبره وسيلة قهر رائعة وأداة قتل سريعة نظرًا لما يُلقيه من حِمم مُلتهبة على أجساد البشر. أخبره «نوار» وقتها أن صناعة الديناميت مهنته، وأنّه مُتخصص في تجهيز أدوات النسف عن بُعد من خلال مادة النيتروجلسرين التي درس وتعلم تركيبها، لذا فقد تمنّى «حسين» أن يتعلم كيفية صناعة النيتروجلسرين، لكنه كان على موعد مع درس آخر هو درس الخيانة.

قال يومًا لنفسه إنّ ذلك الصمت يقتله، يستنفد ما بقي لديه من إقدام، يمتص دم التحدي في خلاياه. كُل يوم يأكل من عُمره لحظات كان يعتقد أنّ الدنيا خسرتها ببقائه ممنوعا من الحركة، محدود الخطوات. أحداث لن تقع، وأحوال لن تتغير، وكلاب ستظل تنبح ما دام حبيسًا. هكذا فكّر، وهو يتذكر لقاءه بـ«الحاج محمد» في غُرفة مُعزلة قُرب مسجد قيسون.

***

لم يكترث «حسين» كثيرًا عندما استدعاه مُدير سجن المُزة ليُبشّره بقرار الإفراج عنه. كان يشعر أنّ الإفراج تأخر طويلًا، وأنّه دفع أكثر مما ينبغي نتيجة وطنيته وحماسه. قدّم له مُدير السجن ضابطًا مصريًا قال إنّه مبعوث من سيادة المشير «عبدالحكيم عامر» شخصيًا، الذي احتضنه كصديق، وقبّله كأخ قبل أن يبارك له على خروجه من السجن وينقل له تحيات القيادة العسكرية في مصر. عاد الدفء إلى شرايين «حسين» عندما حادثه الضابط الشاب باعتباره بطلًا قبل أن يقول له إنّه يعرف عنه الكثير من مقالات «إحسان عبدالقدوس». طبع الرضا بصماته على وجه «حسين»، وهو يستمع

t.me/qurssan

لصـوت الضابـط وهـو يقـرأ لـه مقالـة كتبهـا «إحسـان» عنـه تقـول كلماتهـا:

«إنَّ العلاقـة بيـني وبـين «حسـين توفيـق» هـي أغـرب علاقـة قامت بـين كاتـب وقـارئ، فمنـذ أن أطلـق «حسـين توفيـق» النـار عـلى «أمين عثمـان»، وأنـا أحـسّ كلمـا أمسـكت قلمـي لأكتـب مقـالًا أنّي أكتـب لـه، وأنَّ صورتـه تلاحـق كلمـاتي وتسـألني معانيهـا ومـا أقصـده مـن ورائهـا. كان «حسـين» يبادلـني نفـس الشـعور، ويعتـبر مقـالاتي خطابات شـخصية له، وكان يجـد أنَّ مـن حقـه أن ينتقـدني فيمـا أكتـب ويناقشـني فيـه ويغضب مـني ويغضـب لي، ولكـنَّ «حسـين توفيـق» لـم يكـن يمثـل أمامـي شخصه فقـط، بـل كان يمثـل جيـلًا كامـلًا أنتمـي إليـه، ويعـاني مثـل مـا أعانيـه من حـيرة وكبـت، جيـلا يحقـد عـلى التاريـخ لأنـه لـم يعـش فيـه، ويحقد عـلى الحـاضر لأنَّـه لا يؤمـن بـه، ويحقـد عـلى المسـتقبل لأنَّـه لا يستطيع أن يطمـئن إليـه، جيـلًا ينظـر إلى زعمـاء بلـده فـلا يجـد خيطًـا واحـدًا يصـل بينـه وبينهـم، أو بينـه وبـين واحـد منهـم، ويحـاول أن يسـمع في أقوالهـم أو يـرى في أعمالهـم صـدى لآرائـه وترجمـة لعاطفتـه فـلا يسـمع ولا يـرى شـيئًا يقربـه».

تذكـر وجـه «إحسـان» الهـادئ الخجـول وهـو يُطمئنـه بأنـه آمـن ما دام معـه، وقـال لنفسـه إنَّـه رفـض المُكافـأة المرصـودة للإبـلاغ عنـه، ثُـم تذكـر الضابـط «محمـود مـوسى» الـذي رافقـه مـن مخبـأ إلى مخبأ، قبـل أن يفتـح لـه بـاب القفـص ليطـير بعيـدًا عـن مُطارديـه. حـاول إيجاد ملامـح شـبه بينـه وبـين ذلـك الضابـط الواقـف أمامـه، لكـن البـون كان شاسـعًا، فـ«محمـود مـوسى» كان بـاردا كقاتـل مُحـترف، صلبًـا كصخر، لديـه عينـان نافذتـان، بينمـا الضابـط الواقـف يبـدو طيبًـا، مُطيعًـا. سأله عـن ترتيبـات الخـروج فأخـبره أنَّـه سـيحل ضيفًـا عـلى مديـر مكتب الاتصـال العسـكري في فنـدق فخـم بالعاصمـة، قبـل أن يصحبـه مع زوجتـه إلى القاهـرة. سـأله عـن «عبدالقـادر عامـر»، فقـال الضابـط إنّه

ـام بحكايته من مدير السجن، وأنَّه سيعد تقريرًا عنه لكي يشمله الإفراج ليلحق بهم في أقرب وقت.

في الصباح ودّع «حسين» زميله بوجه بشوش، مُطمئنًا بأنه سيخرجه خلال أيام، ورافق ضابط الاتصال العسكري، الذي كان يُناديه باسمه مسحوبًا بلقب أستاذ، قبل أن يجد نفسه خارج بوابات السجن أمام زوجته الوفية، التي انتابها بُكاء هيستيري وهي تحتضنه غير مُصدقة. استمتعت عيناه بمُتابعة الطريق الخاوي من المارة، قبل أن تقترب السيارة من ضواحي دمشق. راجع بذاكرته مشاهد القباب والمآذن والبنايات القديمة والشوارع الضيّقة، وتذكر جلسات المقاهي، وفناجين الشاي، وأوراق التبغ. مرّت برأسه رائحة البارود وُدخان القنابل، وهو يعبر إلى جوار مبنى القُنصلية الأمريكية، واستعاد لقاءه بـ«هاني الهندي» و«جهاد ضاحي»، قبل أن تلوح له صورة «نوار» في زي ضابط بوليس إنجليزي. لمح شارع الحدث الأخير ليقول لنفسه: هُنا أطلقنا الرصاص على «أديب الشيشكلي» لنمنع صعوده إلى كرسي الحُكم، لكنَّه صعد، والآن أتنفس أنا الحرية، بينما يتخفى هو في منفاه بالبرازيل كجروٍ هارب.

شبكت «سُعاد» أصابعها بأصابعه، ورغم دفئها فإنَّه لم يحس بنعومة جلدها، لأنَّ عقله وقلبه ومشاعره كانوا مُتعلقين بمشهد دخوله إلى القاهرة كبطل مُنتصر. تساءل إن كان الناس سيقيمون الزينات لاستقباله، وهل سينتظره «جمال عبدالناصر»، و«عبدالحكيم عامر»، و«السادات» في مطار القاهرة؟ هل سيطلقون اسمه على أحد الشوارع أو الميادين الرئيسية؟ هل ستحتضنه أمه وتُخبره بأنَّ أباه مات وهو فخور به؟ وهل سيجد «سناء» في انتظاره تبكي ندمًا وتطلب الغفران؟ ثُم هل سيعرفه ابنه الوحيد؟

التفت إلى زوجته وسألها إن كان عليهما شراء لعب أطفال وملابس لخالد قبل السفر، لكنَّها لم تَرُد. سكتت طويلًا قبل أن تسأله عن

t.me/qurssan

موعد الإفراج عن «عبدالقادر»، ليهز رأسه مُرددا: قريبًا. أشعل سيجارة ونفثَ منها دُخانًا طويلًا وقال لها:

ــ كل ما أخشاه يا سُعاد أن يتأثر خالد بتربية أمي. آمل ألا تكون قد زرعت فيه حُب الأتراك.

هزَّت رأسها دون كلام، فاستطرد قائلًا:

ــ لكن. هل تعرفين. إنَّ سعيد لن يترُكه. سعيد ليس أخي، إنَّه ابني، وسيعرف كيف يزرع في خالد الشجاعة والجرأة والقوة.

ــ سعيد يحبك بشدة.

ــ أشتاق له، ولمدحت وابراهيم كامل، ولبيتنا. أشتاق لمصر وشوارعها وحواريها وناسها. لكن هل تعرفين يا سعاد كلي شوق لخالد. لقد كنت أنتوي تسميته عبدالقادر، وكنت سأعلمه السباحة في سن الرابعة، وسأجعله يركب خلفي على الحُصان و...

لم يكمل بعد أن قاطعته «سُعاد» بحدّة وهي تقول:

ــ كفى يا حسين. كفى.

أنكر صوتها، ومنحها نظرة استفسار قبل أن يصيح سائلًا:

ــ ماذا جرى يا سُعاد؟

قرأ في عينيها نظرة تحسر قبل أن تستجمع شجاعتها وتقول:

ــ خالد مات. مات يا حسين. مات مُنذ سنوات بعد أن أصابه مرض عصبي غريب.

أسكتته الصدمة، وعاد ظلام الزنزانة يتراءى أمامه، وضغط أصابعه بحدَّة على السيجارة ليطفئها بين راحتيه، مانحًا العالم زفرة احتجاج وغضب.

***

t.me/qurssan

تغيرت البلاد ومَن عليها. صارت الشوارع أكثر ازدحامًا، وبدا الجد والحيوية ناضرًا على وجوه الناس، وتعرَّت الرؤوس من طرابيش كانت يومًا دليل هيبة واحترام. رأى «حسين» مقاهي وسط البلد تتسع لشباب يافع ببذلات أكثر أناقة، ولمعت أحذية الجالسين وهم يدخنون ويثرثرون في اهتمام، بينما ازدان كثير من المحلات التُجارية بصور الزعيم «جمال عبدالناصر»، وصار من المعتاد أن يجتمع الناس حول الراديو لسماع خطاباته. شاهد الترام غاصًا بالركاب والموظفين الذين تم تعيينهم في عشرات المصالح والهيئات الحكومية، وندرت وجوه الأجانب رويدًا في المطاعم والبارات وعلى المقاهي، في حين أغلقت معظم محلات اليهود أبوابها بعد هجرة أصحابها إلى الخارج. كما اختفت من جُدران الشوارع الرئيسية ملصقات وأسماء الأحزاب، ومُحيت شعارات حركة «مصر الفتاة» والإخوان المسلمين في الوقت الذي تقاطعت فيه اللافتات القماشية تلهج بالتأييد والثناء للزعيم العظيم وقائد حرب بورسعيد المجيدة.

استعاد «حسين» روحه الفُكاهية وهو يجلس بجروبي مع «سعيد» و«مدحت» و«عبدالقادر عامر» يتحدثون ويُدخنون. كان «حسين» قد تعرض لصدمة قاسية عندما وصل إلى القاهرة والتقى مُدير مكتب المشير «عبدالحكيم عامر»، حيث فوجئ بهم يُعينونه موظفًا بشركة شل للبترول براتب ثمانين جُنيها. اندهش «حسين» أن تكون مكافأته التي قدمها له الرجل الثاني في مصر هي تعيينه موظفًا صغيرًا في شركة بترول، بدعوى عدم حصوله على شهادة جامعية، في الوقت الذي وضعت فيه أراضي والدته تحت الحراسة. أبدى انزعاجًا من القرار، لكنَّ مدير مكتب المشير أنبأه أنَّ قرار تعيينه في الشركة لم يكن مقبولًا لولا تدخل المشير شخصيًا خاصة أنَّه ليس لديه شهادة جامعية. كما شمل قرار التعيين زميله «عبدالقادر عامر»، الذي وصل إلى القاهرة بعد أسبوع واحد من عودته، لكنَّه اختار أن يكون عمله بالإسكندرية إلى جوار أسرته.

قال «حسين» لجلسائه في سُخرية:

ـ إن عبدالناصر ضحك على الجميع. خدع الناس بوظائف وأرا... ومناصب وأحكم قبضته على البلاد شرقًا وغربًا، فصار الحاك... الأوحد، وقدّم نفسه كزعيم عظيم.

نظر «مدحت» يمينًا ويسارًا، ثُم قال:

ـ لكن لا تنس أنَّه حقق الجلاء، وألغى الأحزاب، والألقاب، وانت... على ثلاث دول في بورسعيد.

ضحك «حسين» بصوتٍ عال، وقال مُفنّدًا:

ـ أي جلاء ذلك الذي حققه، وكان الثمن ضياع السودان وانفصاله عن مصر. ثُم مَن قال لكم إنَّه ألغى الألقاب، لقد ألغى لقبًا ليستبدل بدلا منه عدة ألقاب. كُل واحد من أعضاء مجلس الثورة صار باشا بل أعظم من الباشا. أما الأحزاب فقد أعدمها تمامًا ليس من أجل مصر، وإنما من أجل نفسه، حتى لا يصبح له بديل. و... تقوله عن العدوان الثلاثي نكتة «بايخة»، لأنني أعرف منذ كنت في دمشق كيف كانت الهزيمة ثقيلة على مصر، وأنَّه لولا تدخل أمريكا مباشرة لما انسحبت قوات العدوان. إنَّ عبدالناصر هذا عميل أمريكي مُستتر.هو ممثل فاشل، وسيقود البلاد نحو الخراب.

بدا «عبدالقادر» مُتفقًا مع «حسين» فيما يقوله عندما تدخ... شارحًا:

ـ لقد نحى نظام عبدالناصر الثوار القدامى لصالح رجاله وخدم... وها نحن نعمل ولا نعمل. مجرد موظفين بالاسم في شركة كُبر... لكنَّنا نجلس على المقاهي كل يوم، لأنَّه مطلوب منا أن نس... صوتًا لأكل العيش. حسين معه كُل الحق.

ـ ألم تتسلم عملك بعد بالاسكندرية؟

سأل «حسين»، فأجاب «عبدالقادر»:

t.me/qurssan

قالوا لي أنت مُعين ولك راتب شهري، لكن لم يطلبوا مني شيئا أو يعهدوا إليّ بأي مهام. ألم أقل لك يا حسين إنها رشوة.

رد «حسين» بحنق:

ليست رشوة. إنَّها أقل من حقنا على هذا البلد وعلى هؤلاء الانتهازيين. لقد اختطفوا الحُكم منا. تركونا ندفع الثمن، وحازوا هم السلطة.

ثم رمى «سعيد» بنظرة ذات مغزى مُضيفًا:

ـ ألم يُعينوا إبراهيم كامل في وزارة الخارجية. وعيَّنوا سيد في هيئة الاستعلامات. أما أنا وأنت وعبدالقادر فألقوا بنا في شركة بترول حكومية. إنَّهم يقصدون ذلك. هل تعرفون أين تم تعيين عبدالرحمن السندي قائد الجهاز السري للإخوان المسلمين؟ لقد عينه عبدالناصر في هيئة قناة السويس لأنَّه كان صديقه وقاتله السري.

نظر «مدحت» إلى الخارج، مُتابعًا سير السيارات بشارع 26 يوليو، الذي مازال الناس يطلقون عليه اسم شارع فؤاد، وتذكر كيف سافر رفيقه «نجيب» إلى أوروبا ليستكمل دراسته، بعد أن تزوج «سناء» رفيقة «محمود مراد» ثُم غاب رويدًا حتى صار كغريب أو خواجة. وتذكر أيضا كيف اعتزلهم «محمود مراد» تمامًا، ثُم تزوَّج وسافر للعمل في الصعيد. قال «مدحت» لـ«حسين»:

ـ أنت مُحق يا حسين. لقد أخصى نظام عبدالناصر جيل الشباب كله، إما بالوظيفة أو بالسجن مثلما جرى مع الإخوان والشيوعيين والوفديين. وها هي السودان ضاعت، وقبلها فلسطين، ورغم الهزائم أصبح عبدالناصر هو الزعيم المحبوب، والبطل العظيم.

نظر «حسين» إلى جُلسائه باهتمام، قبل أن يقول هامسًا:

ـ هل تعتقدون أننا قادرون على العودة للعمل الفدائي؟

يرقب المُحيطين به، ورمى نظرات مُتشككة نحو رواد «جروبي» ثُم

t.me/qurssan

تابع ردود أفعال أصدقائه، فلمح قلقًا بالغًا على وجوههم.

قال «مدحت» بعد لحظات من الصمت:

ــ للأسف يا حسين هذا مستحيل. محجوب وعمر وعبدالعزيز والشافعي وجميع أفراد شلة الهندسة انسحبوا تماما واعتزلوا السياسة، معتبرين أن الثورة حققت آمالهم، وها هو نجيب وسافرا للخارج، ومحمود مراد هجرنا إلى الأبد. ومحمد إبراهيم كامل أصبح جُزءا من النظام، ولا أحد سوانا نحن الثلاثة.

ــ أربعة.

علّق «عبدالقادر»، فهزّ «مدحت» رأسه قائلًا:

ــ أربعة.

لكن «عبدالقادر» أضاف سائلًا «حسين»:

ــ والحاج محمد؟ السادات يا حسين؟

ابتسم «حسين» ساخرًا قبل أن يقول:

ــ هذا الرجل فاق الجميع. لقد حاولت لقاءه، وفشلت. هل تتخيلون أن يبعث لي السادات مدير مكتبه ليسألني حاجتي. تصوروا هل يعتقد هذا الانتهازي المغرور أنني أتسول منه؟

وأضاف بنبرة حُزن:

ــ لقد اشتهر على حسابنا. أكل عيش على قفانا.

وضحك في سخرية، ليضحكوا معه.

***

«عزيزي إبراهيم كامل..

أكتب لك بعد شهور طويلة من عودتي إلى القاهرة التي كُنت أعت

ا! ي لـن أراهـا مـرة أخـرى. جميـع الصحـاب تفرّقـوا، وأشـعر بوحشـة
ء ،ٍبدة، بعـد أن مُحيـت أعمالنـا ونُسـبت كل البطـولات لضبـاط الحركـة
الم،اركـة وحدهـم. هُـم يقولـون الآن أنَّهـم قاومـوا الإنجليـز، ونظمـوا
- ،رب الفدائيـين في القنـاة، وأنَّ الإخـوان والشـيوعيين ورجـال العمـل
ا سري كانـوا مُتفرجـين. إنَّهـم لا يُريـدون لأي صـوت أن يعلـو فـوق
ـ وت خطيبهـم المفـوّه الـذي مـلأ الدُنيـا صياحًـا، ولا يقبلـون لصـورة
ـ خص أن تصعـد إلى جـواره. هـو البطـل الأوحـد، والشـجاع الأول،
والقائـد المُلهـم، والزعيـم العبقـري. هـو رسـول الفقـراء، ونبـي العُروبـة،
وسلاح الديـن العـصر الحديـث.

اقـد وُضعـت أراضينـا جميعًـا تحـت الحراسـة، ووزَّع «عبدالنـاصر» مـا
لا يملـك عـلى مَـن لا يسـتحق، ومنـح رجالـه قصـور الباشـاوات وفيلاتهـم
،رقًا وغربًـا ليحـوز ولاءهـم، بعـد أن طـرد الثـوار الحقيقيـين بعيـدًا عـن
ء مصر، واشـترى صمـت الآخريـن بثمـنٍ بخـس. إنَّـي لا أزال أتلمَّـس فيـك
الأمـل وأحسـن بـك الظـن باعتبـارك الأكـثر إخلاصـا ووفـاء بـين أصحـاب
الطفولـة والصبـا. أنـا عـلى يقـين أنـك لسـت ممَـن تـم شراء سـكوتهم،
لأنَّ رجـلًا بفكـرك، ووطنيتـك، وشـجاعتك، وجرأتـك لا يقبـل أن يعمـل
تحت إمـرة انتهـازي، ومُخـادع، وتاجـر كلام مثـل «عبدالنـاصر». سـأنتظر
لقاءنـا فـور زيارتـك القادمـة لمـصر، الـتي أعلـم أنهـا سـتكون قريبًـا. ولـك
خالـص المحبـة.

أخوك: حسين».

طـوى «محمـد إبراهيـم كامـل» خطـاب ابـن خالتـه، وقـام إلى المطبـخ
ليشـعل عـود كبريـت في الخطـاب الـذي وصلـه في الصبـاح على مقـر عملـه
بالسـفارة المصريـة في لنـدن. كان يعتقـد أنَّ الخطـاب المُرسـل قـد يكـون
فخًـا لـه للإيقـاع بـه مـن خصومـه وحُسـاده في وزارة الخارجيـة، الذيـن
اعتبروه دخيـلًا عـلى العمـل الدبلومـاسي بسـبب صلاتـه وعلاقاتـه ببعـض
أصحـاب النفـوذ في النظـام القائـم. تذكـر «إبراهيـم» لقـاءه قبـل تعيينـه

t.me/qurssan

في الوزارة بـ«جمال عبدالناصر»، الذي صارحه خلاله بأنَّ البعض ... به مُدعيًا قيامه بوضع خطة لقتل الرئيس، وهو ما دفعه أن يقسـ... للرئيس عدة مرات بأنَّه ابن بار للثورة. قال إنَّه على استعداد للعـ... في أي موقع يخدم به الثورة، ويخدم به «جمال عبدالناصر»، لكـ... يُفضل العمل الدبلوماسي خاصة لاستثمار إتقانه للغة الإنجليـ... وأصول الإتيكيت في خدمة بلاده، وعلى الفور أصدر الرئيس ... بإلحاقه بسفارة مصر في لندن. «بريطانيا؟» قالها وقتها مُمتعـ... مُتذكرًا أنه شارك في إشعال النار في معسكرات الجيش البريطاني ... الاعتداء على جنوده في الشوارع والطرقات، لكنَّه في النهاية امتـ... لإرادة «عبدالناصر» في وضعه في موقف المواجهة اليومية المُباشرة ... أعداء الأمس. فكَّر للحظات أنَّ خطاب «حسين» له قد يكون ... وقع في أيدي المُخابرات، وأنَّ عليه إثبات حُسن نواياه وولائه ... أمام الأجهزة التي يعلم أنَّها ترى أكثر مما ينبغي، وتتنصت ... الشاردة والواردة، وتعد تقارير يومية عن الكل بلا استثناء، لذا ... قرر أن يرُد على خطاب «حسين» بحدَّة تُناسب قراره بحرق مرا... الماضي تمامًا. جلس على أريكة وثيرة تتوسط صالة منزله، وأمسـ... بورقة وقلم وكتب بخطٍ مُتأنق:

«أخي العزيز حسين..

حمدًا لله على سلامتك وعودتك لأرض الوطن، وشكرًا لله ... اهتمام الدولة بتوظيفك براتب مناسب في شركة كبرى. إنَّك لا ... تستحق كُل خير، لذا فقد سخر لك الله رجالًا مُخلصين ليسـ... لدى الحكومة السورية للإفراج عن واحد من الأبطال والر... الوطنية بعد أن تسرب اليأس إلينا جميعا بأنَّنا لن نراك مرة أخـ...

تُحزنني أيها الأخ العزيز تلك النبرة السوداوية في خطابك بشـ... العهد الجديد، والحركة المباركة، وأتعجب كيف لا تجد لديك احـ... بما جرى وما يجري. ألم تكن تلك آمالنا وأحلامنا معًا؟ أن ...

t.me/qurssan

الإنجليز خارج البلاد، ونشعل النار في الأحزاب القديمة، ونقضي ... ل الإقطاع، ونعيد للفقراء وأبناء البلد حقوقهم المنهوبة؟ ألم ... ل معًا على صون كرامة المصريين، ورد العزة والكبرياء لهم؟
... بي أتصور أنَّ ذلك هو ما حققه «جمال عبدالناصر» ورجاله، الذين ... موا يحملون أرواحهم على أكفهم ليلة 23 يوليو لإحداث تغيير ... ري في البلاد، وإصلاح الأحوال، فلهم كل الشُّكر والامتنان على ... حياتهم وجهدهم الذي كان دائمًا جُهدًا مستترًا.

... ي أعرف أنَّ المحنة القاسية التي تعرَّضت لها أثرت على رؤيتك ... الأشخاص وتقديرك للأحداث، لذا سأذكرك. هل نسيت يا «حسين» ... إعجابك الشديد بأفكار وآمال «أنور السادات» عندما التقيته لأول ... وحدثتنا عنه وعن جرأته وذكائه وطموحاته الواسعة؟ إنَّه واحد ... هؤلاء الذين تظنهم انتزعوا البطولات، ولا يريدون لأحد أن يُذكر ... جوارهم.

... لقد جانبك الصواب يا صديقي وابن خالتي عندما تصورت أن ... «جمال عبدالناصر» يتاجر بالكلام، إنَّه يحترق كُل يوم من أجل ... الناس، يصحو مُبكرًا وينام مُتأخرًا، ويعيش كموظف متوسط الحال، ... يأكل مما يأكله البسطاء ويلبس ملابس صُنعت في بلاده. «عبدالناصر» ... ليس كما تظُنّ أو يُهيأ لك ولولا هيبته وقوته لما تم الإفراج عنك ... من محبسك بسوريا. لقد رسم لنا الرجل طريقًا جديدًا للصعود ... والبناء وآمل ألا يخونك تقديرك، فتصبح حجر عثرة في الطريق.

والله أسأله أن يُلهمك الصواب، ويُيسر لك طريق الخير. والسلام ... سلام.

محمد إبراهيم كامل

لندن. أبريل 1959»

***

t.me/qurssan

استردت «سُعاد» تصالحها مع الأيام بعد شهور قليلة من الاستقرار في القاهرة، ورغم قسوة وبرود حماتها في التعامل معها، فإنَّها صنعت لنفسها عالمها الأسعد، خاصة بعد أن أنجبت فتاة جميلة تُشبهها، أطلقت عليها اسم كوثر. رأت «سعاد» في القاهرة وأحيائها القديمة، وشوارعها، ومطاعمها، ودور السينما فيها انتعاشًا روحيًا غطى على انقطاع أخبار شقيقها تمامًا. كما أنَّ اتصالاتها الدائمة، وزياراتها المتكررة لشقيقتها «فاطمة» في الإسكندرية أزاحت أستار الغُربة عن حياتها. لم تعُد تشعر أنَّ مصر ليست بلدها، خاصة بعد أن صارت القاهرة ودمشق مدينتين في دولة واحدة اسمها الجمهورية العربية المتحدة، ورغم عدم رضا زوجها عن اتحاد الإقليمين الشمالي والجنوبي وإلغاء التأشيرات بينهما، فإنَّها كانت تعتقد أنه سيرضى ذلك بحلول الوقت، وسيحب الزعيم «جمال عبدالناصر» مثلها الذي لم تر منه ما يُزعجها.

لقد سألت يومًا زوجها عما يأخذه على «عبدالناصر» بخلاف مصادرة أراضي والدته، فقال لها بحدّة إنَّه أداة للدول الكبرى يلعبون به كما أرادوا. ثُم أسرّ لها بأنَّه لولا أمريكا لما صار «عبدالناصر» حاكمًا على مصر. قالت «سُعاد» ردًّا على كلام زوجها الذي بدا غير مقنع:

— إنني لا أظن أبدًا أنَّ هذا الرجل عميل لأحد. أنا أعرف العملاء جيدًا. أولًا هو لا يُشبه حُسني الزعيم في شيء، ولم يبدر منه ما يُشير إلى أنه قريب الشبه بأديب الشيشكلي. الناس عندكم يحبونه وأتصور أنهم على حق، فهو بليغ ومُقنع عندما يتحدث، وهو قادر على التأثير في الآخرين، وله عينان تشعان طموحًا.

بدا «حسين» عصبيًا وهو يرد:

— أنت لا تعرفين شيئًا. إنَّه أكثر شراسة واستبدادًا من أديب الشيشكلي، وأشدّ حمقًا من حُسني الزعيم. لقد فصل مصر عن السودان ليمد عُرى الوحدة إلى بلادكم، رغم أنَّه لا توجد حدود

t.me/qurssan

... مركة. هو يتاجر بكل شيء، حتى بالعروبة، ويبيع للجماهير أوهام البطولة.

قالت «سعاد» بعد أن شعرت بتوتره:

حسين. أرجوك انس السياسة وتفرغ لبيتنا. كفى ما جرى. نريد أن نعتني بكوثر ونُعلمها تعليمًا جيدا، وها أنا حامل وآمل أن أنجب لك ولدًا يشبهك.

هزَّ رأسه في برود وقال لها:

- يا سعاد قلت لك مرارًا. السياسة هي أنا. حياتي. رأسي. فكري. التي. كُل ما له علاقة بالوطن مغروس في قلبي وروحي ولا أستطيع أن أتخلص منه. لقد تزوجنا وأنت تعلمين أنَّني هارب من قضية سياسية، وعشنا معًا وأنا منخرط في تنظيم سياسي، وحوكمت وسجنت ومازلت أعمل بالسياسة.

- نعم. لكنني تعذَّبت بغيابك في السجن. قُتلت قتلًا عندما انتزعوا ... من أمامي لأنتظر سبع سنوات كي يجمعنا بيت مرة أخرى. أنا ... بدونك لا شيء، وبنتك بدونك لا شيء، وابننا القادم كذلك. أريد أن أعيش في سلام وأمن مثلما يعيش الناس. أريد أن أنام دون قلق، أمسك كفك في اطمئنان، أريح رأسي فوق كتفك، أسير إلى جوارك في الطريق دون خوف.

بدا الامتعاض على وجهه، وقام مُنزعجًا وهو يهمس في لامبالاة وغضب مصطنع:

- إذن ابحثي لك عن رجل آخر.

كان «حسين» مُستنفرًا بعد أن صدمه خطاب «محمد إبراهيم كامل» المُعاتب، وقال لنفسه إنَّ تلميذ الأمس يحسب أنَّه صار مُعلمًا. باعه ... اتهمه بقصور الفهم ونكران الجميل، بعد أن كان يسير وراءه دون مناقشة. تغيَّر الزمن وانقلب الأتباع إلى أصحاب رأي، وصار الصغار

كُبارًا، وها هو بات شخصًا جانبه الصواب، وحاد عن طريق الثوا
تذكر «محمود يحيى مراد»، وكيف كان دخوله للتنظيم بداية حقيقة
للتوسع، ومرَّ بذهنه كيف أطاحوا بـ«عبدالهادي أفندي»، وكيف راو
مفتش الأمن ومخبري المعادي، كيف خططا معًا، وفكرا معًا، ونفذا
معًا أعمال الخطر. شعر بوحشة غريبة لابتعاده، ثُم تذكر فج
«عبدالقادر عامر»، وقال لنفسه إنَّه لم يره مُنذ فترة طويلة. نظ
بعينين ماكرتين نحو زوجته، وقال لها في هدوء:

ـــ عُذرا عزيزتي. أنا متوتر، ولكن لا تناقشيني في السياسة مرة أخ
فما أعرفه لا تعرفينه. عموما من الممكن أن نقضي يومين إجازة
الإسكندرية. هل تودين أن تزوري فاطمة؟

ابتسمت ومسحت نصف دمعة منزلقة على خدها وهزَّت رأسها
موافقة.

***

في الصحراء أمام الهرم الأكبر التقيا، «حسين» و«محمود موسى»
بعد غياب طال عشر سنوات. كان «حسين» قد اتصل بالضا
السابق ليسمع صوت زوجته «ميمي» تسأل في اهتمام عمن يري
زوجها لتسمع آخر اسم تتوقعه في الوجود وتصمت على إثره لحظا
قبل أن تسأله عن أحواله وزوجته وأبنائه، ثُم تنادي له زوجها

رأى «حسين» نفس الوجه الذي ودّعه في الميناء بعد أن أقل
الماضي من مخبأ إلى آخر، بنفس البرود، وذات النظرات الفاح
المُدققة، والابتسامة المطبوعة على شفتين صغيرتين، بينما بدا رأسه
أكبر قليلًا وقد ارتد شعره إلى الوراء مُستجيبًا للزمن. ونظر «محم
إلى وجه «حسين» ليقرأ فيه عجلات الزمن، وآثار المحن، ولم ي
عينيه ذات النظرات اللامبالية التي تهتف كُل لحظة أنَّ صاحبها

t.me/qurssan

ـه رف الخـوف، وبـدا جسـد «حسـين» مُمتلئًـا عنـد البطـن، بينمـا منحـه
ـ اربه المفتـول مظهـر الجديـة والصرامـة. تذكـر الضابـط السـابق ذلـك
الوالـد المُضطـرب، المُندفـع الـذي كان واقفًـا أمامـه لا يعـي شـيئًا قبـل
ـد مـن الزمـان، كيـف تبـدل بـه الحـال ليبـدو كزعيـم سياسي مُحنّـك!
ـف تحولـت هيئـة الشـاب المتدفـق حماسًـا وتطرفًـا إلى هيئـة قائـد
ـه صرم قـادر عـلى الحفـاظ عـلى ثباتـه الانفعـالي في كُل موقـف وحـين!
ـافحـه، وسـار إلى جـواره فـوق رمـال صفـراء هادئـة بعيـدًا عـن النـاس
ـاجيـا في سـلام، ويتناقشـا في اطمئنـان. قـال «حسـين» وهـو يضـع
ـاه في جيبـه:

أوحشتني يا رجل. بانت عليك السن. كبرت يا حضرة البكباشي.

ـسم «محمود»، ورفع حاجبيه اعتراضًا وقال:

ـ انتهـت هـذه الألقـاب الآن. لقـد خرجـت مـن البوليـس عميـدًا. والآن
ـ ـي معظـم الوقـت في النـادي أو في سـهرات الأصحـاب نلعـب ونشرب.
ـم أضاف وهو يهزُّ رأسه:

ـ تعـرف يـا حسـين. الزمـن لـم يعُـد لنـا. الثـورة قامـت، والملـك خـرج،
والأحـزاب انتهـت، وحـتى النحـاس باشـا صـار مُنعـزلًا عـن الجميـع، تغـير
ـ شيء. يـا حسـين لـم يعـد لائقًـا أن نبقـى في أماكننـا خاصـة أنهـم
ـسرونـا مـع الملـك.

ـ تمام.

قالهـا «حسـين»، وهـو يُزيـح بحذائـه زلطـة صغـيرة بـدت بـارزة عـلى
الطريـق الرمـلي، ثُـم قـال:

ـ لكن ألا تعمل الآن؟

ـسحك «محمود» وقال:

ـ كيـف أعمـل؟ وماذا أعمـل؟ لقـد خرجـت إلى المعـاش. والحمـد للـه،
ـم أتهـم في شيء مثلمـا جـرى الحـال مـع محمـد وصفـي والجـزار.

t.me/qurssan

ـ وإبراهيم إمام؟

ـ إبراهيم إمام لا يريد أن يطل. كبُر وزهد في كُل شيء. لقد اعتزل تماما، وابتعد عن الجميع، وقابلته قبل سنوات فقال لي إنَّه يستمتع بتأمل الكون والناس والأحداث.

ـ ولا شيء آخر؟

ـ نعم. لا شيء آخر.

ابتسم «حسين»، وقال:

ـ أتمنى أن أراه.

ـ لا تفعل. هو لن يُرحب.

أخرج «حسين» سجائره، وقدَّم واحدة للعميد «محمود موسى»، لكنَّه اعتذر قائلًا:

ـ أقلعت عن الدُخان تمامًا. أما الشراب فمازلت أشرب قليلًا.

ـ والنساء؟

ضحك «محمود» قائلًا:

ـ تعرف يا حسين. أنا زوج مثالي وأب طيب.

ـ عظيم. عظيم.

مشيا ببطء يتنسمان هواءً مُنعشًا، وأشعل «حسين» سيجارته، رانيًا نحو السماء الواسعة، ليسمع السؤال المُنتظر من رفيقه:

ـ قُل لي يا حسين. ما الذي دفعك لطلب لقائي؟ لعلَّ الأمر خير.

ـ نعم. كُل خير. أنت تعرف أنني أثق بك كثيرًا. لقد ساعدتني من قبل وأمنتني رغم أنَّه كان يمكنك أن تقبض عليّ وتحصل على المكافأة المرصودة وهي بالطبع أعلى كثيرًا من مكافأة نهاية الخدمة وكانت ستضمن لك حياة رغدة.

ابتسم «محمود»، وقال بنبرة صدق:

t.me/qurssan

لا تظن أنّي فعلت ذلك من أجلك.

وقف حسين فجأة مُستفهمًا، فأردف مُحدثه قائلًا:

كانت أوامر. وأنا مخلص لرؤسائي.

سكت «حسين»، وكأنّما أنكر ما سمعه. كان يعلم من قبل أنّ مساعدته على الهرب لم تكن لوجه الوطن. كانت هُناك أغراض وأهداف لم يفهمها حينها، وها هي تنفتح نوافذها أمامه بعد ردحٍ من الزمن.

سأله «محمود» مرة أخرى:

ها، ما الذي تُريده مني؟

نفث «حسين» دُخان سيجارته بعصبية بادية، وقال:

عظيم. سأصارحك. أنا أخطط للثورة على عبدالناصر.

سكت «محمود موسى» للحظات قبل أن ينفجر ضاحكًا بصوتٍ عالٍ، أثار حنق «حسين» الذي وقف عن السير فجأة، ونظر بغضب قائلًا:

ما الذي يُضحكك؟

واصل «محمود» ضحكه المُتقطّع، وهو يقول:

ما قلته.

وقال بعد أن توقفت نوبة الضحك:

- هل جُننت يا حسين؟ هل أصابتك لوثة؟ الآن لا أحد يستطيع الثورة على عبدالناصر. لو قلت لي ذلك في 54 أو حتى 56 لقلت أنّه ممكن. لكن الآن سيطر الرجل على البلد تمامًا. وما أريد أن أقوله لك هو أنّه لا بديل له سوى الجيش، وصاحبه هو المُسيطر عليه، ولا يُمكن أن يخذله. لقد حاول مَن هُم أقوى منك وأكثر إمكانيات وأوسع انتشارًا، وها هم الآن موزعون على سجون مصر، البعض في السجن الحربي والبعض الآخر في طرة والواحات.

ـ تقصد الإخوان؟

ــ نعـم. لا توجـد قـوى مُسـلَّحة في مـصر سـواهم. وأعتقـد أنَّ كوادرهم سُحقت تمامًا في 54 بعـد حـادث المنشية.

هزَّ «حسين» رأسه مُفكرًا، وقال:

ـ دعك من الثورة عليه. لكنني أستطيع أن أقتله.

ــ لا أعـرف. لكـنَّ قتلـه لـن يـؤدي إلى تغيـير. لا تظُـن أن مـصر مثل سـوريا. مَـن يقتـل أحـدًا يـأتي مكانـه، لـو قُتـل عبدالنـاصر فـإن من سيتولى الرئاسة هـو الشـخص الأقـوى، وهـو في الغالـب سيادة المشير عبدالحكيـم عامـر.

تذكـر «حسـين» مـا فعلـه المشـير مـن أجلـه، وكيـف حـرره، وتوسط لتوظيفـه، فقـال:

ـ إنه بلا شك أفضل، وأوضح، ولا يعرف اللف والدوران.

ـ تمام. هل معك رجال؟

هزَّ «حسين» رأسه هامسًا:

ـ طبعًا.

ـ وسلاح؟

ردَّ «حسين» قائلًا:

ـ هذا ما أريده منك.

ــ لـم أعـد عـلى اتصـال بأحـد، لكـن عـلى أي حـال يمكنـك شراء أسلحة بسـهولة مـا دام لديـك أمـوال كافيـة. في الإسـكندرية هُنـاك عـدة تجار معروفـين يجلبـون بنـادق ورشاشـات عـن طريـق ليبيـا.

وأضاف سائلًا:

ـ هل لديك أموال كافية؟

امتعض «حسين» قليلًا، وأجاب:

t.me/qurssan

سأجهز مبلغًا مناسبًا خلال ستة شهور، لكني أريد أن أسألك
مسوح إن كان لي أن أثق فيك أم لا.

ابتسم «محمود» وقال:

- بكل صراحة لا أعتقد. ابحث عن غيري. من أجل اعتزازك بي وحُسن
ظنك، سأعتبر أننا لم نلتق وأنني لم أسمع منك شيئًا، وآمل أن
تنجح فيما تُخطط فيه.

توقف «حسين» عن السير مادًا يده بالمصافحة، وقال:

- شكرًا على وقتك.

***

نظرت «سُعاد» في المرآة مُراجعة وجهًا خاليًا من المساحيق،
يلمع بالجمال الرباني، مُتناسية معاملة حماتها الباردة لها، ورميها
بين الحين والحين كلمات ذات مغزى عن الحظ والنصيب والوجوه
المشئومة التي يحل معها الخراب والفقر. كانت والدة «حسين»
تلمح إلى إنجاب «سعاد» بنتين متتاليتين بعد ولد غير طبيعي لم
يُقدر له أن يرى والده، فضلا عن وضع أراضي العائلة تحت الحراسة
بعد أن كانت مضرب الأمثال في الثراء.

مدّت «سُعاد» أشواك المشط بين جدائل شعرها الفحمي المُسترسل
كأنما تُلقي عن حياتها كُل ما يعكرها من أحقاد ونفور رأته طبيعيًا
من حماة تجاه زوجة ابن غريبة، مستعينة بسلاح البرود واللامبالاة.
قالت لذاتها إنّها لن تصطدم بحماتها أبدًا ما دام «حسين» موجودًا،
خاصة أنّها تعلم تمامًا كيف تتجنب السيدة «سميرة» إغضابه.
شعرت أن تجدد شرود زوجها، وانعزاله النسبي، قد يُثير دبيب القلق
في عودته لممارسة العمل السري مرة أخرى، لكنّها استبعدت ذلك

متوقعة أنَّه لن يقامر بوظيفته الجيدة، وبحياته المستقرة وبلحظا
السمر القليلة التي يقضيها مع ابنتيه «كوثر» و«وفاء». طرد
وساوس الشيطان، وهي تتذكر أنَّه انقطع عنها في الفراش مُذ أصابه
حالة الشرود، وفكَّرت أنَّ ذلك سيأخذ وقته ويمُر مثلما هو الحال
مع الرجل الذي اختارته عن رضا تام شريكًا لحياتها.

فكَّرت «سُعاد» أن إصرار «سعيد» و«مدحت» على اصطحابهم
مع البنتين لمشاهدة فيلم بالسينما قالا إنَّه يحكي قصة «حسين»
أسعدها معتبرة أنَّ الفيلم جاء في موعده ليمنح «حسين» شعورًا
بالوفاء من جانب الدولة والمجتمع، ويؤكد أنَّ هناك مَن يُقدر
تضحياته. قالت لنفسها إنَّ مشاهدة الفيلم ستكون فرصة جيدة
«حسين» كي يخرج قليلًا من حالة العُزلة التي انغمس فيها مُنذ عدة
شهور.

في الطريق إلى السينما، قال «سعيد» موجهًا حديثه للبنتين
الصغيرتين:

ــ ستشاهدان اليوم فيلمًا يحكي قصة بابا مع حُب الوطن. كيف
حارب الأعداء بشجاعة وكيف هرب منهم وكيف أحبَّه الناس وكيف
صار نموذجًا ومثالًا للشباب.

لم ترد أي من البنتين، لكن «سعاد» قالت:

ــ ألم يكتب الفيلم إحسان عبدالقدوس. لقد أخبرني حسين كيف
كان هذا الصحفي شهمًا ووقف إلى جواره وقت هروبه من الإنجليز

لم أهرب من الإنجليز أيها الأغبياء. لقد هربت من المصريين
قالها «حسين» في سرِّه، وظلَّ مُتدثرًا بالصمت يُتابع حديث العائلة
عن بطولاته.

سأل «مدحت» «سُعاد» باسمًا:

ــ لكن عليك أن تُخبرينا إن كان حسين يُشبه عُمر الشريف بالفعل

t.me/qurssan

الفيلـم أم لا؟

ابتسمت وأجابت:

- إنَّه أكثر وسامة منه.

ضحك «مدحت» قائلًا:

- إذن أنتِ أجمل من زبيدة ثروت.

- طبعًا.

جلسوًا معًـا في تـراس مخصـوص حجـزه سـعيد بسـينما مترو، ليشـاهدوا الفيلـم صامتين.

بدأ الفيلـم بمشـهد للطلبـة في الجامعـة يحتشـدون حـول طالـب يخطب فيهـم قائـلًا إنَّ المصريـين لـن يصمتـوا عـلى عمـلاء الإنجليـز، والخونـة، مـع تعـالي الهتـاف «يسـقط الخونـة. المـوت للخونـة». انطلقـت مظاهـرة الطلبـة خـارج الجامعـة وهـي تنـادي بسـقوط العـرش لتصـل إلى كوبـري عبـاس، حيـث كان في انتظارهـا ضابـط البوليـس السـياسي «الدبّـاغ»، الـذي أمـر بإطـلاق النـار عـلى المتظاهريـن ليقفـز الطلبـة هربًـا في النيـل. ظهـر «إبراهيـم حمـدي» بطـل الفيلـم فجـأة ليقفـز إلى النيـل محـاولًا إنقـاذ أحـد الطلبـة غـير القادريـن عـلى العـوم ليجـد أحـد أصدقائـه يمـوت أمـام عينيـه قائـلًا: تحيـا مـصر.

بـدا «إبراهيـم حمـدي» بعـد ذلـك في شـقة صغـيرة ومعـه زُمـلاؤه وهُـم يتناقشـون حـول العمـل للـرد عـلى حـادث إغـراق عـشرات الطلبـة في كوبـري عبـاس، حيـث قـال «إبراهيـم» لهـم إنَّهـم قتلـوا عـشرات الإنجليـز دون حـل وأنَّـه لا بديـل سـوى قتـل الخونـة الذيـن يتعاملـون معهـم.

ظـلَّ «حسـين» صامتًـا لا ينبـس، بينمـا علَّـق «مدحـت» سـاخرًا بأنـه لا يشـبه أيـا مـن الطلبـة المُجتمعـين مـع «إبراهيـم حمـدي» سـائلًا «حسـين» أيـن هـو، ثُـم قـال لـه:

t.me/qurssan

ـ قُل لصديقك إحسان أنَّ مدحت لم يظهر في فيلمك.

لم يرُد «حسين»، واستغرق في مُتابعة الفيلم ليشاهد «إبراهيم حمدي» يعرض على زملائه ضرورة قتل «عبدالرحيم باشا» الخائن الموتور. أرسل «إبراهيم» رسالة لوالدته يطلب فيها أن تدعو له، وحمل مُسدسه وذهب إلى مقر الوزارة ومعه كاميرا وقدم للحراس كارنيهًا ادعى فيه أنَّه صحفي ثُم يدخل ليطلق الرصاص على «عبدالرحيم باشا»، وجرى هاربًا، لكنَّ الحراس أحاطوا به وأمسكوه وظهر «إبراهيم» بعد ذلك في مكتب ضابط البوليس «الدباغ»، وهو يتعرَّض هناك للضرب المُبرح ليشي بأسماء شركائه في الجريمة، لكنه يصرّ على الرفض، ويتم نقله لمستشفى قصر العيني للعلاج. وهرب «إبراهيم» بعد ذلك مرتديا ملابس طبيب ليذهب إلى «محيي» أحد الطلبة المُبتعدين عن السياسة ليختبئ عنده، وهُناك التقى «نوال» شقيقة «محيي» لتبدأ قصة حُب مُلتهبة تصل إلى درجة كتابة ورقة بعبارة «لا إله إلا الله. محمد رسول الله» حتى لا يفترقا. وتصل الأحداث ذروتها عندما ينجح أصدقاء «إبراهيم» في تهريبه إلى الميناء ليختبئ في باخرة بعيدًا عن مصر، لكنَّه يقفز منها في اللحظة الأخيرة عائدًا لممارسة العمل الفدائي حتى يموت خلال تفجير ينفذه ضد قوات الاحتلال.

انتهى الفيلم بكلمة «البداية» مُبشِّرًا بثورة يوليو التي خرج معها «مُحيي» و«عبدالحميد» من السجن دليلًا على حُرية مصر، لكن «حسين» قام صامتًا ليُدخِّن في عصبية ظاهرة وهو يقول لمن معه:

ـ التزوير سمة العصر. لقد شوهوني كما أرادوا.

ابتسمت «سُعاد» قائلة:

ـ حسين إنَّه فيلم جيد، لقد ردّ اعتبارك.

ردّ بتجهم:

ـ لا أنا أعرفهم جيدًا. على العموم هذا قطيعة بيني وبين إحسان

t.me/qurssan

الصحفيـون دائمًـا هُـم الصحفيـون، يعشـقون الأكاذيـب، ويرشـون البهـارات عـلى كُل حكايـة. لقـد خاصمـت الحُـب مـن أجـل الوطـن، وأغلقـت قلـبي، لكنَّهـم صـوَّروني شـخصًا ضعيفًـا يهيـم حُبًّـا بفتـاة.

في طريق العودة أمَّن «مدحت»على رأي ابن خالته قائلًا:

ـ الفيلـم مُفاجـأة لي شـخصيًا، في أحداثـه وسـهولته وسـذاجته وحـتى نهايتـه.

ثم بصوت حاول أن يبدو أكثر جدية:

ـ أعتقـد أنَّهـم بمشـهد النهايـة أرادوا أن ينزعـوا عنـك أي بطولـة. أرادوا أن يقولـوا إنَّ البطـل الحقيقـي لا يهـرب، ويعـود ليمـوت فـداء لوطنـه.

ـ كلاااااب.

علَّق «حسين» غاضبًا، وواصل تدخينه بعصبية.

***

عـلى المقهـى كان جميـع الـرواد صامتـين يسـتمعون لصـوت الزعيـم عبر الراديـو يخطُـب في شـجن. جلـس «حسـين» و«عبدالقـادر عامـر» يستمعان لصـوت «عبدالنـاصر» حزينًـا، وهـو يسـتعرض مـا جـرى من الانقلاب ضـده في سـوريا قائـلًا:

«الإخوة في جميع أرجاء الوطن العربي..

هـذه أول مـرة أسـمح فيهـا لنفسـي أن أوجـه الخطـاب إليكـم جميعًـا على هـذا النحـو الرسـمي، ولكنَّـني أشـعر أنَّ مـن حقكـم عـليّ، ومـن واجـبي حيالكـم أن أطلعكـم عـلى فكـري، وأن أفتـح أمامكـم قلـبي في هـذه اللحظـات الحاسـمة مـن نضـال الأمـة العربيـة ومـن كفاحهـا في سـبيل مثلهـا الأعـلى في الوحـدة والحريـة.

إنـني لا أوجـه هـذا الحديـث إلى شـعب الجمهوريـة العربيـة المتحـدة،

لأنَّني أعتبر أنَّ الساعات التي نعيشها الآن ليست ملكنا وحدنا، إنها ملك تاريخ سبق، وملك حاضر يبنيه الدم والعرق، وملك مستقبل نحاول تحريكه في ضمير الغيب، إنَّها ملك نضال قديم مستمر باق إلى الأبد من أجل هذه الأمة العربية ومن أجل عزتها. لهذا أريدكم جميعًا أن تكونوا معنا، وأن تعيرونا كل الفكر الواعي منكم والاهتمام».

همس «حسين» في أُذن «عبدالقادر» قائلًا:

ـ ألا ترى هؤلاء البُلهاء الذين أوشكوا على البكاء مما يقوله الطاغية.

أجابه «عبدالقادر» بهزّات موافقة لرأسه، ليستمع لصوت الزعيم هادرًا:

«إنني لا أقبل مهما كانت الظروف أن أرى الشعب هنا والشعب في سوريا أطراف معركة وأصحاب خلاف وشقاق، لا أستطيع أن أتصور القاهرة ودمشق إلا إخوة كفاح، وإلا زملاء معركة، وإلا شركاء قدر ومصير مع كل عاصمة عربية أخرى، مع كل مدينة عربية، مع كل قرية عربية. ولقد شعرت خلال الأيام الأخيرة أنَّ ما حدث كله قد فتح فرصة واسعة أمام أعداء الأمة العربية من قوى الاستعمار وأعوانه، ومن قوى الرجعية في المنطقة وأعداء تقدم الشعوب، ولقد رأيت رأي العين فرحتهم جميعًا بهذه الفرصة التي تفتحت أمامهم ورأيت تأهبهم للاستفادة منها لمصالحهم وعلى حساب المصلحة العربية.

لقد أحسست أنَّهم يريدونها معركة تقتتل فيها عناصر من أبناء الشعب السوري مع بعضها، معركة تقع فيها الفتنة بين الشعب العربي في سوريا وبين الشعب العربي في مصر، معركة تقع فيها شعوب الأمة العربية في حيرة تتوه بعدها في الظلام. ذلك كله كان أمامي، وكان أمامي أيضًا واجبي تجاه الأمة العربية وتجاه المصير العربي، وإنكم لتعرفون أنني اتخذت منذ أيام قرارًا بألا تتحول

الوحدة العربية بين مصر وسوريا إلى عملية عسكرية، وبناءً على ذلك فلقد أوقفت جميع العمليات العسكرية التي كانت قد بدأت لمناصرة الجموع الشعبية الثائرة ضد الحركة الانفصالية في سوريا».

أشعل «حسين» سيجارة، وسأل صديقه بصوتٍ هادئ:

. أما زال هذا المُدعي يحسب نفسه زعيمًا للأمة العربية؟ هااوو. إنه لا يعلم كيف صاروا يتندرون عليه في كُل محل ومقهى بدمشق.

ـ بالتأكيد يعلم. لا تنس أنَّ مُخابراته تنقل له كُل شيء.

واصل الرئيس حديثه، وبدا الحُزن مرسومًا فوق وجوه معظم الناس، لكنَّ «حسين» أنكره. فكَّر أنَّ المصريين يتقنون كُل شيء حتى النفاق في المشاعر. إنَّها هزيمته هو لا هزيمة المصريين ولا الأمة العربية.

«أيها الإخوة في جميع أرجاء الوطن العربي..

لقد حاولت جهدي أن أؤدي واجبي كجندي في خدمة هذه الأمة العربية، وحاولت ألا أدع مجالًا لفرقة ولا أفتح طريقًا لفتنة. إنَّ عدوي وعدو أمتي هو الاستعمار والرجعية المتعاونة معه، والقاعدة التي يحفِّز منها لضرب آمالنا؛ وهي إسرائيل. إنَّ أملي هو حرية الوطن العربي وحرية المواطن العربي، وإنِّي لأثق في حتمية الوحدة بين شعوب الأمة العربية، ثقتي بالحياة، وثقتي بطلوع الفجر بعد الليل مهما طال.

أيها الإخوة..

أعان الله سوريا الحبيبة على أمورها، وسدَّد خطاها، وبارك شعبها، وستبقى هذه الجمهورية العربية المتحدة رافعة أعلامها، مرددة نشيدها، مندفعة بكل قواها إلى بناء نفسها؛ لتكون سندًا لكل كفاح عربي، ولكل حق عربي، ولكل أمل عربي، وسلام عليكم جميعًا. وعاشت الأمة العربية، وعاشت الجمهورية العربية».

t.me/qurssan

ـ عاش جمال عبدالناصر. عاشت الجمهورية العربية المتحدة.

تردد الهُتاف من أحد الكروش المُنتفخة داخل المقهى ليُردد خلفه بعض الجالسين على استحياء، فقال «حسين» مُبتسمًا:

ـ عظيم. واحد من المُخبرين كشف لنا نفسه.

ضحك «عبدالقادر» ساترًا شفتيه بكفِّه، وقال لصاحبه:

ـ هذه الوحدة كانت أكذوبة، ضحك على الذقون، لذا لم تستمر. قبل شهور حكى لي تاجر سوري صديق يقطُن في الإسكندرية كيف يتعامل الضباط المصريون بتكبر وتعالٍ مع زملائهم السوريين. وقال لي إنَّ تطبيق قرارات التأميم داخل سوريا أدَّى لتزايد كبير في حنق الناس على عبدالناصر، خاصة أن أكثر من نصف المجتمع السوري تجار وأصحاب مشروعات. كما أنَّ عمليات القمع والاعتقال التي مارسها الرجل ورجله السفاح عبدالحميد السراج ضد السياسيين ضاعفت غضب الناس على القاهرة. لقد توقع صديقي السوري انهيار الوحدة خلال شهور، وأثبتت الأيام صحة توقعه.

هرش «حسين» في شاربه الذي بدأ الشيب يعرف طريقه إليه، ثم قال:

ـ الغريب يا عبده أنَّ الناس هُنا لا تعرف أي شيء. ألا ترى حُزنهم العظيم لأنَّ زعيمهم حزين.

ـ طبعًا يا حسين للأسف هناك كثيرون يصدقون نشيد «وطني حبيبي. الوطن الأكبر».

نظر «حسين» إلى صديقه، واقترب برأسه أكثر، وهمس:

ـ هل تظُن أن المشير عامر سيقوم بانقلاب على عبدالناصر؟

سكت «عبدالقادر» كثيرا ثُم أجاب سائلًا:

ـ لمَ تقول ذلك؟

ـ عرفت من بعض المصادر أنَّ منشورات جديدة بدأت تظهر

داخل الجيش موقعة باسم الضباط الأحرار.

فكّر «عبدالقادر» قليلًا وقال:

ـ بحساب القوة الآن، فإنَّ عبدالحكيم عامر أقوى، لكن بحساب الدهاء أعتقد أنَّ عبدالناصر سينتصر. أتصور أنَّ المشير عامر رجل منصب، ولا ناقة له ولا جمل في الحرب أو التآمر، ولو استرجعت ما جرى له في دمشق لعلمت كيف استسلم تمامًا لقوات الانقلاب، ثُم غادر دون كلمة.

ابتسم «حسين» وقال:

ـ نعم. كانت فضيحة.

وسكت «حسين» لحظات شرب فيها شايه الساخن قبل أن يقول:

ـ عمومًا. أنا أتصور أنَّ مرحلة الإعداد للحركة يجب أن تتضمن إيجاد أي جسور مع ضباط بالقوات المسلحة.

واصلا النقاش، بينما كان مُعظم أحاديث روّاد المقهى تدور حول خيانة القومية العربية، ونكران الجميل، وطعنات الأشقاء لناصر العروبة.

***

أدخلت خادمة المنزل كوب الشاي الصباحي للرجل الثمانيني الجالس في الشرفة مُطلًا على أحد شوارع جاردن سيتي مُتنفسًا هواء الصباح، ومُستمتعًا بدفء الشمس، وواضعًا مُصحفه بين راحتيه، ليقرأ كعادته بعض القُرآن. كان الرجُل قد ألقى عن كاهله هموم العمل، وألاعيب السياسة، راضيًا بما قدم لبلاده، وقانعًا بأنَّ لكل عصر رجالًا، وأنَّ دوام الأحوال ضد نواميس البشرية. رنا نحو الشارع الخالي إلا من بعض البوابين، وتذكر عندما استأجر البيت كيف شاع

السرور في الحي الأرستقراطي العتيق فرحًا بمقدمه. كان الرجُل الذي اعتاد مُنادته بلقب «دولة الباشا» قد باع بيته في مصر الجديدة، ليستكمل بناء فيلا باسم زوجته كانت قد بدأت بناءها في حي المرج لكنَّها لم تُكملها، لأنَّ القدر كان يُخبئ أمرًا آخر، فبعد الثورة قرّر ضباط الحركة المباركة فرض الحراسة على ممتلكات زوجة الباشا ومن بينها فيلا المرج، والأنكى أنَّهم بعد أن عزلوا اللواء «محمد نجيب» من رئاسة الجمهورية، جعلوا تلك الفيلا مقرًّا لإقامته.

رشف الباشا رشفة صغيرة من شايه الصباحي، ورسمت ذاكرته أحداثًا مضت عاش فيها بين القلق والأمل، وشهد فيها أيام سرور ومجد، وأيام محن واضطهاد، لكنَّه في النهاية كان راضيًا، ولا يشعر بخوف أو قلق من حساب أعسر ومُحاكمة أعظم أمام رب العباد مُنذ عمل بالحقوق وقلبه وضميره مشغول بحق مصر في التحرر والاستقلال، ومن منبر لآخر ومن حزب لحزب انخرط «مُصطفى النحاس» في جهاد المصريين لنيل الحرية وشارك في الثورة الأعظم وهو في الثالثة والأربعين ليجد نفسه منفيًا، ومُراقبًا، ومُضيقًا عليه، حتى رحل الزعيم الأكبر ووجد نفسه محل تقدير وإجماع من الناس ليتولّى قيادة أكبر وأكثر الأحزاب شعبية في ذلك الوقت. حارب الرجل في صمت مؤامرات القصر، ومراوغات الإنجليز، لكنَّ حنكته، ونزاهته كانت كفيلة بتجاوزه كُل أزمة، ونجاته من كُل مؤامرة كأنَّ عين الله تحرُسه. تذكر الزعيم المُتقاعد كيف حاول القصر قتله عدَّة مرات عن طريق أشقياء ومُغامرين، فدفع يومًا بـ«حسين توفيق» وجماعته ليقوموا بإلقاء قُنبلة على سيارته، لكنَّ ستر الله أخرها بضع ثوانٍ لتنفجر بعد مروره، وفي مرة أخرى أطلقت السيارة السوداء الخاصة بالحرس الحديدي رصاصها على سيارته فأصابت سائقه وحارسه وأخطأته، ثُم قام قتلة آخرون بتفجير سيارة مفخخة أمام منزله في مصر الجديدة لتحترق ناموسية نومه، بينما كان هو يقرأ القرآن في الغرفة المجاورة. وقتها قال له الناس إنَّ الله يُدافع عن الذين

t.me/qurssan

آمنوا، لكنَّه كان على يقين بأنَّ موعد مُغادرته للدُنيا لم يحُن بعد، وأنَّ لكل أجلٍ كتاب.

فكر أنَّه شعر بالغُربة وهو يقف ومعه تلميذه الدؤوب «فؤاد سراج الدين» أمام «محمد نجيب» مُهنئين بالحركة المُباركة، ولم يُصدق ما قاله «نجيب» وقتها من أنَّهم قاموا بالحركة من أجله ولتحقيق ما ينادي به. شعر بالضيق بعد وقت قصير عندما قرأ بالصُحف المبحات وإساءات مُتعمدة له ولزوجته، والتي اقترن بها بعد أن تجاوز الخمسين من عمره، ثُم بان له الموقف الحقيقي لرجال الحركة المباركة عندما تمت محاكمة زوجته ووضعه تحت الإقامة الجبرية. قاطع الصُحف بعد ذلك، وشغل وقته بقراءة القرآن ولعب الطاولة واستقبال الأقارب والمُحبين الزائرين، مُعلنًا أنَّه طلق السياسة طلاقًا بائنًا.

قال «مُصطفى النحاس» لنفسه إنَّ البلد يمضي من سيئ لأسوأ في ظل أوهام ودعايات كاذبة عن التقدم والعظمة، لكنَّه مؤمن أنَّ الناس في داخلها تعرف الحق من الزيف، وأنَّ التاريخ سيقول كلمته بعد أن يرحل الجميع.

أكمل الرجل كوب الشاي، ثُم وضعه على طاولة مستديرة أمامه، قبل أن يقرأ بصوتٍ خفيض: «**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا. وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا. وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا. وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا. وَتِلْكَ الْقُرَىٰ**

أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا».

***

فاجأه النبأ. عاد «مصطفى راغب» مسئول الإخوان الذي كان هار[...] في سوريا. قال «حسين» لزملائه وهم جالسون في شقة «مدحـ[...] فخري»:

ــ إنَّها فُرصة للتنسيق والتشاور. هذا الشخص خطير جدًّا، ويُمكـ[...] إعداد مجموعات للمشاركة في الثورة القادمة.

بدا «مدحت» مُتشككا، وقال وهو يُتابع بعينيه حركة أصا[...] «حسين» المُنفعلة:

ــ يا حسين: ألم ترفض من قبل أي تعاون مع الإخوان؟ لقد قلـ[...] أنت لنا مرارًا إنَّهم أكثر انتهازية من أي فصيل، ألا تذكر عند[...] قلت مقولتك المأثورة: إذا كانت الأحزاب السياسية تُتاجر بالوط[...] والشعارات، فإنَّ هؤلاء يتاجرون بالله.

هزَّ «حسين» رأسه قائلًا:

ــ نعم. هذا صحيح، لكن التنسيق والتشاور معهم الآن ضر[...] وذلك سيكون مرحليًا فقط. سنعمل على اغتيال عبدالناصر و[...] من معاونيه، وسيقومون هُم بإطلاق المظاهرات في الشوارع لإحدا[...] الاختلال المطلوب، والاستيلاء بعد ذلك على الحُكم.

ثُم واصل شارحًا:

ــ هل تعرفون ما سبب نجاح ثورة السوريين ضد عبدالناصر؟ [...] جرى أنَّ الإخوان والشيوعيين أطلقوا مظاهراتهم في الشوارع لتأ[...] الثورة التي قام بها المقدم الكزبري، فتمكنوا من السيطرة [...] الشارع، فخفتت أي مقاومة لأنصار عبدالناصر في دمشق، و[...]

المدن. وحتى اللاذقية التي كان يعتقد أنها تجمع أنصاره، انقلبت عليه في ثلاث ليال، لتُعلن تأييدها التام لخلع سلطته.

هزّوا رؤوسهم كتلاميذ أمام أستاذهم، قبل أن يضيف:

ـ وهذا ما سنفعله هُنا. حوادث اغتيال للشخصيات البارزة، ثُم نزول الإخوان مؤيدين في الشارع وينتهي حُكم الطاغية.

قام «عبدالقادر» من كُرسيه، ووقف في منتصف حجرة الصالون، وسأل بشكل مباشر:

ـ مَن هُم هؤلاء الشخصيات البارزة الذين يجب قتلهم لإطلاق الثورة؟ وهل سيكون أنور السادات واحدًا منهم؟

ابتسم «حسين»، وقال:

ـ السادات ليس من الشخصيات الحاكمة. لا يغرك أنّه رئيس مجلس الأمة. أنت تعلم جيدًا أنّ هذا المجلس مُجرد حائط الصدى لما يقوله عبدالناصر ولا أي وجود له بين الناس. نحن نُريد تنحية المؤثرين بالفعل. أعتقد أن قائمتنا يجب أن تضم جمال عبدالناصر، وعلي صبري رئيس الوزراء، والسفير الأمريكي بالقاهرة. في الوقت نفسه سنضع خطة للاستيلاء على الإذاعة لإعلان الثورة.

ـ والمشير عبدالحكيم عامر؟

سأل «سعيد» مُبديًا دهشته من تجاهل اسمه ضمن الشخصيات المؤثرة، لكنّ «حسين» أجاب سريعًا:

ـ له في عُنقي دين لا يُمكن نكرانه، لأنّه هو الذي تدخل للإفراج عني وعن عبدالقادر. عمومًا هو لن يقف في طريقنا، فكل ما يهمه هو الجيش، وسيبقى حاكما عليه.

قاموا من غرفة الصالون، ثُم جلسوا على مائدة السُفرة ليرسم لهم «حسين» خريطة التنظيم مُحددًا دور كل واحد منهم. أخبرهم أنّ «عبدالقادر عامر» سيكون مسئول التنظيم العسكري

t.me/qurssan

حيث ستوكل له مُهمة جمع الأسلحة وتخزينها، وسيصبح «سعيد توفيق» المسئول المالي للتنظيم، حيث ستكون مهمته جمع المال والاشتراكات والتبرعات، والإعداد لخطط الاستيلاء على أي أموال عامة لشراء الأسلحة، بينما سيكون «مدحت فخري» السكرتير العام الذي يتلقى التعليمات والأوامر من حسين لتنفيذها.

بعد يومين، وكما خطط حسين، تم اللقاء بينه وبين «مصطفى راغب» الذي احتضنه غير مُصدق، مُستعيدًا أيام الخوف والخطر في الشام. جلسا في فندق مينا هاوس بالهرم يرتشفان قهوتهما، ليسأله «حسين» عن السبب الذي دفعه للعودة، فأجاب «مُصطفى»:

ــ لا شيء سوى الشوق لمصر والناس والشوارع. في الوجع هُنا مثل هُناك، لذا كان لابد أن أعود. بعد الوحدة طاردتنا مُخابرات عبدالناصر، ورجاله في دمشق وضيقوا علينا حتى اختبأنا في حماة بعد أن غيّر كثيرون هوياتهم. وساعدنا كثير من التُجار أن نُنشئ مشاريع صغيرة كانت تُحقق لنا أموالًا جيدة استطعنا العيش، لكن تطبيق قرارات التأميم في سوريا دفعني للعودة إلى هُنا للاستفادة بمعاشي والبيت الذي تركه والدي.

ــ ألا تخشى الاعتقال؟

ــ لقد قطعت خيوط الماضي، ومعظم أصدقائي من الإخوان إما محبوسون في زنزانات عبدالناصر أو هاربون في السعودية وباقي الدول.

أشعل «حسين» سيجارة ماركة «بولمنت»، وقال:

ــ هل تُريد أن تقول لي إنَّك تقاعدت؟

مصمص الرجل الذي بدت سمنته مُميزة شفتيه، وأجاب وهو يهز رأسه:

ــ أنا أعرف أنَّك لن تُصدقني. لكن أنا بالفعل أخرجت السياسة والإخوان تمامًا من رأسي.

ثم سأل بعد هُنيهة:

- لكن قُل لي: ماذا تريد يا حسين؟

- أريد اتصالًا مع أحد فاعل في الإخوان.

هزَّ «مصطفى راغب» رأسه وقال:

- بسيطة. سأكتب لك ورقة لرجل زميل لك بإحدى شركات البترول، سيقرأها ويفهم مُرادك، ويمكن أن تتعاونا.

شر «حسين»، ونفث نفسًا طويلًا من بلمونتته، قبل أن يسأل:

- ما اسمه؟

- أحمد قبودان.

ومد له ورقة صغيرة مكتوبًا عليها «الأستاذ» وقال:

- أعطه هذه، وثق به إلى أقصى درجة، ولا تخبرني بشيء.

- تمام. أشكرك.

تصافحا، وقام «حسين» وشعور طاغ بالانتصار يُسيطر عليه. وغادر مُغتبطًا.

***

استيقظت «سُعاد» مفزوعة من رؤية ابنتيها «كوثر» و«وفاء» تصرخان هلعًا بعد أن وجدتا كوبي اللبن الصباحي وقد تحولا إلى كوبي دم. أبصرت «سُعاد» الكوبين الحمراوين فضربت بكفها الصينية لتُلقي بهما على الأرض، بينما واصلت البنتان صرخاتهما. ظلَّ صوت البنتين الصغيرتين يتردد في أذُنها وهي تحاول تأمل ما حولها لتتأكد أن ما رأته مجرد كابوس عابر. نظرت إلى يمينها فلم تجد «حسين» راقدًا، ومدَّت أصابعها مُتحسسة مكانه فوجدته باردًا. تثاقلت،

وقامـت مُتكاسـلة لتجـد البيـت سـاكنًا بـلا حـراك، اقتربـت مـن غرفـة البنتـين فوجدتهـا سـاكنة، ورمتهمـا بنظـرات محبـة وخـوف، ثُـم نظـرت إلى غُرفـة السـيدة «سـميرة» لتجدهـا موصـدة وصامتـة كقـبر. فكّـرت للحظـات، وهـي ترمـي الغرفـة الباقيـة الخاصـة بسـعيد بنظـرة ريـب، قبل أن تسـمع صـوت حديـثٍ خافـت. اقتربـت ببـطء لتكتشـف عـبر بصيص ضـوء مُتسرِّب مـن أسـفل البـاب أن الغرفـة محـل اجتمـاع سري يُشـارك فيـه زوجهـا. تحسسـت خطواتهـا بهـدوء، واقتربـت أكـثر مُرهفـة سمعها لتسـتبين مـا يُقـال، فسـمعت صـوت «حسـين» مُمـيزًا وهـو يقـول:

ــ لقـد قابلـت أحمـد قُبـودان بالأمـس ومـن الواضـح أنَّـه أخطـر كثيرًا ممـا نتخيـل. تصـور يـا سـعيد أنَّ هـذا الرجـل لا يبـدو عليـه أي شيء، فهـو ضحـوك وظريـف جـدًّا بـين زُملائـه، وكثـيرًا مـا يُكـرر النـكات، ويجيـد تقليـد الفنانـين، ويُدخّـن، ومـع ذلـك هـو واحـد مـن أخطر عنـاصر الإخـوان السريـين، ولديـه خريطـة بمخـازن أسـلحة في كُل مكان بالجمهوريـة.

ـ وهل وثق فيك بكُل سهولة؟

ميزت المُتنصتة صوت «سعيد» سائلًا، ثُم أجاب «حسين»:

ــ نعـم. تصـور. لقـد أمسـك الـكارت الخـاص بمصطفـى راغـب، ونظر فيـه كمَـن يتأمـل لوحـة فنيـة لفاتنـة مـن فاتنـات عـصر النهضـة، ثُم ابتسـم ونظـر إليّ وسـحبني مـن يـدي بعيـدًا عـن النـاس، وقـال لي: الآن يُمكنـك الـكلام دون خـوف. قُلـت لـه عـلى التنظيـم الجديـد، وأخبرته أن عـدد الأعضـاء لدينـا كبـير ويتعـدَّى مائـة شـخص، فقـال لي إن مائة شـخص عـدد ضئيـل، وأن المُهـم هـو قـوة الأشـخاص، مؤكـدا أن لهم تواجـدا داخـل الجيـش، وكثـير مـن الجهـات المهمـة والحساسـة، وأنهم يتحينـون الفُرصـة للقيـام بعمـل كبـير.

سكت قليلًا كأنه يسحب نفسًا من سيجارته ثُم أضاف:

ــ طبعًـا تحدثـت معـه عـن القيـام بعمل مُشـترك، لكنـه تحفظ بشدة

t.me/qurssan

مكررًا أن الإخوان لا يعملون إلا وحدهم، ومَن يرد أن يعمل معهم يعمل تحت قيادتهم. ونصحني أن أجلب السلاح من الإسكندرية، لذا فقد كلفت مدحت بالسفر إلى هُناك ليتابع مع عبدالقادر التفاوض مع أحد التجار، في الوقت نفسه فقد أجرت شقة في الظاهر لنضع فيها السلاح.

ضحك «سعيد»، وقال:

ـ أنت كذبت على رجل الإخوان لتُخبره أن عدد التنظيم مائة شخص، ونحن أربعة فقط.

ـ قريبًا سيتسع التنظيم، عبدالقادر قال إنَّه جنّد اثنين في الإسكندرية، وأنا سأتصل بسيد ليُساعدنا. لا تنس أنه كان أكثر الأعضاء إخلاصًا.

ـ عظيم. أريد أن أقول لك أيضًا إنَّ نجيب سيأتي الخميس القادم. هل نُفاتحه؟

أجاب «حسين» بحزم:

ـ بالطبع لا. يجب أن نتعلم من دروس الماضي. نجيب ليس مدحت ولن يكون. نجيب مُنفلت، ويحب القراءة والسينما، ويريد أن يستمتع بالحياة. لن يفيدنا، وربما يكون ضارًا بالتنظيم. المُهم سأذهب إلى الفراش، ففي الصباح لدينا تفتيش، ويجب أن أذهب إلى الشركة.

سمعته «سُعاد»، فانسحبت تجري على أطراف أصابعها، ودلفت سريعًا إلى الفراش، وتظاهرت بالنوم.

***

تلاقوا بعد غياب سنوات طويلة. قبّل «نجيب» «فخري» ابن خالته بمودة ظاهرة، ثُم صافح «سُعاد»، واحتضن «كوثر» و«وفاء» ماسحًا

بكفِّه شعرهما الطويل، قبل أن يجلس على أريكة الصالون الذهبي المُميز لمنزل «توفيق بك». هُنا لعبنا، وكبرنا، وفتحنا نوافذ الدهشة والصبا. قالها لنفسه، وهو يتذكر أيام المدرسة وحكايات التنظيم الساذج، وخطط المُراهقين الوطنيين.

كان «نجيب» قد وصل قبل دقائق، مُرتميًا في حُضن خالته، ثُم مُعانقًا ابن خالته «سعيد»، قبل أن يستقبل أسرة «حسين» الجديدة التي لم يرها من قبل. بدا «نجيب» أكثر سمنة من أيام الشقاوة، واتسعت جبهته قليلًا، وحمل فوق شفتيه شاربًا كثيفًا قريب الشبه من ذلك الذي يحمله «حسين». وفوق رأسه وضع «نجيب» طاقية أوروبية مُستديرة، بدا معها وكأنَّه أحد مُمثلي السينما العالمية، رطن «نجيب» بالألمانية بضع كلمات قال لهم إنَّها تعني أنكم أوحشتموني كثيرًا، ثُم أخذ يضحك ساردًا حكايات لا حصر لها عن أزماته العديدة مع اللغة الألمانية مُذ وطئت قدماه أرض ألمانيا الشرقية. سألته خالته عن زوجته فقال، إنَّها ثقيلة، راسمًا بذراعه علامة البطن المُنتفخ إشارة لحملها، وأوضح قائلًا:

ــ الطفل الثاني. رُزقنا بأحمس قبل أربع سنين، وسأسمي القادم رمسيس لو كان ولدًا، وإيزيس لو جاءت بنتًا.

تذكر «حسين» «سناء» وجمالها الخلَّاب، ورقتها الساحرة، وقال في سرِّه: لو كانت زوجتي لما سميت هذه الأسماء البلهاء التي تُشير إلى حُكام جبابرة مُستبدين جعلوا شعوبهم عبيدًا.

نظر «نجيب» فجأة إلى « سُعاد»، وقال بحركات تمثيلية:

ــ أريد أن أقول لك إنك أفضل ما فعل حسين في حياته. لقد اختار لأول مرة فتاة جميلة لتُصبح شريكته وأم أولاده. تحيتي لأهل الشام وتقديري لجمالهن لا يوصف.

ابتسمت «سُعاد» قائلة:

ــ شكرا على ذوقك.

t.me/qurssan

وتدخلت حماتها في الحوار لتقول:

ـ ومَن مثل حسين ابني؟ ألا تذكر يا نجيب كيف كانت بنات النادي يتشاجرن عليه؟

قهقه «نجيب» بصدق، وقال:

ـ يا خالتي. القرد في عين أمه...

ـ اخرس يا ولد.

قالتها خالته، لكنّه واصل التهريج مُحتضنًا «حسين» الذي بدا غير قادر على احتمال المزاح، وجلس يُدخّن سيجارًا غليظًا، وهو يقول لـ«حسين»:

ـ هاااا. ما رأيك؟ ألا أبدو لك كإقطاعي قديم؟

وواصل:

ـ ألم تكُن ضد الإقطاعيين والباشاوات ونحن صغار؟ قُل لي الآن: كيف ترى الاشتراكيين وأبناء الفقراء عندما يحكمون؟

بدا الغيظ واضحًا على «حسين»، وعلّقت «سعاد» قائلة:

ـ إن حسين هجر السياسة تمامًا وتفرغ الآن لعمله ومستقبل بناته.

قهقه «نجيب» مرة أخرى، فقال «حسين» مُجابهًا خجله، وراميًا بنظرة تحذير نحو زوجته:

ـ حسين توفيق لا يتخلّى أبدًا عن وطنه ولا يخاف من أحد.

قال «نجيب»، وهو يربت على كتفه:

ـ قلبك أبيض.

ثُم أضاف بشيء من الجدية:

ـ محمود مُراد صار درويشًا، وإبراهيم كامل على وشك أن يُصبح سفيرًا، ومحجوب تفرغ لإدارة شركات تُجارية ناجحة، وعُمر أبو يعلى الآن صاحب عيال، وسيد أصبح رمزًا للثورة الجزائرية بالأفلام التي

t.me/qurssan

ينتجها في هيئة الاستعلامات ضد فرنسا، أما أنور السادات فقد أصبح رئيسًا لمجلس الأمة، وها هي الأيام تدفع كُل واحد في ناحية. أستطيع القول الآن برضا حقيقي أنَّ السياسة الحقيقية هي أكل العيش. هي التمتع بالحياة.

ردَّ «حسين» بحدّة:

ــ لا سعادة في العيش على الهامش، خدمة السلاطين، السكوت على الباطل. هل أنت سعيد باستبداد عبدالناصر وتفرعنه؟

علقت السيدة «سميرة» بصوتٍ هامس:

ــ منّه لله.

لكن «نجيب» ابتسم وقال:

ــ لا يعنيني.

وواصل:

ــ أنا مُهتم بحالي وحال عائلتي، باستمتاعي بالفن، بالأدب، بمتابعتي للسمر، بسفري هُنا وهُناك. بقراءة الكُتب، والاستفادة من تجارب الآخرين. أنا أعمل في مجال الاتصالات في ألمانيا وأحصل على ما يسترني ويجعلني أحصل على طعام جيد وشراب أكثر جودة، وأتصور أنَّ هذا يكفي. أما عبدالناصر والاشتراكية والجمهورية المتحدة والقومية وغيرها فإنها لا تمر أبدًا في ذهني.

قامت «سُعاد» على إثر غمزة من عين حماتها لتسأل «نجيب» عما يشربه، لكنَّه عاد إلى هزله قائلًا:

ــ هذه اليد الناعمة تصنع القهوة؟ يااااه. ما ألذها قهوة.

ثُم أضاف موجهًا حديثه إلى «حسين»:

ــ أنت محظوظ دائمًا يا ابن خالتي.

ربت «سعيد» على كتف نجيب قائلًا:

ـ دعك من الهزل. قُل لي: كم يومًا ستبقى في القاهرة؟

أسبوعين.

قالها «نجيب»، مُضيفًا:

ـ لأننا سنسافر أنا وسناء بعد ذلك إلى أسوان للقاء محمود. أنت تعرف أنه يعمل في السد العالي. قولوا لي أنتم هل ستعزمونني على السينما؟

ـ السينما؟

سأل «حسين»، فهز ابن خالته رأسه قائلًا:

ـ نعم السينما. هُناك فيلم جديد اسمه الناصر صلاح الدين بطولة أحمد مظهر وصلاح ذو الفقار ونادية لطفى سيُعرض الاثنين القادم في سينما مترو. إنهم يقولون إنَّه فيلم عالمي.

هزَّت السيدة «سميرة» رجلًا فوق الأخرى لتبدو أكثر سمنة مما تركها عليه ابن أختها، ثُم نظرت نحوه سائلة:

ـ ألم تُشاهد الفيلم الذي عملوه عن ابن خالتك؟

ـ فيلم؟

ـ نعم. في بيتنا رجل.

ضحك «نجيب» بشكل مُتقطع قبل أن يُجيب:

ـ آه. رأيته العام الماضي على أسطوانة في دور عرض عربية بألمانيا، وضحكنا أنا وسُناء كثيرًا، لأنَّ بطل الفيلم لا علاقة له بحسين الذي نعرفه، كما أنَّ عُمر الشريف بعيد الشبه عن ابن خالتي تمامًا.

شعر «حسين» بضيق شديد، وبحلق بحقدٍ إلى القادم بعد غياب، ثُم قام وهو يقول:

ـ سأستئذنك يا نجيب. عندي موعد مهم. البيت بيتك طبعًا.

ـ انتظر. هل غضبت؟

صاح به «نجيب» وهو يقوم خلفه، لكنه غادر مُسرعًا والتجهُم يكسو وجهه.

***

ثلاثة مُسدسات برتا، وبُندقية آلية، وخمس قنابل يدوية، وأظرف من الرصاص. كانت أول توريدة للسلاح تلقاها «حسين» وأخفاها في شقة الظاهر تُثير من القلق في نفسه أكثر مما تبعثه من الغبطة. شعر «حسين» للوهلة الأولى أنَّ تلك الأسلحة تُمثل لا شيء أمام جهاز بوليس يمتلك كُل أنواع الأسلحة، وقوات مُسلحة لديها دبابات ومدرعات ومدافع وصواريخ وطائرات، وأجهزة استخبارات لها صلاحيات مُطلقة في التحري والاستجواب، ونظام حُكم يوجه صحافة وتليفزيون وإذاعة لصالحه واصمة خصومه بالخيانة والفساد كما أنَّ شُحنة الأسلحة البسيطة كلفتهم نحو ثلاثمائة جنيه، وهو ما يوازي راتبه الذي يصفه كثيرون بأنَّه كبير في ثلاثة أشهر. أما أكثر ما أزعج الأوتار العصبية «لحسين» فكانت تلك المُشادات الحادة التي كانت تظهر بين الحين والحين مع «سُعاد» المُتجهمة دائمًا. في آخر خناقة قالت له إنَّها تعلم أنَّه يُدبر أمرًا ما وأنَّه يُعرضها ويُعرض ابنتيه مرة ثانية للخطر. كان أكثر ما أوجعه قولها:

ـــ يا حسين. أنت حُر في حياتك، حُر في أن تفعل بها ما تشاء. تكره، تحب، تضرب أو حتى تقتل، لكن أنت لست حُرًا في تدميرنا وإلصاق الأذى ببنتين لم يفعلا شيئًا لأحد.

لقد ضربته «سُعاد» بسيفٍ بتار عندما ذكَّرته بـ«خالد» قائلة:

ـــ لقد خسرنا ابننا الأول بسبب عدم وجود رعاية، ومات على حِجر غيري لأنَّني كُنت مكلومة في زوجي أجري يمينًا ويسارًا بحثًا عن مخرج لورطته التي صنعها بنفسه.

t.me/qurssan

ردّ «حسين» بغضب:

ـ إنني كُنت أجاهد من أجل ابني وأبناء سوريا ليجدوا مناخًا آمنًا وحياة كريمة. لقد كُنت أحارب الطاغية الذي طرده السوريون شرَّ طردة، وها هو انتهى به الحال قتيلًا في بلاد غريبة.

علا صوتها كثيرًا، وهي تقول:

ـ لم يُعينك أحدٌ وكيلًا لله في تخليص العالم من الأشرار. إنَّهم لن ينتهوا. كُلما مات طاغية أو خائن جاء خلفه ألف طاغية وخائن. تلك هي طبيعة البشرية. أفق يا حسين من وهم يد العدالة.

فكَّر «حسين» بجلاء في جدوى ما يفعل هو وأصدقاؤه الثلاثة. شحنة أسلحة محدودة القدرات ماذا تفعل وسط غابة الشر، حتى لو تضاعفت؟ ماذا لو نجح في قتل «عبدالناصر»؟ هل يضمن أن يأتي خلفه أحد من رجال الله الأنقياء الصالحين الذين يُحققون ما يريد؟ «عبدالحكيم عامر» مثلًا بصرامته وقدراته المحدودة، أم «السادات» بمكره وخداعه؟ وما الذي يعني نجاحه في قتل «علي صبري» أو السفير الأمريكي؟ سيتغيرون بآخرين ربما أسوأ أو أشد بطشًا. ألم يقتل الإخوان «النقراشي باشا» لأنَّه أصدر قرارًا بحلّ الجماعة؟ ماذا جرى بعد ذلك؟ ألم يأت «إبراهيم عبدالهادي» ليفتح معتقلاته وسجونه ويسحق الإخوان ويقتل مرشدهم ويُشرد عائلاتهم؟ ليس بعد الشر خير، ولا يعني رحيل القُبحاء أن يعود الحُسن. شعر أنَّ «سُعاد» مُحقَّة في كثير مما تقول، وأنَّه تحول إلى مفرخة كراهية، ومصنع حقد، وأنَّ التفكير العقلاني هجره إلى حيث لا يدري. قال لنفسه إنَّ حياة ابن خالته «نجيب» على ما فيها من هزل وضحك ولهو وحب هي حياة رائقة، يكفي أنَّه اقترن بسناء الرومانسية الرقيقة التي سبق أن خطفت قلبه. أما هو فقد بدد كثيرا من السنوات في القتل الخطأ، التفجير للغير، والركض خلف البطولات الوهمية. لقد قتل «أمين عُثمان» قبل ثمانية عشر عامًا، وقبض آخرون ثمن

t.me/qurssan

العملية، فأُعيد «السادات» للجيش، ونُزع من الوفد أحد مخالبه
صراعه مع السراي لتصعد جمعية سرية محدودة القدرات وتستولي
على الحُكم، حُكم مصر، أما هو فظل مُطاردًا مُشردًا خارج القطر
كُله. وفي الشام حارب وفجَّر وقتل يهودا وأجانب بحثًا عن بطولة
حقيقية، لكنَّ عملياته وعمليات زُملائه نُسبت جميعًا إلى كتائب الفداء
العربي وشلة جورج حبش دون ذكرٍ لتضحياته، ثُم أطلق الرصاص
على الشيشكلي ليكسب رجل المخابرات السري وتيارات المُعارضة
والدروز ويقضي هو سبع سنوات مُنتظرا الموت في أي لحظة. أي
خُطى مُتعرجة تخطوها قدماه؟ وأي دروب ضلال يمضي فيها دون
وعي أو تأمل أو تدبر؟ صدقت «سُعاد»، فما يريد أن يفعله لن
يُصلح الكون، وسيمضي الأشرار ليأتي غيرهم أشد شرًا، وأكثر استبدادًا

فتح الراديو ليُتابع تفاصيل خبر اغتيال «أديب الشيشكلي» في البرازيل، وسمع ما نقلته نشرة الأخبار من أنَّه تم استلام جُثمان العقيد الراحل «أديب الشيشكلي»، ولفَّه بعلم سوريا تمهيدًا لنقله لسوريا لدفنه بمدينة حماة في مدافن عائلته. كان رجُلا دُرزيًا يُدعى «نواف غزالة» قد قُبض عليه واعترف بأنه أطلق الرصاص على «الشيشكلي» في مزرعته انتقامًا من قيامه بقتل عائلته في جبل الدروز، ومن المُقرر أن تُقام جنازة عسكرية للرئيس الراحل.

ابتسم «حسين» وقال لنفسه: قتلوه بعد أن صار يستحق الشفقة، لا طعم لذلك. لا بطولة ولا يحزنون. لا مُتعة في القتل السهل، في عمليات اللاتخطيط، في الوصول للهدف دون مشقة، في اللامواجهة، عند اصطياد الفرائس الكسيحة.

سمع طرقًا شديدًا على الباب، فزعت زوجته، وهرولت قادمة من غُرفتها، وقام هو ببروده المُعتاد ليفتح. برقت عيناه عندما رأى أمامه ملابس سوداء ووجوهًا كالحة يعرفها جيدًا. صاح فيهم سائلًا:

ـ من أنتم؟ وماذا تريدون؟

ـ نحن من المباحث الجنائية. أنت مُتهم بالتخطيط لقلب نظام الحُكم. فتشوا الشقة.

***

صفعة، صفعتان، ثلاث. لم يُصدّق أنَّ تلك الأصابع الغليظة لامست خديه. كيف سمحوا لهؤلاء الأجلاف أن يُهينوه؟ فكّر «حسين» وهو مُلقى على أرض أسمنتية صلبة في غُرفة مُظلمة، وهو يستثير حواسه على الاستيقاظ من ذلك الكابوس المُفزع. كيف مرَّ على سفّين من البشر، لا من الأوغاد ليتلقى ركلاتهم في جنبيه وفخذيه ومؤخرته؟ ثُم كيف تلقى سبابًا لم يسمعه في عُمره؟ وكيف لم يستطع أن يرُد على وصم أمه بالعاهرة عدة مرات مُذ أُنزل من سيارة الشرطة حتى وصل إلى زنزانته؟

صرخات تتعالى حوله، وشرر يتناثر من عيون المُخبرين والعساكر يُنبئه أنَّ القادم أسوأ مما تخيل يومًا. قال لنفسه إنَّه لم يرتكب خطأ ولم يُطلق رصاصة، وأنَّ كُل ما فكر فيه لم يتجاوز مرحلة التفكير، وهو ما يعني أنَّه لا جريمة. بريء، غير مُذنب. هل يُحاسب القانون في مصر أحدًا على النوايا؟ سأل نفسه مُقررًا أنه اتخذ قرارًا بالعدول عن أفكاره امتثالًا لنصيحة زوجته الحبيبة التي تعتبره هو وابنتيه دُنياها كُلها. لقد اقتنع أخيرًا أنَّه لن يُصلح الكون، ولن يُنهي وجود الأشرار، ولن يُحقق العدالة، لأنَّ طبيعة البشر تقتضي وجود ظُلم وضلال وفساد وقهر إلى يوم القيامة. لقد حاول قبل سنوات قتل «أديب الشيشكلي»، وهو في أوج قوته وأخطأته رصاصاته، لكنَّ يد القدر كانت تحتفظ للرجل بميتة أكثر إيلامًا وهو وحيد منفي بلا حولٍ ولا قوة.

لمس بكفه سائلًا ساخنًا فوق شاربه ليكتشف أنَّ ضربات الأيدى

t.me/qurssan

الغليظة جرحت شفتيه. لعق الدم النازف، وجلس مُستندًا إل الحائط ليسمع تأوهات مكتومة مُتسللة عبر قُضبان الباب الأسو قاس بنظراته مساحة الزنزانة فوجدها أقل كثيرًا من غُرف الحبس الاحتياطي التي سُجن فيها في سوريا، وقال لنفسه إنَّه كُلما مر الزم تضيق الزنازين على ساكنيها. فكَّر فيمن وشى به، مُتذكرًا أنَّه لا أح يعرف بأمر التنظيم سوى «عبدالقادر»، و«سعيد»، و«مدحت»، وأنَّه حتى «أحمد قبودان» لا يعرف شيئًا عن تفاصيل التنظيم. هل هُناك خيانة جديدة من أولئك الذين أودعهم كامل ثقته؟ وهل يتكرر «نوار» الفلسطيني؟ أم هي السذاجة التي تدفعه دفعًا أن يث بالناس بسرعة؟ فكَّر في «سُعاد»، وشعر بلسع دمعها، وهو ينزل فوق وجهه. ستتوجع ألمًا وستظُن أنَّه لم يلتفت لنصائحها، ول يُفكر في مخاوفها. قرر أنها لو زارته، فسيُخبرها أنه بريء تمامًا هذه المرة، لم يقتل ولم يجرح ولم يُطلق رصاصة واحدة.

ساعات مرَّت دون استدعاء. تركوه مُكومًا بين النُعاس، والصح ككمٍ مُهمل. مثل ذلك الباب الأسود المُصمت الشاهد على ماسٍ وأنات مُعذَّبين ومظاليم كُثر. اقترب من القضبان، لكنه لم ير سو الجدار الصامت، وأبواب بعض الزنزانات الأخرى التي قدَّر أنَّها مليئة، عندما حمل إليه الهواء روائح شتى لبشر آخرين يجمعهم الخوف، الذي اعتاد شمه عند كثير من الناس. بدأ العطش يغزو روحه، وانتابه صُداع خفيف، وشعر بالضيق ألا يجد في جيبه سيجارة واحدة، وأحس أن نقص النيكوتين في شراينه يدفعه دفعًا نحو الجنون. لو سألوه عن نواياه سيُنكر كُل شيء، وسيقول إنَّه مُختلف مع «عبدالناصر» في نظام حُكمه، لكنَّه لا يُمكن أن يقتله، لأنَّ الثوار لا يقتلون الثوار. سيحكي لهم عن بطولاته ضد الإنجليز واليهود والخونة، وسيخبرهم أنَّه كان شريكًا لـ«أنور السادات» في اغتيال «أمين عثمان». سيؤكد لهم أنَّه البطل الحقيقي لفيلم «في بيتنا رجل»، وأنَّ المشير «عبدالحكيم عامر» وظَّفه في شركة «شل» للبترول ال

t.me/qurssan

مصرت وأصبح اسمها الآن «مصر للبترول». تخيل نفسه جالسًا أمام المحققين، وهم يعتذرون له في أدب جم بعد أن خطب فيهم قائلًا: «أنا أول من ثار على الملك، أول من قتل الإنجليز، أنا عدو الأحزاب، وخصم الإقطاع، ونصير الفقراء. أنا الاشتراكي الحقيقي، والقومي الأصيل، والعروبي المثال».

غفا قليلًا أو كثيرًا لم يُحدد. بانت له «ميمي» بقميص فاتن، قبلته في بشبق، قبل أن تخلع عنه قميصه. بدا مُترفعًا وصامدًا لا يصُد أو يرُد، لكنَّ أصابعها واصلت تجوالها فوق جلده، ليشعر برعشات ممتعة تسري في كل أنحاء جسده. اشتم عطرها فواحًا، وهبطت جدائل شعرها فوق وجهه، وانتابته رغبة عارمة في تقبيلها، لكنَّ صوت والده صك أذنيه وهو يصرخ فيه قائلًا: «أنت فاشل. فاشل. فاشل يا ولد».

ركلته قدم غليظة، وسمع مَن يُناديه بوصف يخجل أن يسمعه عن أمه، ورأى رجُلا طويلًا، واسع الصدر، يسحبه سحبًا من معصمه، ليقف على نصف رجل، ثُم يتقبَّل ركلة بين فخذيه يسقط على إثرها، ويقوم مرة أخرى مُستجيبًا، مُسيرًا، مذعورًا، مدفوعًا إلى الخارج، ثُم إلى غُرفة المُحقق. تضاعف ذُعره، وهو يرى بقايا وجه «عبدالقادر»، عندما كان يجرّه على الأرض مارد آخر ليُخرجه من غُرفة التحقيق إلى زنزانته.

***

حبست «سُعاد» أوجاعها في قلبها وكتمت جراح روحها، وهي تجلس أمام «أحمد الناحي» المُحامي في مكتبه المُطل على مشهد السيدة زينب. كان الشيب قد غزا الرأس العجوز، وبدت تجاعيد السبعينيات تجد طريقها إلى وجهه، وعرفت أصابعه ارتعاشات التقدم في السن.

قال لها المُحامي الكبير وهو يُقلب أوراق ملف أمامه:

ــ يا بنتي هذه المرة الأمر يختلف. حسين الآن مُتهم بالتخطيط لقلب نظام الحُكم، وقد اعترف بشكل تفصيلي وأرشد المباحث على مخزن للسلاح في الظاهر، كذلك فقد اعترف شقيقه سعد وابن خالته مدحت، وصديقه عبدالقادر. جميعهم اعترفوا بأنَّه كان يقودهم بالفعل لتنفيذ عمليات اغتيال لعدد من المسئولين أولهم الرئيس عبدالناصر، وآخرهم السفير الأمريكي في القاهرة. والخطير في الأمر أنَّ المباحث الجنائية قبضت على تنظيم آخر للإخوان لقلب نظام الحُكم، وأتصور أنَّ الرد من جانب الدولة سيكون حاسمًا لكلا الطرفين، لذا فقد تم تحويل القضية إلى قاض عسكري اسمه فؤاد الدجوي لا يعرف الرحمة، ولا يقبل الأعذار. إنَّه فقط يقرأ الأحكام التي تأتي إليه من القيادة العامة.

وأضاف هامسًا:

ــ ربما من عبدالناصر نفسه.

انسكبت دمعات ساخنة من عينين بدتا متورمتين من كثرة البُكاء لتسأل «سُعاد»:

ــ يا أستاذ أحمد. هل قرأت تفاصيل القضية جيدا؟ ألا تجد ثغرات يُمكن تخفيف الحُكم من خلالها؟ أنا أعرف أنك أفضل محامٍ في البلد، وأنك أنقذت حسين مرتين من قبل.

هزَّ الرجل رأسه في تأثر، وقال:

ــ قرأت القضية كلمة كلمة. وأعرف أنَّ حسين لم يرتكب شيئًا بعد، لكنَّهم ضبطوا لديه أسلحة وهو اعترف بأنه كان ينتوي اغتيال الرئيس. أعتقد أن القصة شبه مُغلقة، وكُل ما يُمكنني فعله هو إعادة تقديم الشهادات الطبية التي تفيد اختلال القوى العقلية لحسين.

ــ لا.

ساحت «سُعاد»، مُضيفة:

إنَّ ذلك الأمر يقتله قتلًا. حسين ليس مجنونًا. إنه يقول لي أنه لم يؤذ أحدًا هذه المرة. وأنَّه لا يوجد قانون يُحاسب على النوايا.

ابتسم المُحامي الكبير ابتسامة باهتة، ثُم قال:

ـ مَن قال ذلك؟ القانون يُحاسب على النوايا إذا تم إعلانها. وفي الوقت الحالي فإنه يحاسب على النوايا حتى لو تم إخفاؤها. اسمعي يا بنتي.

هزَّت رأسها مُستقبلة لكلماته، فواصل:

ـ لقد اشترى حسين أسلحة من الإسكندرية من سائق مُجند اسمه محمود الشيشيني، وهو الذي وشى بمدحت بعد أن سلمه السلاح. وما جرى بعد ذلك هو أنَّ مدحت وشى بباقي المتهمين ومنهم حسين تحت تأثير الضرب المُبرح. ولا شيء الآن يُمكن عمله سوى التماس العفو، واعتبار حسين شاهد ملك لأنه أدلى ببيانات ومعلومات قادت إلى تنظيم الإخوان المُسلح واعترف على أحمد قبودان ومصطفى راغب، اللذين كشفا أنَّ قائد التنظيم الإخواني هو سيد قطب نفسه. وأتصور أنَّ هذا هو الطريق الوحيد، أن نؤكد نوايا حسين الوطنية، وندمه على ما جرى، وكشفه لأخطر مجموعة إخوانية تستهدف قلب النظام.

ـ هل يُمكن أن نستعين بأحد؟

سألت «سُعاد»، فهزَّ «أحمد الناحي» رأسه قائلًا:

ـ لا أفهم.

فكررت:

ـ هل أذهب إلى السيد أنور السادات؟

ـ رئيس مجلس الأمة؟

ـ نعم.

هزَّ المحامي رأسه مُبتسمًا، وقال:

ـ القضية القديمة. أليس كذلك؟

ـ نعم. لقد كان...

قاطعها بحزم:

ـ أعرف ما كان. لكن اسمعي جيدًا. لا تحاولي ولا تُفكري في هذا الرجل أبدًا. إنَّه لن يُقابلك، وسيعتبرك خطرا عليه، وربما يعتبر حسين يحاول إحراجه أمام الرئيس عبدالناصر. وربما يؤدي ذلك إلى آثار سيئة. ربما يضغط للحكم بالإعدام، أو أي شيء آخر. من الأفضل أن تنسي هذا الأمر تمامًا. مفهوم؟

هزَّت رأسها بالإيجاب، وقامت تسحب قدميها مُفكرة فيما يُخبئه القدر لها. فكَّرت أنَّ براءة زوجها هي الأمل الوحيد لها في هذه الدُنيا. قبل أيام تعرضت لسيل من السباب من خالة زوجها، قبل أن تواصل حماتها وصمها بالبومة، وتتهمها بسرقة أموال «حسين». قالت لنفسها إنَّها تحمّلت ما لا يتحمله إنسان بعد القبض على زوجها، وأنَّه في حال صدور حُكم بالإدانة ستُغادر إلى دمشق، ولن ترجع للأبد.

***

«ومنذ أن تفجرت قوى الثورة وانطلق الشعب في طريق الاستقلال والحرية، واجه حروبًا مسعورة من كل صوب، كما واجه أعداء الشعب في الداخل الذين يتنمرون أملًا في فرصة تسنح لهم في اغتصاب السلطة والقضاء على أبطال الوطن. وهؤلاء تآمروا لتأليب الرجعية وتآمروا لإثارة الذعر والتخريب في الجبهة الداخلية، غير أنَّ إيمان الشعب بالأهداف التي رسمتها الثورة جعلها تخطو في ثبات إلى الأمام». ...

t.me/qurssan

ممثل النيابة يخطب في حماس وعيناه تبثان حقدًا صوب عدد من الرجال الواقفين في القفص، بينما كان «حسين» بينهم يضحك في أعماقه على بلاغة وكيل النيابة، ونفاقه، وانتهازيته.

في قرارة نفسه كان «حسين» موقنًا أنَّ الحُكم صدر مُنذ شهور، وأنَّ كل ما يدور مُجرد تمثيلية سخيفة لوضع إطار شكلي لقرار حبسه. أزعجه أن يتحدث المُحامي مرارًا عن اضطراب شخصيته وعن إصابته بمشكلة عصبية نتيجة مرض ضرب شبكية عينه عندما كان صغيرًا. ودَّ لو يتكلم، ويرُد كلام ذلك الواهن الذي لا يستطيع أن يدافع عن أحد سوى من خلال وصمه بالجنون. رمى نظرة استفهام نحو والدته، ليقرأ في عينيها صلابة وقوة اكتسبتها عبر السنين، ونظر إلى زوجته فوجدها مُنكسرة، دامعة العينين، فقدَّر أنَّ حُزنها ينصب أولًا على الصغيرتين «كوثر» و«وفاء» لأنهما حُرمتا عائلهما ووالدهما فجأة. قال في تسليم إنَّه لم يمنحهما ما تستحقانه من عناية واهتمام.

واصل ممثل النيابة خطابه قائلًا: «إنَّ القضية المعروضة على حضراتكم اليوم ليست قضية حسين توفيق ورفاقه فحسب، بقدر ما هي قضية شعب بأسره.. صنع ثورته التي حققت له رصيدًا متجددًا من المكاسب والانتصارات، وهو اليوم يناشدكم القصاص من هذه العصبة الآثمة التي تريد أن تنقض على مكاسبه، وتقوض دعائم ثورته. لقد كانوا يسعون من جحورهم إلى بلبلة الأفكار، وإحداث فتنة دامية في البلاد، كانت ستصيبه في الصميم لولا عناية الله، ويقظة القائمين على الأمر. ولولا الإيمان المتأصل في الشعب بثورته وقائده».

ابتسم «حسين» ساخرًا وهو يُردد في سره «الآن صارت قضية حسين ورفاقه هي قضية الشعب بأسره. آه أيها الشعب المسكين. كم من الطُغاة يتحدثون باسمك». فكَّر في كلام الرجل وتساءل: كيف يُغير الناس المُسميات بكل هذه السهولة؟ كيف يعتدون على الذاكرة

t.me/qurssan

بهذه البساطة؟ لقد تغير اسم الانقلاب العسكري إلى حركة مُباركة، ثُم أصبح الآن ثورة. استمع للمُحامين عن زُملائه واحدا تلو الآخر قالوا كلامًا مُكررا، كُله ذُل واستعطاف. نظر إلى القاضي، وقرأ في عينيه الحُكم قبل أن ينطق به. قال لنفسه إن سيادة القاضي الفريق أول عرفه الناس مُنهزمًا في حرب السويس سنة 56 عندما استسلم كحاكم على غزة للإسرائيليين، قرأ في وجهه أنَّ الحُكم أن يُسجن مؤبدًا، لأنْ «عبدالناصر» سيمنحه أعلى عقوبة ليستريح من خطره في الوقت نفسه فإنه لا يُمكن أن يأمر بإعدامه، خاصة أنَّه لم يُطلق رصاصة واحدة. وقدَّر أنَّ «عبدالقادر» و«مدحت» و«سعيد» سيلحقون به، وربما يُحكم على «محمود موسى» الضابط السابق بالسجن ثلاث أو خمس سنوات، وسيخرج «سيد» براءة لأنَّه دخل القضية خطأ بعد أن وجد رجال المباحث اسمه في أوراق «سعيد» الخاصة.

تذكر كيف عُلِّق يومين مُتتاليين من معصميه ليقر بأسماء كُل من يعرف شيئا عن التنظيم، ثُم حرموه من الماء والسجائر عدة أيام حتى باح لهم بنواياه وخططه وأفكاره بطريقة مُرتبة. ووصل به الأمر أن شرح لهم طريقة تصنيع الديناميت التي عرفها في سوريا من خلال تحضير مادة النيتروجلسرين وتجهيزها يدويًا. ابتسم عندما لمح أحد زُملائه بالشركة ضمن الحضور، وقال لنفسه إنَّه لابد جاء للفُرجة.

نطق القاضي العسكري بالحُكم، وخُيِّل له أنَّه لم يسمعه، لكنه لمح دموعًا مُنحدرة على خدي «سُعاد»، وسمع نحيبها، بينما لاحت ابتسامة تشفٍ على شفتي زميله، الذي لم يعُد يذكر اسمه. ابتسم ساخرًا، ثُم سار صامتًا بين بقية المتهمين، بينما شلَّ الوجوم ملامح «سعيد» و«مدحت» و«عبدالقادر». ومضى هو في لامبالاة نحو عقوبة لجُرم لم يرتكبه.

***

t.me/qurssan

قالـت «سُـعاد» لـ«فاطمـة» إنّهـا لا تسـتطيع البقـاء بابنتيهـا في هـذه الظروف، وأنّها قـررت السـفر إلى دمشـق للعيـش هُنـاك. كانـت صريحـة وواضحـة، وهـي تُخـبر شـقيقتها أنّهـا لـم تعُـد تُبـادل «حسـين» أي مشـاعر محبـة، بعـد أن شـعرت أنـه مسـئول عمـا وصـل إليـه. أكـدت لـ«فاطمـة» أيضـا أنّ نظـرات الكراهيـة والحقـد المُنبعثـة من عيـني حماتها قـد تُصيـب البنتـين بالجنـون والتطـرف والحـدة الشـبيهة لتلـك السـاكنة بـرأس «حسـين». قبّلـت أختهـا المودعـة بعـد أن حزمـت حقائبهـا، وسـافرت مُقسـمة أنّهـا لـن ترجـع إلى هـذا البلـد أبـدًا. لـن تطلـب الطلاق، لكنّهـا لـن تعـود لزوجهـا الـذي منحتـه حُبّـا فأجابهـا جفـاءً، وأعطتـه قلبهـا، فمنعهـا حُبـه، وقدمـت لـه الطاعـة، فـأبى أن يُهـيئ لهـا الراحـة والطمأنينـة. سـتعيش في شـقة أبيهـا الصغـيرة بحـي الصالحيـة إلى جـوار ضريـح مُحـيي الديـن بـن عـربي، وسـتعمل أي عمـل بسـيط يضمـن لهـا لُقمـة شريفـة وحيـاة هادئـة، وتربيـة سـليمة لزهرتـين جميلتـين. اقتنعـت سـعاد نهائيـا بأنـه لا مجـد في القمـر، ولا مُتعـة في التفاعـل مـع الأحـداث كمـا كان يُـردد «حسـين» عـلى الـدوام، وأنـه ليـس أجمـل مـن ابتسـامة بنـت صغـيرة وهـي تحـاول نُطـق الكلمـات الصعبـة، ليـس أجمـل مـن شـفتين رقيقتـين تنطقـان كلمـة «مامـا».

في دمشـق طاردهـا الخـوف في ظـل الاضطـراب الدائـم المُصاحـب للانقلابـات العسـكرية الـتي صـارت عنوانًـا لافتـا للبـلاد. سـعت «سُـعاد» بعـد التحاقهـا بوظيفـة ملاحظـة عاملات بأحـد مصانـع الملابـس أن تُجنّب بناتهـا أحاديـث السياسـة وحكايـات الزميـلات عـن الصراعـات الشرسـة بـين الإخـوان والبعثيـين. وبعـد شـهور قليلـة مـن وصولهـا وقطعهـا لـكل الصـلات بالقاهـرة قامـت حركـة مُباغتـة مـن بعـض العسـكريين لتسـتولي عـلى الحُكـم وتتهـم البعثيـين بالتآمـر وتسـجن عـددا منهـم. وشـعرت «سُـعاد» لأول مـرة بصحـة مـا كان يـراه شـقيقها «عـاصي» في بـلاد العـرب وفي حُكوماتهـم وحـتى في «حسـين» نفسـه. قالـت لنفسـها يومًـا إنّ انقطـاع شـقيقها عنهـا طـال كثـيرًا، لكنّهـا تعـرف كيـف تصـل إليـه، كيـف تُراسـله،

t.me/qurssan

وتُحادثـه، ثُـم تلتقيـه، وتحتضنـه. تذكـرت أنَّ لـه صديقًـا مُقربًـا يعمـل في سـوق الحميديـة وقـدرت أنَّـه لابـد مـا زال عـلى اتصـال بـه، لـذا فقـد مـرَّت عليـه يومـا لتسـأله، فبـدا سـعيدًا برؤيتهـا، واسـتفسر عـن أحوالهـا وأحـوال أسرتهـا، فطمأنتـه، وفاجأهـا قولـه إنَّ «عـاصي» اختفـى تمامًـا عندمـا سـافر بصُحبـة فتـاة فرنسـية مـن لبنـان إلى فرنسـا قبـل ثـلاث سـنوات، وأنـه لـم يعـد يتصـل بـه أو يبعـث إليـه بـأي رسـائل. وبعـد أن غـادرت، قليـلًا جـرى خلفهـا ليلحـق بهـا وهـو يقـول «إنَّ عـاصي لابـد سـيتصل بـه يومًـا ولابـد سـيعود إلى دمشـق».

ولسـنوات طالـت نجحـت «سُـعاد» في التكيّـف مـع الوحـدة، والاعتمـاد عـلى الـذات، وأغلقـت نوافـذ المـاضي ناسـية أحـزان القاهـرة، وراسـمة لابنتيهـا طريقًـا للتميـز والتعلُـم والتربيـة الرشـيدة، بعيـدًا عـن كُل مـا يُعكـر صفـو الحيـاة، لكـن «عـاصي» لـم يعُـد، ولـم تُخبرهـا «فاطمـة» بخـروج والـد طفلتيهـا في عفـو رئـاسى في أي مـن أعيـاد الثـورة.

***

تأقلـم «حسـين» سريعًـا عـلى حيـاة السـجن، اعتـاد الاسـتيقاظ مُبكـرًا، والوقـوف في طابـور الصبـاح ثـم الخـروج إلى الجبـل، وتكسـير الحجـارة. كان الأمـر يتـم في البدايـة تحـت ضربـات الشـوم وسـباب النُزلاء بـالأب والأم، ثُـم تحسـن الأمـر رويـدًا مـع قـدوم مأمـور جديـد أكـثر إنسـانية، إذ أوقـف الـضرب واكتفـى بالشـتائم. وصـار أكـثر مـا يوجـع «حسـين» حينئـذ هُتافـه اليومـي بحيـاة البـلاد وبحيـاة قائدهـا وزعيمهـا «جمـال عبدالنـاصر»، فضـلًا عـن ترديـده لأناشـيد «اللـه أكـبر فـوق كيـد المُعتـدي» و«وطـني حبيـبي» مـرارًا أمـام الحـرس والضبـاط. كان الطعـام يسـمونه «اليمـك» عبـارة عـن خليـط عجيـب مـن الحسـاء والخـضروات الكاملـة الـتي يتجرَّعهـا المُذنبـون كرهًـا لسـد الجـوع، بينمـا تميَّـز الفـول

المُقدم في وجبة الإفطار بكثرة السوس، وهو ما اعتادته معدات سُجناء السياسة سريعًا.

في العنبر تكوّم «حسين» مع ثلاثين سجينًا، إخوان، وشيوعيين، ورجعيين، وضباط عُصاة، فضلا عن بعض المساجين الجنائيين المدانين في قضايا سرقة أو احتيال. وامتدَّ العنبر على هيئة مستطيل بطول عشرة أمتار وعرض خمسة أمتار، وتتخللت جُدرانه ثماني نوافذ صغيرة، يتسرب من قضبانها بعض الهواء، بينما توزَّعت أبراش النُزلاء في صفين بطول العنبر.

طرد «حسين» من رأسه أي أفكار كانت تراوده حول الهرب، خاصة أنَّ العُمر امتد، والنظام الأمني اختلف، ووسائل الحراسة صارت أكثر تقدمًا. استمع الرجل لحكايات شتى من سُجناء مُجرمين، ومظاليم، بعضها أوجع قلبه، والبعض الآخر هوّن عليه ما يحياه. قصَّ عليه البعض كيف كانوا يُضربون كُل يوم قبل الإفطار، ويُدفعون دفعا للاعتراف بنسويتهم ليقول كلا منهم «أنا امرأة» أمام الشاويش كي لا يُشبعه ضربًا.

ـ تحسنت الأحوال كثيرا.

قالها أحد السُجناء لـ«حسين» عندما كان يشكو من غباء الحُراس وساديتهم.

كان «حسين» يقول لمَن حوله إنَّه يدفع هذه المرة ثمن أفعال سابقة، وأنَّه ضحية غدر الذين اختطفوا ثورته. في يوم قابل مُدرسا وفديا مُسنا قُبض عليه بتهمة السير في جنازة «مُصطفى النحاس»، وسأله الرجل إن كان حاول بالفعل قتل النحاس باشا قبل «أمين عُثمان»، فردَّ «حسين» بالإيجاب، لكنه حمد الله على فشل المحاولة، مؤكدًا أنَّ «النحاس باشا» رغم ما لديه من مكر وبلاغة أشرف كثيرًا من هؤلاء الذين يُعلقون زُملاءهم في السلاح، ويضربون أصدقاءهم ويسومونهم سوء العذاب.

t.me/qurssan

واستمع «حسين» من بعض السُجناء لحكاية موت «شُهدي عطية» ضربًا وهو يهتف بحياة «جمال عبدالناصر»، وكان الحاكي مفتونًا بالزعيم وما أحدثه من تغيير اجتماعي كبير، مؤكدا أنَّه مثل «شهدي» لا يلتفت لتعرضه للظلم من القائد، مادام ذلك القائد أنصف الفقراء وبدّل أحوالهم. وردَّ «حسين» عليه بأنَّه من المُخدرين الذين يسيرون خلف تاجر الشعارات مُنسحقين بلا تفكر أو تدبر.

وحكى له سجين من الإخوان كيف تعرَّضوا للقتل في زنزاناتهم بعد خلافهم مع الثورة، حتى أنَّ عساكر ليمان طُرة كانوا يطلقون النار عليهم داخل الزنزانات، فقال له «حسين» بغل:

ـــ أنتم تستحقون. تستحقون كُل ذلك وأكثر لأنَّكم قبلتم بالتحالف مع عبدالناصر ضد جميع القوى السياسية وتجاهلتم مصالح البلاد فالتفت إليكم بعد أن خلصتموه من الشيوعيين والوفديين.

كان «حسين» يشعر أنَّ خبرات السنين صبّت في رأسه قُدرة على استيعاب حوادث التاريخ وتحولاته، وفكَّر كثيرًا لو عاد به الزمن مرة أخرى لاختار دروبًا مختلفة. كان سيحب بصدق، وسيقرأ بُعمق، وسيشاهد السينما مثل «نجيب»، ويهتم بالموسيقى مثل «سناء»، وسيكمل تعليمه مثل «محمود مراد» و«إبراهيم كامل»، وسيتزوج وينشئ أسرة طيبة يمنحها عنايته ورعايته.

في السجن اقترب «حسين» أكثر من شقيقه، «سعيد»، وشعر أنَّه ضحيته لأنَّه كان دائمًا منساقًا خلفه، بلا اختيار أو قرار، ربما لأنَّه كان ينظر له دائمًا باعتباره أبًا لا أخًا أكبر. كان يراه مُرشدًا، ومُعلمًا، وجديرًا بالقيادة. لقد وجد «سعيد» في شقيقه الصاحب الأمين، والراعي المُحب القادر على استيعاب اندفاعاته، وتفهُم آلامه، خاصة أنَّ والده كان بعيدًا، مُنشغلًا، بينما كانت والدته مختلفة لأنها تركية. نفس الأمر كان ابن خالته «مدحت» الذي كان مولعًا مُنذ صغره بالمغامرات، مغرمًا بالتنقل بين المخاطر. أما «عبدالقادر»

فبدا لـ«حسين» أكثر طيبة مما كان يتخيل، واندهش كيف كان هذا التابع البسيط يقتل الإنجليز في الإسكندرية.

انقطعت الزيارات عن «حسين» وشقيقه، واستبدلت بها خطابات من الأم التي كان واضحًا اعتلال صحتها. كانت السيدة «سميرة» تحمل على «سُعاد» لأنَّها هربت بطفلتيها إلى دمشق، ومنعت البنتين من زيارة أبيهما. لقد اتهمتها سعاد» بسرقة آخر راتب له بالشركة، ثُم قامت بإرسال خطاب استعطاف إلى رئيس الجمهورية ليصرف لها معاشًا بعد قرار الفصل من الشركة. ورغم التحريض الذي توالى في خطابات الأم تجاه «سعاد»، والذي وصل إلى حد الطلب من «حسين» أن يطلقها، فإنه كان يشعر في قرارة نفسه بأنَّه أوجعها كثيرًا وأنها تحملت معه ما لا يمكن احتماله. وكان مُقتنعا تمامًا بأن قرارها بالسفر بالبنتين إلى دمشق كان أمرًا صائبًا. لم يكن يعلم أي أخبار عن «سُعاد»، لكنه كان يعرف فقط من «عبدالقادر» الذي تزوره «فاطمة» على فترات متباعدة أنَّ «سعاد» والبنتين بخير.

مرَّت السنون سريعة كعربات قطار مجري يحمل ركابه من محطة إلى أخرى. في كل وقفة يهبط البعض، ويصعد آخرون، ويواصل القطار رحلته دون عُطل أو خروج عن القضبان. أُعدم «سيد قطب» واثنان من زُملائه في القضية التي كشفت أول خيوطها اعترافات «حسين توفيق». وشعر «حسين» بمرارة أن يتسبب في شنق أحد، لكنَّه عاد واقتنع أنَّ الثورة كانت تنتوي تقديم أحد رجال الإخوان للموت، لكنَّها كانت تبحث عن مُبرر منطقي. حوكم الصحفي «مُصطفى أمين» في العام نفسه وصدر حُكم بالسجن المؤبد عليه في قضية تخابر مع أمريكا، رحل المطرب والموسيقار «محمد فوزي» موجوعًا بتأميم شركاته الفنية، ومات المؤرخ «عبدالرحمن الرافعي»، وارتكبت القوات الأمريكية مذبحة دامية في فيتنام، في الوقت الذي احتفلت فيه دور العرض المصرية بفيلم «أخطر رجل في العالم» لـ«فؤاد

المهندس» و«شويكار».

كان «حسين» يتعرف على الأنباء من خلال الدردشة مع الحرس والعساكر، الذين اعتادوا مع الوقت، وبقشيش الأهل أن يعاملوه كزعيم سياسي سابق. كانوا يأتون إليه ليستطلعوا رأيه فيما يحدث، ويسألونه كخبير عما يتوقع. ولما اضطربت الأحوال في خليج العقبة، وأصدر الرئيس «جمال عبدالناصر» قراره بسحب القوات الدولية من سيناء، قال «حسين» للعساكر إنَّ الحرب صارت وشيكة. وحتى عندما قامت الحرب، لم يشعر «حسين» بالصدمة لأنباء الهزيمة، ولم يستغرب أن تدك الطائرات الإسرائيلية مطارات مصر ومواقعها الحربية في ساعات معدودات، لكنَّه شعر بالصدمة لخروج الناس رافضين تنحي «عبدالناصر «عن الحكم، ومُهدرين عليه الفرصة للخروج من سجن النسيان. ولم تمُر أيام قليلة على الهزيمة حتى رأى السجناء كبار الضباط والمسئولين وبعض المُحققين معهم إلى جوارهم في السجن ذاته، وقتها ضحك «حسين» لأول مرة من قلبه.

***

ماتت السيدة «سميرة». «أركان حياتك تنقض واحدة خلف الأخرى». سمع «حسين» همسًا روحيًا يتردد في أذنيه، وقال إنَّه يفقد كثيرًا ممن حوله بسرعة ويسر. في الغُربة رحل الرجل المُهيب ذو الطلة الصارمة، الذي كان سندًا له رغم قسوته، وفي الحبس مات الابن قبل أن يراه زاحفًا، ودون أن يسمع منه كلمة «بابا»، ثُم فرت «سُعاد» سيدة القلب ومعها أمله الوحيد، وحسناته القليلة كوثر ووفاء، وها هي السيدة الكبيرة تُغادر، دون أن يقول لها: وداعًا.

في المرآة رأى وجهه فأنكره، غيَّر الشعر المُسترسل موطنه بعد أن تبدل لونه، وبرزت العينان جحوظًا، وغامت الرؤية كثيرًا، وأحاطت

الهالات السوداء حدقتيه، وترك الزمن بصماته تجعيدا على جلده. ظنّ «حسين» أنه يُطالع شخصًا آخر، لا يعرفه، وتيقن أنّ قطار العُمر قطع أكثر من نصف الطريق أسرع مما كان يتوقع. في السجن علم «حسين» أنّ الأيام والسنين مُجرد مشاهد للحظات محبّة أو كراهية يخفت بريقها يومًا بعد يوم في خلايا الذاكرة.

رأى في إحدى الزيارات «ميمي»، فاتنة المعادي في زيارة لزوجها. كان «محمود موسى» قد قاطعه تماما مثلما فعل «مصطفى راغب» الذي سيق للحبس بلا جريرة. لم يُصدق «حسين» عينيه وهو يُشاهد كُتلة لحم مُنتفخ، فقدت كل معاني الرقة والجمال. كانت السيدة السمينة تُغطي رأسها بطاقية من الصوف، بينما أخفت عينيها بنظارتين سوداوين، وبدت ملابسها ضيقة على جسد فقد امتشاقه. هل هذه ميمي؟ سأل نفسه قبل أن تمنحه نظرة احتقار، تعاطفًا مع شعور طاغ لدى زوجها بالكراهية تجاهه جزاء وشيه به، وسحبه معه إلى السجن. تذكر أيامًا خلت كان فيها فارسها، وفتاها، وملاذ رضاها. وقتها، كانت تحتضنه بحب، وتُقبله بشوق، وتبثه لوعتها ولهفتها، كانت تستمع لكل ما يبوح به، وتُثني على ما يقوله، وتُوافقه في الرأي، وتشاركه في الآمال والأمنيات. أما الآن، فهي تلومه دون أن تنطق، وتعاتبه بعدم الاكتراث، وتنتقم منه بالتجاهل. كأنه لا شيء. لا شيء البتة. لم تعد «ميمي» «ميمي»، لم تعد البنت الفاتنة، المبهرة، الجذّابة. لقد تحولت مع الزمن إلى بقايا أنثى.

مثلها في ظنّه مثل «سناء» التي قالت لخالته في زيارة أخيرة بصحبة ابن خالته وزوجها «نجيب» أنّها تُشفق على «حسين» لأنّه اعتاد أن يؤذي نفسه، قبل أن يؤذي مَن هم حوله. اغتاظ أن يسمع ذلك، فهو لا يقبل شفقة شافق أو عطف عاطف. إنّ أقصى ما يُمكن أن يُعذّب به رجل هو أن تُشعره بالضعف، والصَّغار، أن تُفتته إلى جُزيئات صغيرة، أن تُحوله إلى كائن يحتاج المُساعدة، أن يخاف، أن

يقلق، أن يبكي. «لن أفعلها حتى الموت. لن أبكي يا سناء. ولا أر... شفقتك» قالها مرارًا، وهو يتلقى ضربات القدر واحدة تلو أخرى.

كان مَن حوله مثله، ينقلبون من الغبطة إلى الانقباض، ويمضو... أيامهم بين الندم والسرور. «سعيد» كان يشعر بأنَّه خسر كُل شيء، بينما كان «مدحت» يعتبر ما جرى له أشبه بكبوة جواد لابد سيقوم منها. أما «عبدالقادر» فكان صامتًا كحجر، يؤسًا كصحراء، لا يُبدي أسفًا، ولا يشارك برأي، ولا يكترث لخبر.

مات «جمال عبدالناصر» فجأة. اختنق القلب المُتخم بهمومه، ذُبح بردًا بسيف الظروف والحوادث والنكسات. بكاه الناس عطفًا، وبكاه آخرون حُبًا، وشمت شامتون وما أكثرهم، كان من بينهم السجين رقم 1135 الذي أسمته الصُحف بالإرهابي «حسين توفيق»، ونشر... عنه الأكاذيب حول مؤامراته وتحالفه مع أعداء الوطن. أي وطن يتحدث عنه هؤلاء الكذبة الذين اختطفوا الثورة وخدروا الناس، وسلبوا الممتلكات وحازوا النفوذ! أي بلد صار فيه الكذبة حُكامًا، والقتلة رجال أمن، واللصوص بُناة مجده! أي إرهاب أصعب من إلقاء زُملاء النضال في السجن وتخوينهم وتشويههم وإلصاق كل خطيئة بهم! هكذا تساءل وهو يُفكر في وميض الأمل عندما علم بتولي «أنور السادات» رئاسة الجمهورية.

***

«سيادة الرئيس..

أكتب إليك رسالتي الثالثة. من جوف بئر يوسف الذي ألقيت فيه ظُلمًا وافتراء، في ظل سيادة مراكز القوى وتحكم الأشرار في الثورة وتسلطهم عليها. لقد كتبت إليك يوم توليك، وأيقنت أنَّ أمامك معركة حاسمة مع ذيول «عبدالناصر» وخدمه، الذين تحولوا ...

عهده إلى مراكز قوى قاهرة، لذا فقد عذرت سكوتك وقتها. ثُم كتبت إليك مرة ثانية بعد أن هدمت المُعتقلات، وأحرقت شرائط التنصت، وبشّرت بعهد حُرية وعهد بناء لكنك لم ترُد أيضًا، مما أوقعني في غمٍ وزاد من حيرتي، ودفعني أن أقرر أن أكتب لك الآن للمرة الأخيرة.

سيادة الرئيس..

لن أستجديك، ولن أستغيث بك، ولن أسألك الإنصاف، فأنت تعرف يقينًا أنَّني هُنا في مكاني، وأنت في مكانك لأنَّ القدر اختار لنا ذلك، وكان يُمكن أن تكون مكاني وأكون أنا مكانك، ووقتها لم أكن لأترك زميلًا في النضال، ورفيقًا في السلاح مُقيد السراح إلى جوار اللصوص والقتلة والمُجرمين.

أنت تعرف يقينًا أنَّ القضية التي حوكمت فيها كانت مُلفقة، ويشهد الله أنَّني لم أطلق رصاصة واحدة ولم أؤذ أحدًا، ولكنَّ سدنة الطغيان صوروني كشيطان، ووصموني بكُل نقيصة، ليرموا بي خلف القضبان، فهجرتني أسرتي، وتباعد عني الأصحاب، وهابني الأقارب، وأُهنت وضُربت وقاربت الموت، لكن إرادة الله شاءت لي المقاومة والثبات. لقد كتبت عني الصُحف أنني إرهابي ومجنون وباحث عن شهرة، وشوَّهت تاريخي، وطمست نضالي الذي كنت أنت شريكا لي فيه. وكأنَّهم أرادوا أن يلوثوا تاريخك، ويوغروا صدر قادة الثورة عليك.

أخي العزيز..

اسمح لي أن أحذف الحواجز بيننا مثلما كانت قبل ثلاثين عامًا. إنَّك تعرف تمامًا أنَّني لا أبغي سوى المجد لموطني والحرية لأبنائها، ولم أكن يوما عدوا للناس أو مُخربًا للمجتمع كما زعموا. نعم كُنت مُندفعًا، كُنت ثائرًا، ومُتحمسًا للتضحية والفداء، ورُبما أخطأت مرة، وأصبت أخرى، لكنني لم أخدع، ولم أغش، ولم أخُن. كُنت

واضحًا كالشمس، لا أتلون مع مَن تلون، ولا أبدل مبدأ أو رأيا، ولا أقول سوى ما أؤمن به.

عندما قُلت لي أنَّ قتل الإنجليز لا يُجدي وأنَّ قتل الخونة أولى وألم، آمنت وأمنت، وعندما أخبرتني أنَّ «مصطفى النحاس» مُخادع ومنا، ويلعب بعواطف الناس صدقت ووافقت، ولما حكمت بأنَّه يستح، الموت أيدت الحُكم، وكُنت يدك الباطشة، ثُم جرى الأمر نفس، مع «أمين عثمان» وشعرت بالبهجة والرضا وهو يلفظ روحه أمام، لأنَّني كُنت أنفذ إرادة الوطن. كُنا معًا ضد الخونة، وضد العُملا، وضد الفاسدين، ولا يصح أبدا أن تفترق بنا الدروب، فتلقي واحدًا في الجنة وواحدًا في الجحيم».

طوى الرئيس «أنور السادات» الخطاب المُرسل إليه عبر أحد الأصدقاء القُدامى الذي صار يعمل رجل أعمال، ثُم نظر لمُدير مكتبه، وسأله وهو يضغط على كل كلمة:

ــ قُل لي بالله عليك. ماذا تفعل إن كُنت مشغولًا بأمرٍ مصيري، ورأسك مُنغمس فيه ليل نهار، تُفكر فيه، وتُحلل، وتُناقش الناس، وترسم سيناريوهات، وتضع خططًا، وجاء إليك ولد كان يلعب معك في الماضي وأنت صغير، وقال لك كُنا كذا، وكُنا كذا، وكُنا....؟ ها ماذا تفعل؟

سكت مُدير مكتب الرئيس برهة، مفكرًا قبل أن يقول:

ـ سأعتبر أنني لم أسمع شيئًا.

هزَّ الرئيس رأسه مُبتسمًا، وقال:

ــ تماما.. تماما، وهذا ما سأفعله. أعد هذا الخطاب مرة أخرى إلى مرسله، وقُل له إنَّ الرئيس مُنشغل جدا، وتعذَّر عرضه عليه، وأن الأفضل أن تعرضه بنفسك عليه عندما تلتقي به.

ــ مفهوم. سيادة الرئيس.

هـزَّ مديـر المكتـب رأسـه، وانـصرف، لتنفتـح في ذاكـرة الرجـل الـذي صار حاكمـا لوطـن ذاب حُبـا فيـه نافـذة رحبـة عـلى المـاضي المُنـصرم، مُـستعيدًا تنظيمـات لا عـدد لهـا انضـم إليهـا وانفصـل، وخلايـا سريـة وضـع لهـا مُخططـات وأمدهـا بالسـلاح، وإخـوان حالفهـم ثُـم خالفهـم، وشـيوعيين اقـترب منهـم وانقلـب عليهـم، وضبـاط أحـرار سـار معهـم، ومـع غيرهـم، وأصدقـاء خسرهـم، وأعـداء وقـف إلى جوارهـم. تلـك هـي السياسـة، أجمـل مـا في الوجـود. قالهـا لنفسـه، قبـل أن يُشـعل غليونـه العاجـي، ويسـعل سـعلة خفيفـة أعقبتهـا ابتسـامة رضـا.

***

زحفـت النهايـات رويـدًا. انفتـح بـاب الزنزانـة بعـد تجاهـل وتسـويف ومماطـلات. لـم يُصـدق «حسـين» مأمـور السـجن عندمـا اسـتدعاه مُقدمًـا لـه منـدوب رئاسـة الجمهوريـة الـذي كان يحمـل قـرارا جمهوريـا بالعفـو الصحـي، وابتسـامة دبلوماسـية بـاردة.

آه يـا «سـادات» تذكـرت أخـيرًا صديقـك القديـم، رُبمـا مـرَّت برأسـك ذكـرى لقـاء قيسـون، واجتماعـات الغُـرف الضيقـة، ونقاشـات مواجهـة الخونـة. ربمـا تذكـرت زمالـة الحبـس، واتفاقـات إفسـاد التُهـم، وإتـلاف أدلـة واسـتنتاجات البوليـس السـياسي. ربمـا انتابـك الحنـين لصُحبـة جـروبي السـاخطة عـلى الساسـة والأحـوال والمُجتمـع. تأخـرت كثـيرًا. قالهـا «حسـين» في سُره وهـو يسـتمع لمنـدوب الرئاسـة يخـبره أنَّ الإفـراج عنـه تأجـل عـدة مـرات بسـبب مؤامـرة مراكـز القـوى، ثُـم الإعـداد للحـرب، ثُـم مفاوضـات إطـلاق النـار.

عـشر سـنوات في الجحيـم، وهـا هـو البـاب ينفتـح، لكـن مـتى؟ بعـد أن صـار بقايـا إنسـان، ونصـف مواطـن، وشـظايا بطـل؟ بعـد أن هجرتـه أسرتـه وتجنبـه أقاربـه وهـرب منـه الأصدقـاء واحـدًا تلـو الآخـر؟ بعـد أن

استوطنت داخله الآلام وأصابه الكبر، ونثرت الشيخوخة بذورها في جسده؟ تأخرت كثيرًا يا «حاج محمد». لكن عظيم أنَّك لم تبع، ولم تتنكر، ولم تمح ماضيك تمامًا. مازال لديك بعض الشهامة وبعض الوفاء. قالها دون أن ينبس بكلمة، وهو يلحظ على غير المُعتاد أدب مأمور الليمان وهو يتحدث إليه. سأل نفسه مُتعجبًا ما أسرع تلون الناس وما أبسط انقلاباتهم! الأشرار يُصبحون أخيارًا في لمح البصر، ما دامت اللياقة تستلزم ذلك.

اشتم «حسين» هواء الصباح لأول مرة دون أن يمُر عبر أسلاك شائكة تُحيط سجنًا مُنعزلًا مُمتلئًا بالمآسي والأحزان. امتدت خطواته تدوس باستمتاع على أسفلت الطريق مُنتظرًا سيارة أجرة تقله حيث البيت الكبير، والذكريات المرصوصة في تصاوير الماضي. تذكر المُصافحة الأخيرة بينه وبين «عبدالقادر»، الذي أخبره أنَّه سيغادر إلى الإسكندرية دون رجعة أبدًا، وشعر بغُصة أن يرفض «مدحت» و«سعيد» وداعه رغم وعوده لهما بسرعة إنهاء قرار العفو عنهما. كانا صامتين كباب العنبر في هدأة الليل البهيم.

حاول «حسين» أن يستذكر وجوه زوجته، ابنتيه، زُملائه في العمل دون أن ينجح في تحديد ملامح الغائبين بدقة. شعر بثقل خطواته، وتراءت له مشاهد السيارات المارة مموهة، مُقدرًا أنَّه فقد كثيرًا من اتزانه بفعل أمراض لا يعرفها وترسبات فشل في مقاومتها طوال سنوات الحبس. ركب في إحدى السيارات المُتجهة إلى رمسيس مُتلذذًا بالاستماع لأحاديث الناس الصاخبة، عن غلاء الأسعار، والفساد، والثراء السريع للمقربين والواصلين إلى السُلطة.

ـ الآن الرشوة أصبحت جهارًا نهارًا ولا يُمكن إنهاء عمل دون دفع.

قال أحد الجالسين مُخاطبًا آخر يركب إلى جواره:

ـ الأسعار نار وكيلو اللحم بـ 60 قرشًا ومرتبات الموظفين لا تتغير.

ردَّد راكب آخر ليسمع تعليقًا حازمًا:

t.me/qurssan

ـ أي شاب الآن يرفض أن يعمل موظفًا بعشرين أو ثلاثين جنيهًا، ويذهب إلى بورسعيد ليعمل في التجارة ويكسب أكثر من مائة جنيه بأقل مجهود.

ـ السادات قال إنَّ مَن يطلب الثراء في عهدي سيُصبح ثريًا.

أي «سادات» هذا؟ سأل «حسين» نفسه مُستنكرًا. ما بال الناس تغيروا بهذه الحدّة؟ ما بال أحاديثهم تناست ما يجري في سوريا، والجزائر وفلسطين! ما بالهم لا يفكرون إلا في الصفقات والأموال وأكل العيش!

هزَّ رأسه مُتحسرًا وقال لنفسه: لا عليك. لا تهتم. أنت الآن: لا شيء. لا تاريخ، ولا بطولات، ولا أحلام بالزعامة. لا نصر ولا ثورة ولا استقلال. الناس تعبد المال، وكل المبادئ والشعارات الفضفاضة صارت جنونًا وإرهابًا. «إبراهيم كامل» أصبح سفيرًا في السويد ومُرشحًا لتولي وزارة الخارجية، و«سيد خميس» يُعد من رواد الإعلام، و«محمود مراد» صار أحد أكبر المقاولين. أما أنت فمازلت تبحث عن نفسك. آه آه يا زمن.

شعر بنغزات مُتكررة في صدره، ولاحظ أنَّ أصابعه تُصدر ارتعاشات واضحة، عندما استعاد ذكرى ضربه بسوط مُبلل بالزيت في الأيام الأولى للقبض عليه. قال لنفسه إنَّه لن يسترد «حسين توفيق» إلا عندما يسترد أسرته، وتعود زوجته وابنتاه من دمشق. فكَّر أنَّ «سُعاد» ستغفر له، وستفتح ذراعيها لتحتضنه، وستبدأ من جديد حياتهما المُنتقصة. إنَّه يعرفها جيدًا ويعلم أن قلبها رقيق، وطيب، ويحمل من الحُب ما يفيض على المُحيطين. تذكر وجهها الرقيق وعينيها الساحرتين، ليسأل نفسه إن كانت لا تزال تحتفظ بأنوثتها بعد تلك السنوات الطويلة، ثُم أجاب بأنها حتى لو كانت، فإنه لم يعد قادرًا على النهل من تلك الأنوثة. ليس أجمل من ابتسامة حقيقية ترتسم على وجهها. قالها في سرّه وهو يهبط من السيارة ليسير مُترجلًا

في شوارع وسط البلد. نظر إلى البنايات العالية، ولاحظ أنها لم تتغير رغم السنين، لكن وجوه الناس هي التي بدت مُتغيرة، حيث غابت تمامًا مسحة الطيبة، وابتسامة الرضا من فوق الوجوه. تابع بعينين غريبتين مشاهد البيع والشراء والزحام من الناس أمام المحلات التي صارت ملأى بالسلع الأجنبية. مرَّ بميدان الأوبرا، وتذكر كيف ألقى قُنبلة خلفه ليخيف مطارديه يوم قتل «أمين عثمان». استعاد مشهد إطلاقه الرصاص على جندي بريطاني كان يعبر في شارع فؤاد في إحدى الليالي. رمى جروبي بنظرة ذكرى لتمر بخاطره ذكرى حسناوات نجيب الـلائي كان يقابلهن فيه. آلامريكان، سينما مترو، والتابعي، والبار اليوناني، كُلها شاهدة على عُمر من المشاغبة، وحيوات من المخاطرة، وحكايات من ألف ليلة وليلة.

ركب المترو إلى مصر الجديدة، واستعاد حديث مندوب الرئاسة، متوقعًا لقاء حارًا وودودًا مع رئيس الجمهورية. قال لنفسه إنَّه الصديق «أنور السادات» وليس الرئيس. نظر إلى الناس حوله، مُستغربًا كيف لم يعرفه أحدهم حتى الآن؟ تساءل إن كانت ملامحه قد تغيرت إلى حد أن ينكره الناس؟ ألم يكُن مطلوبًا ومطاردًا ومقدرًا بخمسة آلاف جنيه قبل ثلاثين عامًا؟ ما بال الناس سريعة النسيان؟ طعنته الآلام مرات ومرات، وشعر بدوار شديد، فأغمض عينيه، لدقائق، ثُم هبط مارًا بشوارع لم يعيها، ومبانٍ لم يتذكرها، ووجوه لم يعرفها، قبل أن يسقط أمام باب البيت مغشيًا عليه.

***

ـ سرطان في الرئة.

سمع «حسين» صوت رجل عجوز إلى جواره يتحدث إلى آخر. تذكر أنَّه خاله الذي عاش طوال عمره في أوروبا ولم يعُد إلا بعد دخوله

السجن متهمًا بالتخطيط لقتل «عبدالناصر». كانت الجلبة حوله تشي بتجمع كثيرين، لكنَّه لم يستبن العديد من الوجوه حوله. فكَّر سريعًا حاسمًا أمرهم ليُقرر أنَّهم لابد من الأقارب. حاول أن يتعرف على أيهم، ونجح بعد جُهد في أن يميّز وجه «نجيب» الذي كان يتحدث مع إحدى السيدات التي بدت كثيرة الشبه ب«سناء». تركزت عيناه عليهما، ثُم بدأ كما تعلّم في السجن قراءة تحركات الشفاه ليصل إليه الكلام المرير:

ــ وصل إلى البيت قبل يومين، وعرفه بواب البيت المقابل، وسقط أمامه فاقدًا للوعي، فاتصل الرجل بنا لننقله إلى أقرب مستشفى.

ــ يااااه.

ــ الآن أخبرني الدكتور أنَّه في حالة متأخرة جدًا، وأن الباقي له على هذه الأرض لن يتجاوز شهورا قليلة. لذلك اتصلنا بمندوب الرئاسة وأجابنا أنه على استعداد لنقله لمستشفى القوات المُسلحة في المعادي، هُناك سيتكفلون بعلاجه حتى النهاية. وعلى أي حال سنُخبر «سعيد» و«مدحت» فور خروجهما هذا الأسبوع، وسأتصل بزوجته لأخبرها إن كانت ترغب أن تُلقي هي والبنات النظرات الأخيرة عليه أم لا.

ــ لا أمل نهائي؟

ــ للأسف وصل المرض إلى العظام. لا أمل في العلاج. سيتكفل المورفين بتخفيف آلامه. وسيقضي معظم أيامه الباقية نائمًا، مُخدرا، غائبًا عن الوعي.

ــ هل يعرف؟

أنكر «حسين» سؤالها، واصطدم رأسه في الحائط. شعر بزغللة النظر تتصاعد، لتدور الساقية بسرعة شديدة ساحبة رأسه تجُره دون توقف. فجأة تراءى له وجه الضابط «إبراهيم إمام» يبتسم في ثبات، قبل أن يقترب منه ويقول: حسين أنت مُجرم. ردَّ صائحًا: لا أنا بطل، لكنَّ

t.me/qurssan

الوجه الباسم كرر في حدة: أنت مُجرم. مُجرم. مجرم.

عبر أمامه «مُصطفى النحاس» مُنحنيًا على عكازه، والناس حوله مُحتشدة، نظر في وجهه، ثُم رنا للسماء بعينين شاكيتين. خلفه كانت هناك طفلة صغيرة تبكي. سمع الناس يُنادونها «عائشة»، اقترب منها فتوقفت عن النحيب وصفعته بقسوة وهي تردد: لم يكن أبي خائنًا لم يكن أبي خائنًا. جرى خائفًا، فأبصر سيدة وطفلًا، تذكر أنَّه أطلق عليهما الرصاص في المعبد اليهودي في دمشق. قال وقلبه يرتجف: لقد قتلتكما، لكنَّ الطفل الصغير أجاب: لم نمت.

صعد إلى جبل عال فأبصر «حسني الزعيم»، وهو يضحك ضحكًا صاخبًا، وهم يُطلقون الرصاص عليه، ثُم نظر فوجد «أديب الشيشكلي» يشارك في فرقة الإعدام، وإلى جواره وقف «عبدالرحمن ناصر» رجل المخابرات السوري يبتسم في هدوء، ثُم غمز له بنصف عين، فصرخ «حسين» فيهم قائلًا:

ـــ أيها الأوغاد مَن منكم مع مَن؟ ومَن ضد مَن؟ مَّن البطل؟ ومَن الخائن؟ مَن المُنتصر؟ ومَن المهزوم؟

سمع ضحكات «نوار» الفلسطيني، وهو يشرح له:

ـــ يُصنع الديناميت من مادة النيتروجلسرين بعد أن يضاف إليه التراب المُترسب على الصخور الجبلية ويخلط المزيج بعد ذلك بـ...

صرخ «حسين» مُجددًا فيه كي يصمت، لكن صوت «جمال عبدالناصر» صك أذنيه، وهو يخطب قائلًا:

ـــ إنَّ قوى الاستعمار تظُن أنَّ جمال عبدالناصر هو عدوها، وأريد أن يكون واضحًا أمامهم أنَّها الأمة العربية كلها وليس جمال عبدالناصر.

شعر بخناجر تطعنه في حلقه، وحاول أن يستبين ملامح الطاعن لكنَّه لم يتمكن من تمييزها، اشتم رائحة تبغ يعرفه، ثُم سمع صوتًا أجش، فجرى خائفًا، وارتمى خلف إحدى السيارات المُغطاة،

t.me/qurssan

ليجد يـدًا حانيـة تمسـح عـلى رأسـه، وسـمع صوتًا رقيقًـا يهمـس في أذنـه:

ـ حسين. لا تخف. أنت ضحية.

كانـت الشـخص الوحيـد الـذي لـم يخـف منـه، وشـعر بـدفء أنفاسـها، وهتـف شـاكرًا:

ـ سُعاااااااااد.

وســأل نفســه إن كان وجودهــا حقيقــة أم حُلمًــا. وابتســم غائبًــا في اللامــكان.

تمت

t.me/qurssan

تذييل

استمدت الرواية من وقائع حقيقية، لذا فإنَّ معظم أبطالها حقيقيون، واستندت الرواية إلى عدة مصادر كان أهمها كتاب «اغتيال أمين باشا عثمان» الصادر من مركز وثائق مصر بإشراف الدكتور نبيل عبدالحميد سيد أحمد، والدكتور يواقيم رزق مرقص، وكتاب «المحاكمة الكبرى في قضية الاغتيالات الكبرى» للطفي عثمان، وكتاب «الكفاح المسلح ضد الإنجليز» لوسيم خالد، فضلًا عن ملف حسين توفيق بمؤسسة الأهرام للصحافة.

t.me/qurssan

الكاتب في سطور

ـ من مواليد القاهرة 1976 ويعمل بالصحافة.

ـ صدر له 15 كتابا متنوعًا من بينها ثلاث روايات هي «ذاكرة رصاص»،»انقلاب» و«البصاص».

ـ كتب أول سيرة لزينب الوكيل حرم الزعيم مصطفى النحاس حت عنوان «سيدة مصر»، وحقق كتابه «العسكري الأبيض»عن سيرة الفريق سعد الدين الشاذلي ثلاث طبعات.

ـ فاز بجوائز نقابة الصحفيين المصريين ثلاث مرات عن أفضل قال سياسي سنة 2013، وأفضل مقال سياسي عام 2015، وأفضل امود صحفي عام 2015.

ـ صفحة الكاتب على الـfacebook:

Mostafaebeidwriter

t.me/qurssan

نيتروجلسرين

"تذكَر أنَّ بينك وبين الغياب ساعات قد تطول وقد تقصر، وأنَّ عليك أن تُصفي ذهنك وتُنقى بالك لتستنطق لحظاتك لحظة لحظة، تكُر فيها ما كان دون دفاع أو تبرير، وتستعرض خلالها ما فعلت دون حجب أو تورية. لا تنتظر إنصافاً ولا تقدم ندماً وإنما تترك ما تعرفه لكاتب الصُدفة ليصيغ ما يراه جديراً بالحكى لأجيال قادمة تتخبط وتتشابك أمامها الرؤى والدروب. ستترك حكايتك أمانة لكاتب لا يحبك ولا يكرهك، يدونها كعظات لتائهين يؤمنون أنَّ الخلاص فى القتل."

فى رواية مليئة بالإثارة وحبس الأنفاس تتبع " نيتروجلسرين" قصة حقيقية لوحش فطرته القتل، رجل حولته الأضواء إلى بطل تفتتن به النساء ويهابه الساسة وذوى الألقاب. حسين توفيق قاتل من نوع غريب عاش فعلاً بيننا.

تتشابك حقائق التاريخ مع الخيال لتعيد رسم أحداثاً درامية انقلب فيها القتلة إلى مناضلين، وتحول بها الشُرفاء إلي خونة. صفحة من التاريخ السري لمصر التي نخجل أن نراه.

t.me/qurssan